سورة محمد

ثلاثون وثمان آيات مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ①﴾

أول هذه السورة مناسب لآخر السورة المتقدمة، فإن آخرها قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥] فإن قال قائل: كيف يُهلك الفاسق وله أعمال صالحة كإطعام الطعام وصلة الأرحام وغير ذلك؟ مما لا يخلو عنه الإنسان في طول عمره فيكون في إهلاكه إهدار عمله وقد قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧] وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي لم يبق لهم عمل ولم يوجد فلم يمتنع الإهلاك، وسنبين كيف إبطال الأعمال مع تحقيق القول فيه، وتعالى الله عن الظلم.

وفي التفسير مسائل:

المسألة الأولى: من المراد بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؟ قلنا: فيه وجوه: الأول: هم الذين كانوا يطعمون الجيش يوم بدر، منهم أبو جهل والحارث ابنا هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وغيرهم. الثاني: كفار قريش. الثالث: أهل الكتاب. الرابع: هو عام يدخل فيه كل كافر.

المسألة الثانية: في الصد وجهان: أحدهما: صدوا أنفسهم، معناه أنهم صدوا أنفسهم عن السبيل ومنعوا عقولهم من اتباع الدليل. وثانيهما: صدوا غيرهم ومنعوهم كما قال تعالى عن المستضعفين: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٣١] وعلى هذا بحث: وهو أن إضلال الأعمال مرتب على الكفر والصد، والمستضعفون لم يصدوا فلا يضل أعمالهم، فنقول: التخصيص بالذكر لا يدل على نفي ما عداه، ولا سيما إذا كان المذكور أَوْلى بالذكر من غيره، وهاهنا الكافر الصاد أدخل في الفساد فصار هو أَوْلى بالذكر. أو نقول: كل من كفر صار صادًّا لغيره، أما المستكبر فظاهر، وأما المستضعف فلأنه بمتابعته أثبت للمستكبر ما يمنعه من اتباع الرسول، فإنه بعد ما يكون متبوعًا يشق عليه بأن يصير تابعًا، ولأن كل من كفر صار صادًّا لمن بعده لأن عادة الكفار اتباع المتقدم، كما قال عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢] أو مقتدون، فإن قيل: فعلى هذا كل كافر صاد فما الفائدة في ذكر الصد بعد الكفر؟ نقول: هو من باب ذكر السبب وعطف المسبب عليه، تقول: أكلت كثيرًا وشبعت، والكفر على هذا سبب الصد، ثم إذا قلنا بأن المراد منه أنهم صدوا أنفسهم ففيه

إشارة إلى أن ما في الأنفس من الفطرة كان داعيًا إلى الإيمان، والامتناع لمانع وهو الصد لنفسه.

المسألة الثالثة: في المصدود عنه وجوه: الأول: عن الإنفاق على محمد عليه السلام وأصحابه. الثاني: عن الجهاد. الثالث: عن الإيمان. الرابع: عن كل ما فيه طاعة الله تعالى وهو اتباع محمد عليه السلام، وذلك لأن النبي ﷺ على الصراط المستقيم هادٍ إليه، وهو صراط الله، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣] فمن منع من اتباع محمد عليه السلام فقد صد عن سبيل الله.

المسألة الرابعة: في الإضلال وجوه: الأول: المراد منه الإبطال، ووجهه هو أن المراد أنه أضله بحيث لا يجده، فالطالب إنما يطلبه في الوجود، وما لا يوجد في الوجود فهو معدوم. فإن قيل: كيف يبطل الله حسنة أوجدها؟ نقول: إن الإبطال على وجوه: أحدها: يوازن بسيئاتهم الحسنات التي صدرت منهم ويسقطها بالموازنة ويبقي لهم سيئات محضة؛ لأن الكفر يزيد على غير الإيمان من الحسنات، والإيمان يترجح على غير الكفر من السيئات. وثانيها: أبطلها لفقد شرط ثبوتها وإثباتها وهو الإيمان لأنه شرط قبول العمل، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [غافر: ٤٠] وإذا لم يقبل الله العمل لا يكون له وجود؛ لأن العمل لا بقاء له في نفسه بل هو يعدم عقيب ما يوجد في الحقيقة، غير أن الله تعالى يكتب عنده بفضله أن فلانًا عمل صالحًا وعندي جزاؤه فيبقى حكمًا، وهذا البقاء حكمًا خير من البقاء الذي للأجسام التي هي محل الأعمال حقيقة، فإن الأجسام وإن بقيت غير أن مآلها إلى الفناء والعمل الصالح من الباقيات عند الله أبدًا، وإذا ثبت هذا تبين أن الله بالقبول متفضل، وقد أخبر أني لا أقبل إلا من مؤمن. فمن عمل وتعب من غير سبق الإيمان فهو المضيع تعبه لا الله تعالى. وثالثها: لم يعمل الكافر عمله لوجه الله تعالى، فلم يأت بخير، فلا يَرد علينا قوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧] وبيانه هو أن العمل لا يتميز إلا بمن له العمل لا بالعامل ولا بنفس العمل، وذلك لأن من قام ليقتل شخصًا ولم يتفق قتله، ثم قام ليكرمه ولم يتفق الإكرام ولا القتل، وأخبر عن نفسه أنه قام في اليوم الفلاني لقتله وفي اليوم الآخر لإكرامه، يتميز القيامان لا بالنظر إلى القيام فإنه واحد ولا بالنظر إلى القائم فإنه حقيقة واحدة، وإنما يتميز بما كان لأجله القيام، وكذلك من قام وقصد بقيامه إكرام الملك وقام وقصد بقيامه إكرام بعض العوام، يتميز أحدهما عن الآخر بمنزلة العمل لكن نسبة الله الكريم إلى الأصنام فوق نسبة الملوك إلى العوام، فالعمل للأصنام ليس بخير، ثم إن اتفق أن يقصد واحد بعمله وجه الله تعالى ومع ذلك يعبد الأوثان - لا يكون عمله خيرًا؛ لأن مثل ما أتى به لوجه الله أتى به للصنم المنحوت فلا تعظيم. الوجه الثاني: الإضلال هو جعله مستهلكًا، وحقيقته هو أنه إذا كفر وأتى للأحجار والأخشاب بالركوع والسجود فلم يبق لنفسه حرمة وفعله لا يبقى معتبرًا بسبب كفره، وهذا كمن يخدم عند الحارس والسايس إذا قام فالسلطان لا يعمل قيامه تعظيمًا لخسته، كذلك الكافر، وأما المؤمن فبقدر ما

يتكبر على غير الله يظهر تعظيمه لله، كالملك الذي لا ينقاد لأحد إذا انقاد في وقت لملك من الملوك يتبين به عظمته. الوجه الثالث: (أضله) أي أهمله وتركه، كما يقال: أضل بعيره، إذا تركه مسيبًا فضاع. ثم إن الله تعالى لما بيّن حال الكفار بيّن حال المؤمنين فقال:

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قد ذكرنا مرارًا أن الله تعالى كلما ذكر الإيمان والعمل الصالح، رتب عليهما المغفرة والأجر كما قال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الحج: ٥٠] وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ [العنكبوت: ٧] وقلنا بأن المغفرة ثواب الإيمان والأجر على العمل الصالح واستوفينا البحث فيه في سورة العنكبوت، فنقول ههنا جزاء ذلك قوله: ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ إشارة إلى ما يثيب على الإيمان، وقوله: ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ إشارة إلى ما يثيب على العمل الصالح.

المسألة الثانية: قالت المعتزلة: تكفير السيئات مرتب على الإيمان والعمل الصالح، فمن آمن ولم يفعل الصالحات يبقى في العذاب خالدًا. فنقول: لو كان كما ذكرتم لكان الإضلال مرتبًا على الكفر والصد، فمن يكفر لا ينبغي أن تضل أعماله، أو نقول: قد ذكرنا أن الله رتب أمرين على أمرين، فمن آمن كفر سيئاته ومن عمل صالحًا أصلح باله، أو نقول: أي مؤمن يتصور أنه غير آتٍ بالصالحات بحيث لا يصدر عنه صلاة ولا صيام ولا صدقة ولا إطعام، وعلى هذا فقوله: ﴿ وَعَمِلُواْ﴾ عطف المسبب على السبب، كما قلنا في قول القائل: أكلت كثيرًا وشبعت.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ مع أن قوله (آمنوا وعملوا الصالحات) أفاد هذا المعنى فما الحكمة فيه وكيف وجهه؟ فنقول: أما وجهه فبيانه من وجوه: الأول: قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي بالله ورسوله واليوم الآخر، وقوله: ﴿ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ﴾ أي بجميع الأشياء الواردة في كلام الله ورسوله، تعميم بعد أمور خاصة وهو حسن، تقول: خلق الله السموات والأرض وكل شيء، إما على معنى وكل شيء غير ما ذكرنا وإما على العموم بعد ذكر الخصوص. الثاني: أن يكون المعنى آمنوا وآمنوا من قبل بما نزل على محمد، وهو الحق المعجز الفارق بين الكاذب والصادق، يعني آمنوا أولاً بالمعجز وأيقنوا بأن القرآن لا يأتي به غير الله، فآمنوا وعملوا الصالحات، والواو للجمع المطلق، ويجوز أن يكون المتأخر ذكرًا متقدمًا وقوعًا، وهذا كقول القائل آمن به، وكان الإيمان به واجبًا، أو يكون بيانًا لإيمانهم كأنهم ﴿ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ أي آمنوا وآمنوا بالحق، كما يقول القائل: خرجت وخرجت مصيبًا، أي وكان خروجي جيدًا حيث نجوت من كذا وربحت كذا. فكذلك لما قال: (آمنوا) بيّن أن إيمانهم

كان بما أمر الله وأنزل الله لا بما كان باطلاً من عند غير الله. الثالث: ما قاله أهل المعرفة، وهو أن العلم العمل والعمل العلم، فالعلم يحصل ليعمل به لما جاء: إذا عمل العالم العمل الصالح علم ما لم يكن يعلم، فيعلم الإنسان مثلاً قدرة الله بالدليل وعلمه وأمره، فيحمله الأمر على الفعل ويحثه عليه علمه فعلمه بحاله وقدرته على ثوابه وعقابه، فإذا أتى بالعمل الصالح علم من أنواع مقدورات الله ومعلومات الله تعالى ما لم يعلمه أحد إلا بإطلاع الله عليه وبكشفه ذلك له فيؤمن، وهذا هو المعنى في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]فإذا آمن المكلف بمحمد بالبرهان وبالمعجزة وعمل صالحًا، حَمَله علمه على أن يؤمن بكل ما قاله محمد ولم يجد في نفسه شكًّا، وللمؤمن في المرتبة الأولى أحوال وفي المرتبة الأخيرة أحوال، أما في الإيمان بالله ففي الأول يجعل الله معبودًا، وقد يقصد غيره في حوائجه فيطلب الرزق من زيد وعمر ويجعل أمرًا سببًا لأمر، وفي الأخيرة يجعل الله مقصودًا ولا يقصد غيره، ولا يرى إلا منه سره وجهره، فلا ينيب إلى شيء في شيء، فهذا هو الإيمان الآخر بالله وذلك الإيمان الأول.

وأما ما في النبي ﷺفيقول أولاً: هو صادق فيما ينطق، ويقول آخرًا: لا نطق له إلا بالله، ولا كلام يُسمع منه إلا وهو من الله. فهو في الأول يقول بالصدق ووقوعه منه، وفي الثاني يقول بعدم إمكان الكذب منه لأن حاكي كلام الغير لا ينسب إليه الكذب ولا يمكن إلا في نفس الحكاية، وقد علم هو أنه حاك عنه كما قاله، وأما في المرتبة الأولى فيجعل الحشر مستقبلاً والحياة العاجلة حالاً، وفي المرتبة الأخيرة يجعل الحشر حالاً والحياة الدنيا ماضيًا، فيقسم حياة نفسه في كل لحظة، ويجعل الدنيا كلها عدمًا لا يلتفت إليها ولا يُقبل عليها.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ هو في مقابلة قوله في حق الكافر: ﴿وَصَدُّواْ﴾ [محمد: ١]لأنا بينا في وجه أن المراد بهم صدوا عن اتباع محمد ﷺ، وهذا حث على اتباع محمد ﷺ فهم صدوا أنفسهم عن سبيل الله، وهو محمد عليه السلام وما أُنزل عليه، وهؤلاء حثوا أنفسهم على اتباع سبيله، لا جرم حصل لهؤلاء ضد ما حصل لأولئك، فأضل الله حسنات أولئك وستر على سيئات هؤلاء.

المسألة الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ هل يمكن أن يكون من ربهم وصفًا فارقًا، كما يقال: رأيت رجلاً من بغداد، فيصير وصفًا للرجل فارقًا بينه وبين من يكون من الموصل وغيره؟ نقول: لا؛ لأن كل ما كان من الله فهو الحق، فليس هذا هو الحق من ربهم، بل قوله: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ خبر بعد خبر، كأنه قال: وهو الحق وهو من ربهم، أو إن كان وصفًا فارقًا فهو على معنى أنه الحق النازل من ربهم لأن الحق قد يكون مشاهدًا، فإن كون الشمس مضيئة حق وهو ليس نازل من الرب، بل هو علم حاصل بطريق يَسَّره الله تعالى لنا.

ثم قال تعالى:﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي سترها، وفيه إشارة إلى بشارة ما كانت تحصل

بقوله أعدمها ومحاها، لأن محو الشيء لا ينبئ عن إثبات أمر آخر مكانه، وأما الستر فينبئ عنه، وذلك لأن من يريد ستر ثوب بالٍ أو وسخ لا يستره بمثله، وإنما يستره بثوب نفيس نظيف، ولا سيما الملك الجواد إذا ستر على عبد من عبيده ثوبه البالي أمر بإحضار ثوب من الجنس العالي لا يحصل إلا بالثمن الغالي، فليس هذا هو الستر بينه وبين المحبوبين، وكذلك المغفرة، فإن المغفرة والتكفير من باب واحد في المعنى، وهذا هو المذكور في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٖۗ﴾ [الفرقان: ٧٠] وقوله: ﴿وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾ إشارة إلى ما ذكرنا من أنه يبدلها حسنة، فإن قيل: كيف تبدل السيئة حسنة؟ نقول: معناه أنه يجزيه بعد سيئاته ما يجزي المحسن على إحسانه، فإن قال: الإشكال باقٍ وبادٍ، وما زال بل زاد، فإن الله تعالى لو أثاب على السيئة كما يثيب عن الحسنة، لكان ذلك حثًّا على السيئة. نقول: ما قلنا: إنه يثيب على السيئة وإنما قلنا: إنه يثيب بعد السيئة بما يثيب على الحسنة، وذلك حيث يأتي المؤمن بسيئة، ثم يتنبه ويندم ويقف بين يدي ربه معترفًا بذنبه مستحقرًا لنفسه، فيصير أقرب إلى الرحمة من الذي لم يذنب ودخل على ربه مفتخرًا في نفسه، فصار الذنب شرطًا للندم، والثواب ليس على السيئة، وإنما هو على الندم، وكأن الله تعالى قال: عبدي أذنب ورجع إليّ، ففعله شيء لكن ظنه بي حسن حيث لم يجد ملجأ غيري فاتكل على فضلي. والظن عمل القلب، والفعل عمل البدن، واعتبار عمل القلب أَوْلى، ألا ترى أن النائم والمغمى عليه لا يُلتفت إلى عمل بدنه، والمفلوج الذي لا حركة له يعتبر قصد قلبه، ومثال الروح والبدن راكب دابة يركض فرسه بين يدي ملك يدفع عنه العدو بسيفه وسنانه، والفرس يلطخ ثوب الملك بركضه في استنانه، فهل يلتفت إلى فعل الدابة مع فعل الفارس، بل لو كان الراكب فارغًا الفرس يؤذي بالتلويث يخاطب الفارس به، فكذلك الروح راكب والبدن مركوب، فإن كانت الروح مشغولة بعبادة الله وذكره، ويصدر من البدن شيء لا يُلتفت إليه، بل يستحسن منه ذلك ويزاد في تربية الفرس الراكض ويهجر الفرس الواقف، وإن كان غير مشغول فهو مؤاخذ بأفعال البدن.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ٣﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في الباطل وجوه: الأول: ما لا يجوز وجوده، وذلك لأنهم اتبعوا إلهًا غير الله، وإله غير الله محال الوجود، وهو الباطل وغاية الباطل؛ لأن الباطل هو المعدوم، يقال: بطل كذا، أي عدم، والمعدوم الذي لا يجوز وجوده ولا يمكن أن يوجد، ولا يجوز أن يصير حقًّا موجودًا، فهو في غاية البطلان، فعلى هذا فالحق هو الذي لا يمكن عدمه وهو الله تعالى، وذلك لأن الحق هو الموجود، يقال: تحقق الأمر، أي وُجد وثبت، والموجود الذي لا

يجوز عدمه هو في غاية الثبوت. الثاني: الباطل الشيطان، بدليل قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥] فبيّن أن الشيطان متبوع وأتباعه هم الكفار والفجار، وعلى هذا فالحق هو الله؛ لأنه تعالى جعل في مقابلة حزب الشيطان حزب الله. الثالث: الباطل هو قول كبرائهم ودين آبائهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢] ومقتدون، فعلى هذا الحق ما قاله النبي عليه السلام عن الله. الرابع: الباطل كل ما سوى الله تعالى؛ لأن الباطل والهالك بمعنى واحد و﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] وعلى هذا فالحق هو الله تعالى أيضًا.

المسألة الثانية: لو قال قائل: (من ربهم) لا يلائم إلا وجهًا واحدًا من أربعة أوجه، وهو قولنا المراد من الحق هو ما أنزل الله وما قال النبي عليه السلام من الله، فأما على قولنا: الحق هو الله فكيف يصح قوله: ﴿ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ نقول على هذا ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ لا يكون متعلقًا بالحق، وإنما يكون تعلقه بقوله بقوله تعالى: ﴿ٱتَّبَعُوا۟﴾ أي اتبعوا أمر ربهم، أي من فضل الله أو هداية ربهم اتبعوا الحق، وهو الله سبحانه.

المسألة الثالثة: إذا كان الباطل هو المعدوم الذي لا يجوز وجوده، فكيف يمكن اتباعه؟ نقول: لما كانوا يقولون إنما يفعلون للأصنام وهي آلهة وهي تؤجرهم بذلك، كانوا متبعين في زعمهم، ولا مُتَّبع هناك.

المسألة الرابعة: قال في حق المؤمنين: ﴿ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ وقال في حق الكفار: ﴿ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ﴾ من آلهتهم أو الشيطان، نقول: أما آلهتهم فلأنهم لا كلام لهم ولا عقل، وحين ينطقهم الله ينكرون فعلهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤] وقال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦] والله تعالى رضي بفعلهم وثبتهم عليه، ويحتمل أن يقال: قوله: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ عائد إلى الأمرين جميعًا، أي من ربهم اتبع هؤلاء الباطل، وهؤلاء الحق، أي من حكم ربهم، ومن عند ربهم.

ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ وفيه أيضا مسائل:

المسألة الأولى: أيُّ مثل ضربه الله تعالى حتى يقول: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾؟ نقول: فيه وجهان: أحدهما: إضلال أعمال الكفار وتكفير سيئات الأبرار. الثاني: كون الكافر متبعًا للباطل، وكون المؤمن متبعًا للحق، ويحتمل وجهين آخرين: أحدهما: على قولنا: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي من عند ربهم اتبع هؤلاء الباطل وهؤلاء الحق، نقول: هذا مثل يُضرب عليه جميع الأمثال، فإن الكل من عند الله، الإضلال وغيره والاتباع وغيره. وثانيهما: هو أن الله تعالى لما بيّن أن الكافر يُضل الله عمله والمؤمن يُكفر الله سيئاته، وكان بين الكفر والإيمان مباينة ظاهرة فإنهما ضدان، نبه على أن السبب كذا، أي ليس الإضلال والتكفير بسبب المضادة والاختلاف بل بسبب اتباع الحق والباطل، وإذا علم السبب فالفعلان قد يتحدان صورة وحقيقة

وأحدهما يورث إبطال الأعمال والآخر يورث تكفير السيئات بسبب أن أحدهما يكون فيه اتباع الحق والآخر اتباع الباطل، فإن من يؤمن ظاهرًا وقلبه مملوء من الكفر، ومن يؤمن بقلبه وقلبه مملوء من الإيمان - اتحد فعلاهما في الظاهر، وهما مختلفان بسبب اتباع الحق واتباع الباطل، لا بدع من ذلك فإن من يؤمن ظاهرًا وهو يسر الكفر، ومن يكفر ظاهرًا بالإكراه وقلبه مطمئن بالإيمان اختلف الفعلان في الظاهر، وإبطال الأعمال لمن أظهر الإيمان بسبب أن اتباع الباطل من جانبه، فكأنه تعالى قال: الكفر والإيمان مثلان يثبت فيهما حكمان وعلم سببه، وهو اتباع الحق والباطل، فكذلك اعلموا أن كل شيء اتبع فيه الحق كان مقبولاً مثابًا عليه، وكل أمر اتبع فيه الباطل كان مردودًا معاقبًا عليه، فصار هذا عامًّا في الأمثال، على أنا نقول: قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ لا يستدعي أن يكون هناك مثل مضروب، بل معناه أنه تعالى لما بيّن حال الكافر وإضلال أعماله وحال المؤمن وتكفير سيئاته وبيّن السبب فيهما، كان ذلك غاية الإيضاح فقال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل هذا البيان ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ ويبين لهم أحوالهم.

المسألة الثانية: الضمير في قوله: ﴿أَمْثَٰلَهُمْ﴾ عائد إلى من؟ فيه وجهان: أحدهما: إلى الناس كافة، قال تعالى: ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ على أنفسهم. وثانيهما: إلى الفريقين السابقين في الذكر، معناه: يضرب الله للناس أمثال الفريقين السابقين.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ ۖ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٤﴾

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الفاء في قوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ﴾ يستدعي متعلقًا يتعلق به ويترتب عليه، فما وجه التعلق بما قبله؟ نقول: هو من وجوه: الأول: لما بيّن أن الذين كفروا أضل الله أعمالهم واعتبار الإنسان بالعمل، ومن لم يكن له عمل فهو همج، فإن صار مع ذلك يؤذي حسن إعدامه ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ﴾ بعد ظهور أن لا حرمة لهم وبعد إبطال أعمالهم، فاضربوا أعناقهم. الثاني: إذا تبين تباين الفريقين وتباعد الطريقين، وأن أحدهما يتبع الباطل وهو حزب الشيطان، والآخر يتبع الحق وهو حزب الرحمن، حق القتال عند التحزب، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم. الثالث: أن من الناس من يقول لضعف قلبه وقصور نظره: (إيلام الحيوان من الظلم والطغيان، ولا سيما القتل الذي هو تخريب بنيان)، فيقال ردًّا عليهم: لما كان اعتبار الأعمال باتباع الحق والباطل، فمن يقتل في سبيل الله لتعظيم أمر الله لهم من الأجر ما للمصلي والصائم، فإذا لقيتم الذين كفروا فاقتلوهم ولا تأخذكم بهما رأفة فإن ذلك اتباع للحق، والاعتبار به لا بصورة الفعل.

المسألة الثانية: ﴿فَضَرْبَ﴾ منصوب على المصدر، أي فاضربوا ضرب الرقاب.

المسألة الثالثة: ما الحكمة في اختيار ضرب الرقبة على غيرها من الأعضاء؟ نقول فيه: لما بيّن أن المؤمن ليس يدافع إنما هو دافع، وذلك أن من يدفع الصائل لا ينبغي أن يقصد أولاً مقتله بل يتدرج ويضرب على غير المقتل، فإن اندفع فذاك ولا يترقى إلى درجة الإهلاك، فقال تعالى: ليس المقصود إلا دفعهم عن وجه الأرض، وتطهير الأرض منهم، وكيف لا والأرض لكم مسجد، والمشركون نجس، والمسجد يطهر من النجاسة، فإذًا ينبغي أن يكون قصدكم أولاً إلى قتلهم بخلاف دفع الصائل، والرقبة أظهر المَقاتل لأن قطع الحلقوم والأوداج مستلزم للموت لكن في الحرب لا يتهيأ ذلك، والرقبة ظاهرة في الحرب ففي ضربها حز العنق وهو مستلزم للموت، بخلاف سائر المواضع، ولا سيما في الحرب، وفي قوله ﴿لَقِيتُمُ﴾ ما ينبئ عن مخالفتهم الصائل لأن قوله: ﴿لَقِيتُمُ﴾ يدل على أن القصد من جانبهم، بخلاف قولنا لقيكم؛ ولذلك قال في غير هذا الموضع: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾[البقرة: ١٩١].

المسألة الرابعة: قال هاهنا: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ بإظهار المصدر وتَرْك الفعل، وقال في الأنفال: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾[الأنفال: ١٢] بإظهار الفعل وتَرْك المصدر، فهل فيه فائدة؟ نقول: نعم ولنبينها بتقديم مقدمة، وهي أن المقصود أولاً في بعض السور قد يكون صدور الفعل من فاعل ويتبعه المصدر ضمنًا، إذ لا يمكن أن يفعل فاعل إلا ويقع منه المصدر في الوجود، وقد يكون المقصود أولاً المصدر ولكنه لا يوجد إلا من فاعل فيطلب منه أن يفعل، مثاله من قال: إني حلفت أن أخرج من المدينة. فيقال له: فاخرج، صار المقصود منه صدور الفعل منه والخروج في نفسه غير مقصود الانتفاء، ولو أمكن أن يخرج من غير تحقق الخروج منه لما كان عليه إلا أن يخرج، لكن من ضرورات الخروج أن يخرج، فإذا قال قائل: ضاق بي المكان بسبب الأعداء. فيقال له مثلاً (الخروجَ) يعني الخروج فاخرج، فإن الخروج هو المطلوب حتى لو أمكن الخروج من غير فاعل لحصل الغرض لكنه محال فيتبعه الفعل، إذا عرفت هذا فنقول: في الأنفال الحكاية عن الحرب الكائنة وهم كانوا فيها والملائكة أُنزلوا لنصرة من حضر في صف القتال فصدور الفعل منه مطلوب، وههنا الأمر وارد وليس في وقت القتال بدليل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ﴾ والمقصود بيان كون المصدر مطلوبًا لتقدم المأمور على الفعل قال: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ وفيما ذكرنا تبيين فائدة أخرى وهي أن الله تعالى قال هناك: ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[الأنفال: ١٢] وذلك لأن الوقت وقت القتال فأرشدهم إلى المقتل وغيره إن لم يصيبوا المقتل، وههنا ليس وقت القتال فبيّن أن المقصود القتل وغرض المسلم ذلك.

المسألة الخامسة: ﴿حَتَّىٰٓ﴾ لبيان غاية الأمر لا لبيان غاية القتل، أي حتى إذا اثخنتموهم لا يبقى الأمر بالقتل، ويبقى الجواز، ولو كان لبيان القتل لما جاز القتل، والقتل جائز إذا التحق المثخن بالشيخ الهرم، والمراد كما إذا قطعت يداه ورجلاه فنهى عن قتله.

ثم قال تعالى: ﴿فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾ أمر إرشاد.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: (إِمَّا) وإنما للحصر، وحالهم بعد الأسر غير منحصر في الأمرين، بل يجوز القتل والاسترقاق والمن والفداء، نقول: هذا إرشاد فذكر الأمر العام الجائز في سائر الأجناس، والاسترقاق غير جائز في أسر العرب، فإن النبي ﷺ كان معهم فلم يذكر الاسترقاق، وأما القتل فلأن الظاهر في المثخن الإزمان، ولأن القتل ذكره بقوله: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ فلم يبق إلا الأمران.

المسألة الثانية: منًّا وفداءً منصوبان لكونهما مصدرين، تقديره: فإما تمنون منًّا وإما تفدون فداءً، وتقديم المن على الفداء إشارة إلى ترجيح حرمة النفس على طلب المال، والفداء يجوز أن يكون مالاً وأن يكون غيره من الأسرى أو شرطًا يشرط عليهم أو عليه وحده.

المسألة الثالثة: إذا قدرنا الفعل وهو تمنون أو تفدون على تقدير المفعول، حتى نقول إما تمنون عليهم منًّا أو تفدونهم فداء. نقول: لا لأن المقصود المن والفداء لا عليهم وبهم كما يقول القائل: فلان يعطي ويمنع ولا يقال يعطي زيدًا ويمنع عمرًا؛ لأن غرضه ذكر كونه فاعلاً لا بيان المفعول، وكذلك ههنا المقصود إرشاد المؤمنين إلى الفضل.

ثم قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾.

وفي تعلق ﴿حَتَّىٰ﴾ وجهان: أحدهما: تعلقها بالقتل أي اقتلوهم حتى تضع. وثانيهما: بالمن والفداء، ويحتمل أن يقال متعلقة بشدوا الوثاق، وتعلقها بالقتل أظهر وإن كان ذكره أبعد، وفي الأوزار وجهان أحدهما: السلاح. والثاني: الآثام.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: إن كان المراد الإثم، فكيف تضع الحرب الإثم، والإثم على المحارب؟ وكذلك السؤال في السلاح لكنه على الأول أشد توجهًا، فيقول: تضع الحرب الأوزار لا من نفسها، بل تضع الأوزار التي على المحاربين والسلاح الذي عليهم.

المسألة الثانية: هل هذا كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] حتى يكون كأنه قال: حتى تضع أمة الحرب أو فرقة الحرب أوزارها؟ نقول: ذلك محتمل في النظر الأول، لكن إذا أمعنت في المعنى تجد بينهما فرقًا، وذلك لأن المقصود من قوله: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ الحرب بالكلية بحيث لا يبقى في الدنيا حزب من أحزاب الكفر يحارب حزبًا من أحزاب الإسلام، ولو قلنا: حتى تضع أمة الحرب، جاز أن يضعوا الأسلحة ويتركوا الحرب وهي باقية بمادتها، كما تقول: خصومتي ما انفصلت ولكني تركتها في هذه الأيام، وإذا أسندنا الوضع إلى الحرب يكون معناه إن الحرب لم يبق.

المسألة الثالثة: لو قال: حتى لا يبقى حزب أو ينفر من الحرب هل يحصل معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾؟ نقول: لا والتفاوت بين العبارتين مع قطع النظر عن النظم، بل النظر إلى نفس المعنى كالتفاوت بين قولك: انقرضت دولة بني أمية، وقولك: لم يبق من دولتهم أثر، ولا شك

أن الثاني أبلغ، فكذلك هاهنا قوله تعالى: ﴿أَوْزَارَهَا﴾ معناه آثارها فإن من أوزار الحرب آثارها.

المسألة الرابعة: وقت وضع أوزار الحرب متى هو؟ نقول: فيه أقوال حاصلها راجع إلى أن ذلك الوقت هو الوقت الذي لا يبقى فيه حزب من أحزاب الإسلام وحزب من أحزاب الكفر. وقيل: ذلك عند قتال الدجال ونزول عيسى عليه السلام.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ۛ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾.

في معنى ذلك وجهان: أحدهما: الأمر ذلك، والمبتدأ محذوف، ويحتمل أن يقال: ذلك واجب أو مقدم، كما يقول القائل: إن فعلت فذاك، أي فذاك مقصود ومطلوب. ثم بيّن أن قتالهم ليس طريقًا متعينًا بل الله لو أراد أهلكهم من غير جند.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾.

أي ولكن ليكلفكم فيحصل لكم شرف باختياره إياكم لهذا الأمر. فإن قيل: ما التحقيق في قولنا: التكليف ابتلاء وامتحان والله يعلم السر وأخفى، وماذا يفهم من قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾؟ نقول: فيه وجوه: الأول: أن المراد منه يفعل ذلك فعل المبتلين، أي كما يفعل المبتلي المختبر، ومنها أن الله تعالى يبلو ليظهر الأمر لغيره إما للملائكة وإما للناس، والتحقيق هو أن الابتلاء والامتحان والاختبار فعل يظهر بسببه أمر غير متعين عند العقلاء بالنظر إليه قصدًا إلى ظهوره، وقولنا فعل يظهر بسببه أمر ظاهر الدخول في مفهوم الابتداء؛ لأن ما لا يظهر بسببه شيء أصلًا لا يسمى ابتلاء، أما قولنا أمر غير متعين عند العقلاء، وذلك لأن من يضرب بسيفه على القثاء والخيار لا يقال: إنه يمتحن؛ لأن الأمر الذي يظهر منه متعين وهو القطع والقد بقسمين، فإذا ضرب بسيفه سبعًا يقال: يمتحن بسيفه ليدفع عن نفسه وقد يقده وقد لا يقده، وأما قولنا: ليظهر منه ذلك فلأن من يضرب سبعًا بسيفه ليدفعه عن نفسه لا يقال إنه ممتحن لأن ضربه ليس لظهور أمر متعين.

إذا علم هذا فنقول: الله تعالى إذا أمرنا بفعل يظهر بسببه أمر غير متعين، وهو إما الطاعة أو المعصية في العقول ليظهر ذلك يكون ممتحنًا، وإن كان عالمًا به لكون عدم العلم مقارنًا فينا لابتلائنا فإذا ابتلينا وعدم العلم فينا مستمر أمرنا وليس من ضرورات الابتلاء، فإن قيل: الابتلاء فائدته حصول العلم عند المبتلي، فإذا كان الله تعالى عالمًا فأية فائدة فيه؟ نقول: ليس هذا سؤال يختص بالابتلاء، فإن قول القائل: لِمَ ابتلى؟ كقول القائل: لِمَ عاقب الكافر وهو مستغنٍ؟ ولِمَ خلق النار محرقة وهو قادر على أن يخلقها بحيث تنفع ولا تضر؟ وجوابه: لا يُسأل عما يفعل، ونقول حينئذٍ ما قاله المتقدمون إنه لظهور الأمر المتعين لإله، وبعد هذا فنقول: المبتلي لا حاجة له إلى الأمر الذي يظهر من الابتلاء، فإن الممتحن للسيف فيما ذكرنا من الصورة لا حاجة له إلى قطع ما يجرب السيف فيه حتى أنه لو كان محتاجًا، كما ضربنا من مثال دفع السبع بالسيف لا يقال إنه يمتحن وقوله: ﴿لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم

بِبَعْضٍ﴾ إشارة إلى عدم الحاجة تقريرًا لقوله: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾.

قرئ (قَتَلُوا وَقَاتَلُوا) والكل مناسب لما تقدم، أما من قرأ قتلوا فلأنه لما قال: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ ومعناه فاقتلوهم بين ما للقاتل بقوله: (والذين قَتَلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم) ردًّا على من زعم أن القتل فساد محرم إذ هو إفناء من هو مكرم، فقال: عملهم ليس كحسنة الكافر يبطل بل هو فوق حسنات الكافر أضل الله أعمال الكفار، ولن يضل القاتلين، فكيف يكون القتل سيئة، وأما من قرأ (قاتلوا) فهو أكثر فائدة وأعم تناولاً؛ لأنه يدخل فيه من سعى في القتل سواء قتل أو لم يقتل، وأما من قرأ ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا﴾ على البناء للمفعول فنقول: هي مناسبة لما تقدم من وجوه: أحدها: هو أنه تعالى لما قال: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أي اقتلوا: والقتل لا يتأتى إلا بالإقدام وخوف أن يُقتل المُقْدم يمنعه من الإقدام، فقال: لا تخافوا القتل فإن من يُقتل في سبيل الله له من الأجر والثواب ما لا يمنع المقاتل من القتال بل يحثه عليه. وثانيها: هو أنه تعالى لما قال: ﴿لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ والمبتلي بالشيء له على كل وجه من وجوه الأثر الظاهر بالابتلاء حال من الأحوال، فإن السيف الممتحن تزيد قيمته على تقدير أن يقطع، وتنقص على تقدير أن لا يقطع، فحال المبتلين ماذا؟ فقال: إن قُتل فله أن لا يضل عمله ويهدى ويكرم ويدخل الجنة، وأما إن قَتَل فلا يخفى . . . [1] عاجلاً وآجلاً، وترك بيانه على تقدير كونه قاتلاً لظهوره وبين حاله على تقدير كونه مقتولاً. وثالثها: هو أنه تعالى لما قال: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ ولا يبتلي الشيء النفيس بما يخاف منه هلاكه، فإن السيف المهند العضب الكبير القيمة لا يجرب بالشيء الصلب الذي يخاف عليه منه الانكسار، ولكن الآدمي مكرم كَرَّمه الله وشَرَّفه وعَظَّمه، فلماذا ابتلاه بالقتال وهو يفضي إلى القتل والهلاك إفضاء غير نادر، فكيف يحسن هذا الابتلاء؟ فنقول: القتل ليس بإهلاك بالنسبة إلى المؤمن فإنه يورث الحياة الأبدية، فإذا ابتلاه بالقتال فهو على تقدير أن يقتل مكرم، وعلى تقدير أن لا يقتل مكرم، هذا إن قاتل، وإن لم يقاتل فالموت لا بد منه وقد فوت على نفسه الأجر الكبير.

وأما قوله تعالى: ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ قد علم معنى الإضلال، بقي الفرق بين العبارتين في حق الكافر والضال قال: ﴿أَضَلَّ﴾ [محمد: ١] وقال في حق المؤمن الداعي: ﴿فَلَن يُضِلَّ﴾ لأن المقاتل داع إلى الإيمان لأن قوله: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ قد ذكر أن معناه حتى لم يبق إثم بسبب حرب، وذلك حيث يُسْلم الكافر، فالمقاتل يقول: إما أن تُسْلم وإما أن تُقتل. فهو داع والكافر صاد، وبينهما تباين وتضاد فقال في حق الكافر (أضل) بصيغة الماضي، ولم يقل (يُضل) إشارة إلى أن عمله حيث وُجد عدم، وكأنه لم يوجد من أصله، وقال في حق المؤمن: (فلن يضل)، ولم يقل: (ما أضل) إشارة إلى أن عمله كلما ثبت عليه أثبت له، فلن يضل للتأبيد وبينهما غاية

---

(١) بياض قدر كلمة بالأصل.

الخلاف، كما أن بين الداعي والصادّ غاية التباين والتضاد، فإن قيل: ما معنى الفاء في قوله: ﴿فَلَن يُضِلَّ﴾؟ جوابه لأن في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا﴾ معنى الشرط.

قوله تعالى: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥﴾

إن قرئ (قَتَلوا) أو (قاتلوا) فالهداية محمولة على الآجلة والعاجلة، وإن قرئ (قُتِلوا) فهو الآخرة (سَيَهْدِيهِمْ) طريق الجنة من غير وقفة من قبورهم إلى موضع حبورهم.

وقوله: ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾.

قد تقدم تفسيره في قوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢] والماضي والمستقبل راجع إلى أن هناك وعدهم ما وعدهم بسبب الإيمان والعمل الصالح، وذلك كان واقعًا منهم فأخبر عن الجزاء بصيغة تدل على الوقوع، وههنا وعدهم بسبب القتال والقتل، فكان في اللفظ ما يدل على الاستقبال؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ﴾ [محمد: ٤] يدل على الاستقبال فقال: ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾

قوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ﴾.

وكأن الله تعالى عند حشرهم يهديهم إلى طريق الجنة، ويلبسهم في الطريق خلع الكرامة، وهو إصلاح البال ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ﴾ فهو على ترتيب الوقوع.

وأما قوله: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾. ففيه وجوه: أحدها: هو أن كل أحد يعرف منزلته ومأواه، حتى أن أهل الجنة يكونون أعرف بمنازلهم فيها من أهل الجمعة ينتشرون في الأرض كل أحد يأوي إلى منزله، ومنهم من قال: الملك الموكل بأعماله يهديه: الوجه الثاني: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي طَيَّبها، يقال: طعام معرف. الوجه الثالث: قال الزمخشري: يحتمل أن يقال: عَرَّفها لهم، حددها، مِن عرف الدار وأرفها، أي حددها، وتحديدها في قوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣] ويحتمل أن يقال: المراد هو قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا﴾ [الزخرف: ٧٢] مشيرًا إليها معرفًا لهم بأنها هي تلك. وفيه وجه آخر: وهو أن يقال: معناه ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ قبل القتل فإن الشهيد قبل وفاته تُعرض عليه منزلته في الجنة فيشتاق إليها. ووجه ثان: معناه ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ﴾ ولا حاجة إلى وصفها فإنه تعالى: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ مرارًا ووصفها. ووجه ثالث: وهو من باب تعريف الضالة فإن الله تعالى لما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] فكأنه تعالى قال: من يأخذ الجنة ويطلبها بماله أو بنفسه فالذي قُتل سمع التعريف وبذل ما طُلب منه عليها فأدخلها.

ثم إنه تعالى لما بيّن ما على القتال من الثواب والأجر وعدهم بالنصر في الدنيا زيادة في الحث ليزداد منهم الإقدام فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ وفي

نصر الله تعالى وجوه: الأول: إن تنصروا دين الله وطريقه. والثاني: إن تنصروا حزب الله وفريقه. الثالث: المراد نصرة الله حقيقة، فنقول: النصرة تحقيق مطلوب أحد المتعاديين عند الاجتهاد والأخذ في تحقيق علامته، فالشيطان عدو الله يجتهد في تحقيق الكفر وغلبة أهل الإيمان، والله يطلب قمع الكفر وإهلاك أهله وإفناء من اختار الإشراك بجهله، فمن حقق نصرة الله حيث حقق مطلوبه لا تقول حقق مراده فإن مراد الله لا يحققه غيره، ومطلوبه عند أهل السنة غير مراده فإنه طلب الإيمان من الكافر ولم يرده وإلا لوقع.

ثم قال: ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ فإن قيل: فعلام قلت: إذا نصر المؤمنين الله تعالى، فقد حقق ما طلبه، فكيف يحقق ما طلبه العبد وهو شيء واحد؟ فنقول: المؤمن ينصر الله بخروجه إلى القتال وإقدامه، والله ينصره بتقويته وتثبيت أقدامه، وإرسال الملائكة الحافظين له من خلفه وقدامه.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٩ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ۝١٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝١١﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾.

هذا زيادة في تقوية قلوبهم؛ لأنه تعالى لما قال: ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] جاز أن يتوهم أن الكافر أيضًا يصبر ويثبت للقتال فيدوم القتال والحراب والطعان والضراب، وفيه المشقة العظيمة، فقال تعالى: لكم الثبات ولهم الزوال والتغير والهلاك فلا يكون الثبات، وسببه ظاهر لأن آلهتهم جمادات لا قدرة لها ولا ثبات عند من له قدرة، فهي غير صالحة لدفع ما قدره الله تعالى عليهم من الدمار، وعند هذا لا بد عن زوال القدم والعثار، وقال في حق المؤمنين: ﴿وَيُثَبِّتْ﴾ بصيغة الوعد لأن الله تعالى لا يجب عليه شيء، وقال في حقهم بصيغة الدعاء، وهي أبلغ من صيغة الإخبار من الله لأن عثارهم واجب لأن عدم النصرة من آلهتهم واجب الوقوع إذ لا قدرة لها، والتثبيت من الله ليس بواجب الوقوع؛ لأنه قادر مختار يفعل ما يشاء.

وقوله: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ إشارة إلى بيان مخالفة موتاهم لقتلى المسلمين، حيث قال في حق قتلاهم: ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٤] وقال في موتى الكافرين: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾.

ثم بيّن الله تعالى سبب ما اختلفوا فيه فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ وفيه وجوه: الأول: المراد القرآن، ووجهه هو أن كيفية العمل الصالح لا تُعلم بالعقل وإنما تُدرك بالشرع والشرع بالقرآن، فلما أعرضوا لم يعرفوا العمل الصالح وكيفية الإتيان به، فأتوا بالباطل فأحبط أعمالهم. الثاني: ﴿كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ من بيان التوحيد، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿أَئِنَّا

لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا﴾ [الصافات: ٣٦] وقال تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ﴾ إلى أن قال: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٥ - ٧] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [الزمر: ٤٥] ووجهه أن الشرك محبط للعمل، قال الله تعالى: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وكيف لا والعمل من المشرك لا يقع لوجه الله، فلا بقاء له في نفسه ولا بقاء له ببقاء من له العمل؛ لأن ما سوى وجه الله تعالى هالك محبط. الثالث: ﴿كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من بيان أمر الآخرة فلم يعملوا لها، والدنيا وما فيها ومآلها باطل، فأحبط الله أعمالهم.

وقوله: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾.

فيه مناسبة للوجه الثالث، يعني فينظروا إلى حالهم ويعلموا أن الدنيا فانية.

وقوله: ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ أي أهلك عليهم متاع الدنيا من الأموال والأولاد والأزواج والأجساد.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون المراد: لهم أمثالها في الدنيا، وحينئذٍ يكون المراد من الكافرين هم الكافرون بمحمد عليه الصلاة والسلام. وثانيهما: أن يكون المراد لهم أمثالها في الآخرة، فيكون المراد من تقدم، كأنه يقول: دمر الله عليهم في الدنيا ولهم في الآخرة أمثالها. وفي العائد إليه ضمير المؤنث في قوله: ﴿أَمۡثَٰلُهَا﴾ وجهان: أحدهما: هو المذكور وهو العاقبة. وثانيهما: هو المفهوم وهو العقوبة؛ لأن التدمير كان عقوبة لهم، فإن قيل: على قولنا المراد للكافرين بمحمد عليه السلام أمثال ما كان لمن تقدمهم من العاقبة يرد سؤال، وهو أن الأولين أُهلكوا بوقائع شديدة كالزلازل والنيران وغيرهما من الرياح والطوفان، ولا كذلك قوم محمد ﷺ. نقول: جاز أن يكون عذابهم أشد من عذاب الأولين لكون دين محمد أظهر بسبب تقدم الأنبياء عليهم السلام عليه وإخبارهم عنه وإنذارهم به، على أنهم قُتلوا وأُسروا بأيدي من كانوا يستخفونهم ويستضعفونهم والقتل بيد المثل آلم من الهلاك بسبب عام. وسؤال آخر: إذا كان الضمير عائدًا إلى العاقبة فكيف يكون لها أمثال؟ قلنا: يجوز أن يقال: المراد العذاب الذي هو مدلول العاقبة أو الألم الذي كانت العاقبة عليه.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿١١﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى النصر، وهو اختيار جماعة، ذكره الواحدي، ويحتمل وجهًا آخر أغرب من حيث النقل وأقرب من حديث العقل، وهو أنا لما بينا أن قوله تعالى: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠] إشارة إلى أن قوم محمد عليه الصلاة والسلام أُهلكوا بأيدي أمثالهم الذين كانوا لا يرضون بمجالستهم، وهو آلم من الهلاك بالسبب العام، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الإهلاك والهوان بسبب أن الله تعالى ناصر المؤمنين، والكافرون اتخذوا آلهة لا تنفع ولا تضر، وتركوا الله فلا ناصر لهم، ولا شك أن من ينصره الله تعالى يقدر على القتل والأسر وإن كان له ألف ناصر فضلاً عن أن يكون لا ناصر لهم، فإن قيل: كيف الجمع بين قوله تعالى: ﴿لَا مَوۡلَىٰ

لَهُمْ﴾ وبين قوله: ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢]نقول: المولى ورد بمعنى السيد والرب والناصر، فحيث قال: ﴿لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أراد لا ناصر لهم، وحيث قال: ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ أي ربهم ومالكهم، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١]وقال: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦]وفي الكلام تباين عظيم بين الكافر والمؤمن؛ لأن المؤمن ينصره الله وهو خير الناصرين، والكافر لا مولى له بصيغة نافية للجنس، فليس له ناصر وإنه شر الناصرين.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾

لما بيّن الله تعالى حال المؤمنين والكافرين في الدنيا، بيّن حالهم في الآخرة وقال: إنه يُدخل المؤمن الجنة والكافر النار.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: كثيرًا ما يقتصر الله على ذكر الأنهار في وصف الجنة؛ لأن الأنهار يتبعها الأشجار والأشجار تتبعها الثمار، ولأنه سبب حياة العالم، والنار سبب الإعدام، وللمؤمن الماء ينظر إليه وينتفع به، وللكافر النار يتقلب فيها ويتضرر بها.

المسألة الثانية: ذكرنا مرارًا أن (مِن) في قوله: ﴿مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ يحتمل أن يكون صلة معناه تجري تحتها الأنهار، ويحتمل أن يكون المراد أن ماءها منها لا يجري إليها من موضع آخر، فيقال: هذا النهر منبعه من أين؟ يقال: من عين كذا، من تحت جبل كذا.

المسألة الثالثة: قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ﴾ خصهم بالذكر مع أن المؤمن أيضًا له التمتع بالدنيا وطيباتها، نقول: من يكون له مُلك عظيم ويملك شيئًا يسيرًا أيضًا لا يُذكر إلا بالمُلك العظيم، يقال في حق الملك العظيم: صاحب الضيعة الفلانية. ومن لا يملك إلا شيئًا يسيرًا فلا يُذكر إلا به، فالمؤمن له ملك الجنة فمتاع الدنيا لا يُلتفت إليه في حقه والكافر ليس له إلا الدنيا، ووجه آخر: الدنيا للمؤمن سجن كيف كان، ومن يأكل في السجن لا يقال إنه يتمتع، فإن قيل: كيف تكون الدنيا سجنًا مع ما فيها من الطيبات؟ نقول: للمؤمن في الآخرة طيبات معدة وإخوان مكرمون، نسبتها ونسبتهم إلى الدنيا ومن فيها تتبين بمثال، وهو أن من يكون له بستان فيه من كل الثمرات الطيبة في غاية اللذة وأنهار جارية في غاية الصفاء ودور وغرف في غاية الرفعة وأولاده فيها، وهو قد غاب عنهم سنين ثم توجه إليهم وهم فيها، فلما قرب منهم عُوق في أجمة فيها من بعض الثمار العفصة والمياه الكدرة، وفيها سباع وحشرات كثيرة، فهل يكون حاله فيها كحال مسجون في بئر مظلمة وفي بيت خراب أم لا؟ وهل يجوز أن يقال له: اترك ما هو لك وتعلل بهذه الثمار وهذه الأنهار أم لا؟

كذلك حال المؤمن، وأما الكافر فحاله كحال مَن يُقدم إلى القتل فيصبر عليه أيامًا في مثل

تلك الأجمة التي ذكرناها يكون في جنة، ونسبة الدنيا إلى الجنة والنار دون ما ذكرنا من المثال، لكنه ينبئ ذا البال عن حقيقة الحال.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ يحتمل وجوهًا: أحدها: أن الأنعام يهمها الأكل لا غير والكافر كذلك، والمؤمن يأكل ليعمل صالحًا ويقوى عليه. وثانيها: الأنعام لا تستدل بالمأكول على خالقها والكافر كذلك. وثالثها: الأنعام تُعلف لتسمن وهي غافلة عن الأمر، لا تعلم أنها كلما كانت أسمن كانت أقرب إلى الذبح والهلاك، وكذلك الكافر، ويناسب ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾.

المسألة الرابعة: قال في حق المؤمن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ﴾ بصيغة الوعد، وقال في حق الكافر: ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ بصيغة تنبئ عن الاستحقاق لما ذكرنا أن الإحسان لا يستدعي أن يكون عن استحقاق، فالمحسن إلى من لم يوجد منه ما يوجب الإحسان كريم، والمُعذِّب من غير استحقاق ظالم.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾

لما ضرب الله تعالى لهم مثلاً بقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [محمد: ١٠] ولم ينفعهم مع ما تقدم من الدلائل، ضرب للنبي عليه السلام مثلاً تسلية له فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ وكانوا أشد من أهل مكة كذلك نفعل بهم، فاصبر كما صبر رسلهم، وقوله: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ قال الزمخشري: كيف قوله: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ مع أن الإهلاك ماضٍ، وقوله: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ للحال والاستقبال؟ والجواب أنه محمول على الحكاية والحكاية كالحال الحاضر، ويحتمل أن يقال: أهلكناهم في الدنيا فلا ناصر لهم ينصرهم ويخلصهم من العذاب الذي هم فيه، ويحتمل أن يقال: قوله: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ عائد إلى أهل قرية محمد عليه السلام، كأنه قال: أهلكنا من تقدم أهل قريتك، ولا ناصر لأهل قريتك ينصرهم ويخلصهم مما جرى على الأولين.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾

اعلم أن هذا إشارة إلى الفرق بين النبي عليه السلام والكفار؛ ليعلم أن إهلاك الكفار ونصرة النبي عليه السلام في الدنيا محقق، وأن الحال يناسب تعذيب الكافر وإثابة المؤمن، وقوله: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ فرق فارق، وقوله: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ مكمل له، وذلك أن البينة إذا كانت نظرية تكون كافية للفرق بين المتمسك بها وبين القائل قولاً لا دليل عليه، فإذا كانت البينة منزلة من الله تعالى تكون أقوى وأظهر فتكون أعلى وأبهر، ويحتمل أن يقال: قوله: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ليس المراد إنزالها منه بل المراد كونها من الرب بمعنى قوله: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [المدثر: ٣١] وقولنا: الهداية

من الله، وكذلك قوله تعالى: ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ فرق فارق، وقوله: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ تكملة، وذلك أن مَن زُين له سوء عمله وراجت الشبهة عليه في مقابلة من يتبين له البرهان وقَبِله، لكن من راجت الشبهة عليه قد يتفكر في الأمر ويرجع إلى الحق، فيكون أقرب إلى من هو على البرهان، وقد يتبع هواه ولا يتدبر في البرهان ولا يتفكر في البيان، فيكون في غاية البعد، فإذن حصل النبي ﷺ والمؤمن مع الكافر في طرفي التضاد وغاية التباعد حتى مدهم بالبينة، والكافر له الشبهة وهو معّ الله وأولئك مع الهوى وعلى قولنا: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ معناه الإضافة إلى الله، كقولنا الهداية من الله، فقوله: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ مع ذلك القول يفيد معنى قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] وقوله: ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ بصيغة التوحيد محمول على لفظة (مَن)، وقوله: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ محمول على معناه فإنها للجميع والعموم، وذلك لأن التزيين للكل على حد واحد فحمل على اللفظ لقربه منه في الحس والذكر، وعند اتباع الهوى كل أحد يتبع هوى نفسه، فظهر التعدد فحُمل على المعنى.

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ﴾.

لما بيّن الفرق بين الفريقين في الاهتداء والضلال، بيّن الفرق بينهما في مرجعهما ومآلهما، وكما قَدَّم من على البينة في الذكر على من اتبع هواه، قدَّم حاله في مآله على حال من هو بخلاف حاله.

وفي التفسير مسائل:

المسألة الأولى: قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ يستدعي أمرًا يُمثل به فما هو؟ نقول: فيه وجوه: الأول: قول سيبويه حيث قال: المثل هو الوصف، معناه وصف الجنة، وذلك لا يقتضي ممثلاً به، وعلى هذا ففيه احتمالان: أحدهما: أن يكون الخبر محذوفًا ويكون ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ مبتدأ تقديره فيما قصصناه مثل الجنة، ثم يستأنف ويقول: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾، وكذلك القول في سورة الرعد يكون قوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ﴾ [الرعد: ٣٥] ابتداء بيان. والاحتمال الثاني: أن يكون فيها أنهار وقوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا﴾ خبرًا كما يقال: صف لي زيدًا، فيقول القائل: زيدٌ أحمر قصير. والقول الثاني: أن المثل زيادة، والتقدير: الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار. الوجه الثاني: هاهنا الممثل به محذوف غير مذكور وهو يحتمل قولين: أحدهما: قال الزجاج حيث قال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ جنة تجري ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾ كما يقال مثل زيد رجل طويل أسمر، فيذكر

عين صفات زيد في رجل منكر لا يكون هو في الحقيقة إلا زيدًا. الثاني من القولين: هو أن يقال: معناه ﴿مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ مثل عجيب، أو شيء عظيم أو مثل ذلك، وعلى هذا يكون قوله: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾ كلامًا مستأنفًا محققًا لقولنا مثل عجيب. الوجه الثالث: الممثل به مذكور، وهو قول الزمخشري حيث قال: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ مشبه به على طريقة الإنكار، وحينئذٍ فهذا كقول القائل: حركات زيد أو أخلاقه كعمرو، وكذلك على أحد التأويلين، إما على تأويل كحركات عمرو أو على تأويل زيد في حركاته كعمرو، وكذلك هاهنا كأنه تعالى قال: مثل الجنة كمن هو خالد في النار، وهذا أقصى ما يمكن أن يقرر به قول الزمخشري، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾ وما بعد هذا جمل اعتراضية وقعت بين المبتدأ والخبر، كما يقال: نظير زيد فيه مروءة وعنده علم وله أصل عمرو.

ثم قال تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾.

اختار الأنهار من الأجناس الأربعة، وذلك لأن المشروب إما أن يُشرب لطعمه، وإما أن يُشرب لأمر غير عائد إلى الطعم، فإن كان للطعم فالطعوم تسعة: المر والمالح والحريف والحامض والعفص والقابض والتفه والحلو والدسم، ألذها الحلو والدسم، لكن أحلى الأشياء العسل فذكره وأما أدسم الأشياء فالدهن، لكن الدسومة إذا تمحضت لا تطيب للأكل ولا للشرب، فإن الدهن لا يؤكل ولا يُشرب كما هو في الغالب، وأما اللبن فيه الدسم الكائن في غيره وهو طيب للأكل وبه تغذية الحيوان أولاً، فذكره الله تعالى. وأما ما يشرب لا لأمر عائد إلى الطعم فالماء والخمر، فإن الخمر فيها أمر يشربها الشارب لأجله، هي كريهة الطعم باتفاق من يشربها وحصول التواتر به. ثم عرى كل واحد من الأشياء الأربعة عن صفات النقص التي هي فيها وتتغير بها في الدنيا فالماء يتغير يقال: أسِن الماء يأسَن على وزن أمِن يأمَن فهو آسن، وأسن اللبن إذا بقي زمانًا تغير طعمه، والخمر يكرهه الشارب عند الشرب، والعسل يشوبه أجزاء من الشمع ومن النحل يموت فيه كثيرًا، ثم إن الله تعالى خلط الجنسين فذكر الماء الذي يُشرب لا للطعم وهو عام الشرب، وقرن به اللبن الذي يُشرب لطعمه وهو عام الشرب إذ ما من أحد إلا وكان شربه اللبن، ثم ذكر الخمر الذي يُشرب لا للطعم وهو قليل الشرب، وقرن به العسل الذي يُشرب للطعم وهو قليل الشرب، فإن قيل العسل لا يشرب، نقول: شراب الجلاب لم يكن إلا من العسل والسكر قريب الزمان، ألا ترى أن السكنجبين من «سركه وانكبين» وهو الخل والعسل بالفارسية، كما أن استخراجه كان أولاً من الخل والعسل ولم يعرف السكر إلا في زمان متأخر، ولأن العسل اسم يطلق على غير عسل النحل حتى يقال عسل النحل للتمييز، والله أعلم.

المسألة الثانية: قال في الخمر: ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ ولم يقل في اللبن: لم يتغير طعمه للطاعمين ولا قال في العسل مصفى للناظرين؛ لأن اللذة تختلف باختلاف الأشخاص فرُب طعام يلتذ به

شخص ويعافه الآخر، فقال: ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ بأسرهم، ولأن الخمر كريهة الطعم فقال: ﴿لَذَّةٍ﴾ أي لا يكون في خمر الآخرة كراهة الطعم، وأما الطعم واللون فلا يختلفان باختلاف الناس، فإن الحلو والحامض وغيرهما يدركه كل أحد كذلك، لكنه قد يعافه بعض الناس ويلتذ به البعض مع اتفاقهم على أن له طعمًا واحدًا، وكذلك اللون فلم يكن إلى التصريح بالتعميم حاجة، وقوله: ﴿لَذَّةٍ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون تأنيث لذ يقال طعام لذ ولذيذ وأطعمة لذة ولذيذة. وثانيهما: أن يكون ذلك وصفًا بنفس المعنى لا بالمشتق منه كما يقال للحليم: هو حلم كله هو عقل كله.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

بعد ذكر المشروب أشار إلى المأكول، ولما كان في الجنة الأكل للذة لا للحاجة، ذكر الثمار فإنها تؤكل للذة بخلاف الخبز واللحم، وهذا كقوله تعالى في سورة الرعد: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥] حيث أشار إلى المأكول والمشروب، وهاهنا لطيفة وهي أنه تعالى قال فيها: ﴿وَظِلُّهَا﴾ ولم يقل ههنا ذلك، نقول قال هاهنا: ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ والظل فيه معنى الستر والمغفرة كذلك، ولأن المغفور تحت نظر من رحمة الغافر يقال: نحن تحت ظل الأمير، وظلها هو رحمة الله ومغفرته حيث لا يمسهم حر ولا برد.

المسألة الثالثة: المتقي لا يدخل الجنة إلا بعد المغفرة، فكيف يكون لهم فيها مغفرة؟ فنقول: الجواب عنه من وجهين: الأول: ليس بلازم أن يكون المعنى لهم مغفرة من ربهم فيها، بل يكون عطفًا على قوله: (لَهُمْ) كأنه تعالى قال: لهم الثمرات فيها ولهم المغفرة قبل دخولها. والثاني: هو أن يكون المعنى: لهم فيها مغفرة، أي رُفع التكليف عنهم فيأكلون من غير حساب بخلاف الدنيا فإن الثمار فيها على حساب أو عقاب، ووجه آخر: وهو أن الآكل في الدنيا لا يخلو عن استنتاج قبيح أو مكروه كمرض أو حاجة إلى تبرز، فقال: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ﴾ لا قبيح على الآكل بل مستور القبائح مغفور، وهذا استفدته من المعلمين في بلادنا، فإنهم يعودون الصبيان بأن يقولون وقت حاجتهم إلى إراقة البول وغيره: يا معلم غفر الله لك. فيفهم المعلم أنهم يطلبون الإذن في الخروج لقضاء الحاجة فيأذن لهم، فقلت في نفسي معناه: هو أن الله تعالى في الجنة غفر لمن أكل، وأما في الدنيا، فلأن للأكل توابع ولوازم لا بد منها فيفهم من قولهم حاجتهم.

ثم قال تعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ **وفيه أيضا مسائل:**

المسألة الأولى: على قول من قال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ معناه وصف الجنة، فقوله: ﴿كَمَنْ هُوَ﴾ بماذا يتعلق؟ نقول: قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ يتضمن كونهم فيها فكأنه قال: هو فيها كمن هو خالد في النار، فالمشبه يكون محذوفًا مدلولاً عليه بما سبق، ويحتمل أن يقال ما قيل في تقرير قول الزمخشري أن المراد هذه الجنة التي مثلها ما ذكرنا كمقام من هو خالد في النار.

المسألة الثانية: قال الزجاج: قوله تعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ راجع إلى ما تقدم، كأنه تعالى قال: أفمن كان على بينة من ربه كمن زُين له سوء عمله وهو خالد في النار فهل هو صحيح أم لا؟ نقول: لنا نظر إلى اللفظ فيمكن تصحيحه بتعسف ونظر إلى المعنى لا يصح إلا بأن يعود إلى ما ذكرناه، أما التصحيح فبحذف (كمن) في المرة الثانية أو جعله بدلاً عن المتقدم أو بإضمار عاطف يعطف ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ﴾ على ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ أو ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾، وأما التعسف فبيّن نظرًا إلى الحذف وإلى الإضمار مع الفاصل الطويل بين المشبه والمشبه به، وأما طريقة البدل ففاسدة وإلا لكان الاعتماد على الثاني، فيكون كأنه قال: أفمن كان على بينة كمن هو خالد؟ وهو سمج في التشبيه تعالى كلام الله عن ذلك، والقول في إضمار العاطف كذلك لأن المعطوف أيضًا يصير مستقلاً في التشبيه، اللّهم إلا أن يقال: المجموع بالمجموع، كأنه يقول: أفمن كان على بينة من ربه، وهو في الجنة التي وُعد المتقون فيها أنهار، كمن زُين له سوء عمله وهو خالد في النار، وعلى هذا تقع المقابلة بين من هو على بينة من ربه، وبين من زين له سوء عمله، وبين من في الجنة وبين من هو خالد في النار، وقد ذكرناه فلا حاجة إلى خلط الآية بالآية، وكيف وعلى ما قاله تقع المقابلة بين من هو في النار وسقوا ماءً حميمًا وبين من هو على بينة من ربه وأية مناسبة بينهما؟ بخلاف ما ذكرناه من الوجوه الأخر، فإن المقابلة بين الجنة التي فيها الأنهار وبين النار التي فيها الماء الحميم وذلك تشبيه إنكار مناسب.

المسألة الثالثة: قال: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ﴾ حملاً على اللفظ الواحد وقال: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ على المعنى وهو جمع، وكذلك قال من قبل: ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾[محمد: ١٤] على التوحيد والإفراد ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم﴾ على الجمع فما الوجه فيه؟ نقول: المسند إلى (مَن) إذا كان متصلاً فرعاية اللفظ أَوْلى لأنه هو المسموع، وإذا كان مع انفصال فالعود إلى المعنى أولى؛ لأن اللفظ لا يبقى في السمع، والمعنى يبقى في ذهن السامع، فالحمل في الثاني على المعنى أَوْلى وحمل الأول على اللفظ أولى، فإن قيل: كيف قال في سائر المواضع: ﴿مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾[سبأ: ٣٧] و﴿فَمَن تَابَ﴾ . . . ﴿وَأَصْلَحَ﴾[المائدة: ٣٩]؟ نقول: إذا كان المعطوف مفردًا أو شبيهًا بالمعطوف عليه في المعنى فالأَوْلى أن يختلفا كما ذكرت فإنه عطف مفرد على مفرد، وكذلك لو قال: كمن هو خالد في النار ومعذب فيها؛ لأن المشابهة تنافي المخالفة، وأما إذا لم يكن كذلك كما في هذا الموضع، فإن قوله: ﴿وَسُقُوا مَاءً﴾ جملة غير مشابهة لقوله: ﴿هُوَ خَالِدٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ بيان لمخالفتهم في سائر أحوال أهل الجنة فلهم أنهار من ماء غير آسن، ولهم ماء حميم، فإن قيل: المشابهة الإنكارية بالمخالفة على ما ثبت، وقد ذكرت البعض وقلت بأن قوله: ﴿عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ في مقابلة ﴿زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ و﴿مِن رَّبِّهِ﴾ في مقابلة قوله: ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم﴾ والجنة في مقابلة النار في قوله: ﴿خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ والماء الحميم في مقابلة الأنهار، فأين ما يقابل قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ﴾ فنقول: تقطع الأمعاء في مقابلة

مغفرة لأنا بينا على أحد الوجوه أن المغفرة التي في الجنة هي تعرية أكل الثمرات عما يلزمه من قضاء الحاجة والأمراض وغيرها، كأنه قال: للمؤمن أكل وشرب مطهر طاهر، لا يجتمع في جوفهم فيؤذيهم ويحوجهم إلى قضاء حاجة، وللكافر ماء حميم في أول ما يصل إلى جوفهم يقطع أمعاءهم ويشتهون خروجه من جوفهم، وأما الثمار فلم يذكر مقابلها؛ لأن في الجنة زيادة مذكورة فحققها بذكر أمر زايد.

المسألة الرابعة: الماء الحار يقطع أمعاءهم لأمر آخر غير الحرارة، وهي الحدة التي تكون في السموم المدوفة، وإلا فمجرد الحرارة لا يقطع، فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَقَطَّعَ﴾ بالفاء يقتضي أن يكون القطع بما ذكر، نقول: نعم، لكنه لا يقتضي أن يقال: يقطع؛ لأنه ماء حميم فحسب، بل ماء حميم مخصوص يقطع.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾

لما بيّن الله تعالى حال الكافر ذكر حال المنافق بأنه من الكفار، وقوله: ﴿وَمِنْهُم﴾ يحتمل أن يكون الضمير عائدًا إلى الناس، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٨]بعد ذكر الكفار، ويحتمل أن يكون راجعًا إلى أهل مكة؛ لأن ذكرهم سبق في قوله تعالى: ﴿هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَـٰهُمْ﴾ [محمد: ١٣]ويحتمل أن يكون راجعًا إلى معنى قوله: ﴿كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾ [محمد: ١٥]يعني ومن الخالدين في النار قوم يستمعون إليك، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ﴾ على ما ذكرنا حمل على المعنى الذي هو الجمع، و(يستمع) حمل على اللفظ، وقد سبق التحقيق فيه، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ﴾ للعطف في قول المفسرين، وعلى هذا فالعطف بحتى لا يحسن إلا إذا كان المعطوف جزءًا من المعطوف عليه إما أعلاه أو دونه، كقول القائل: أكرمني الناس حتى الملك، وجاء الحاج حتى المشاة. وفي الجملة ينبغي أن يكون المعطوف عليه من حيث المعنى، ولا يشترط في العطف بالواو ذلك، فيجوز أن تقول في الواو: جاء الحاج وما علمت، ولا يجوز مثل ذلك في حتى، إذا علمت هذا فوجه التعلق هاهنا هو أن قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ﴾ يفيد معنى زائدًا في الاستماع كأنه يقول: يستمعون استماعًا بالغًا جيدًا؛ لأنهم يستمعون، وإذا خرجوا يستعيدون من العلماء كما يفعله المجتهد في التعلم الطالب للتفهم، فإن قلت: فعلى هذا يكون هذا صفة مدح لهم، وهو ذكرهم في معرض الذم، نقول: يتميز بما بعده، وهو أحد أمرين: إما كونهم بذلك مستهزئين، كالذكي يقول للبليد: أعد كلامك حتى أفهمه، ويرى في نفسه أنه مستمع إليه غاية الاستماع، وكل أحد يعلم أنه مستهزئ غير مستفيد ولا مستعيد، وإما كونهم لا يفهمون مع أنهم يستمعون

ويستعيدون، ويناسب هذا الثاني قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١]، والأول يؤكده قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]. والثاني: يؤكده قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤] وقوله: ﴿ءَانِفًا﴾ قال بعض المفسرين: معناه الساعة، ومنه الاستئناف وهو الابتداء، فعلى هذا فالأَوْلى أن يقال: يقولون: ماذا قال آنفًا، بمعنى أنهم يستعيدون كلامه من الابتداء، كما يقول المستعيد للمعيد: أعد كلامك من الابتداء حتى لا يفوتني شيء منه.

ثم قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

أي تركوا اتباع الحق إما بسبب عدم الفهم، أو بسبب عدم الاستماع للاستفادة، واتبعوا ضده.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ۝١٧﴾.

لما بيّن الله تعالى أن المنافق يستمع ولا ينتفع، ويستعيد ولا يستفيد، بَيَّن أن حال المؤمن المهتدي بخلافه، فإنه يستمع فيفهم، ويعمل بما يعلم، والمنافق يستعيد، والمهتدي يفسر ويعيد، وفيه فائدتان: إحداهما: ما ذكرنا من بيان التباين بين الفريقين. وثانيهما: قطع عذر المنافق وإيضاح كونه مذموم الطريقة، فإنه لو قال: ما فهمته لغموضه وكونه معمى، يرد عليه ويقول: ليس كذلك، فإن المهتدي فهم واستنبط لوازمه وتوابعه، فذلك لعماء القلوب لا لخفاء المطلوب.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ما الفاعل للزيادة في قوله: ﴿زَادَهُمْ﴾؟ نقول: فيه وجوه: الأول: المسموع من النبي عليه الصلاة والسلام من كلام الله وكلام الرسول، يدل عليه قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ [محمد: ١٦] فإنه يدل على مسموع، والمقصود بيان التباين بين الفريقين، فكأنه قال: هم لم يفهموه، وهؤلاء فهموه. والثاني: أن الله تعالى زادهم، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [محمد: ١٦] وكأنه تعالى طبع على قلوبهم فزادهم عمى، والمهتدين زاده هدًى. والثالث: استهزاء المنافق زاد المهتدي هدى، ووجهه أنه تعالى لما قال: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ﴾ اتباعهم الهدى هدى، فإنهم استقبحوا فعلهم فاجتنبوه.

المسألة الثانية: ما معنى قوله: ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾؟ نقول: فيه وجوه منقولة ومستنبطة:

أما المنقولة فنقول: قيل فيه: إن المراد آتاهم ثواب تقواهم، وقيل: آتاهم نفس تقواهم من غير إضمار، يعني بيّن لهم التقوى، وقيل: آتاهم توفيق العمل بما علموا.

وأما المستنبط فنقول: يحتمل أن يكون المراد به بيان حال المستمعين للقرآن الفاهمين لمعانيه المفسرين له بيانًا لغاية الخلاف بين المنافق، فإنه استمع ولم يفهمه، ستعاد ولم يعلمه، والمهتدي فإنه علمه وبيّنه لغيره، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ ولم يقل اهتداء، والهدى مصدر من هدى، قال الله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] أي خذ بما هدوا واهتدِ

كما هدوا، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ معناه جَنَّبهم عن القول في القرآن بغير برهان، وحَمَلهم على الاتقاء من التفسير بالرأي، وعلى هذا فقوله: ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ معناه كانوا مهتدين فزادهم على الاهتداء هدى، حتى ارتقوا من درجة المهتدين إلى درجة الهادين.

ويحتمل أن يقال: قوله: ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ إشارة إلى العلم ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ إشارة إلى الأخذ بالاحتياط فيما لم يعلموه، وهو مستنبط من قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨] وقوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧].

المعنى الثالث: يحتمل أن يكون المراد بيان أن المخلص على خطر فهو أخشى من غيره، وتحقيقه هو أنه لما قال: ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ أفاد أنهم ازداد علمهم، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] فقال آتاهم خشيتهم التي يفيدها العلم.

والمعنى الرابع: تقواهم من يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ [لقمان: ٣٣] ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ [محمد: ١٨] كأن ذكر الساعة عقيب التقوى يدل عليه.

المعنى الخامس: آتاهم تقواهم، التقوى التي تليق بالمؤمن، وهي التقوى التي لا يخاف معها لومة لائم.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩] وكذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١] وهذا الوجه مناسب لأن الآية لبيان تباين الفريقين، وهذا يحقق ذلك، من حيث إن المنافق كان يخشى الناس وهم الفريقان، المؤمنون والكافرون، فكان يتردد بينهما ويرضي الفريقين ويُسخط الله، فقال الله تعالى: المؤمن المهتدي بخلاف المنافق حيث علم ذاك ولم يعلم ذلك، واتقى الله لا غير واتقى ذلك غير الله.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ۝١٨ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ۝١٩﴾

يعني الكافرون والمنافقون لا ينظرون إلا الساعة، وذلك لأن البراهين قد صحت والأمور قد اتضحت وهم لم يؤمنوا فلا يتوقع منهم الإيمان إلا عند قيام الساعة، وهو من قبيل بدل الاشتمال على تقدير: لا ينظرون إلا الساعة إتيانها بغتة، وقرئ ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم﴾ على الشرط وجزاؤه لا ينفعهم ذكراهم، يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾، وقد ذكرنا أن القيامة سميت بالساعة لساعة الأمور الواقعة فيها من البعث والحشر والحساب.

وقوله: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: لبيان غاية عنادهم، وتحقيقه هو أن

الدلائل لما ظهرت ولم يؤمنوا لم يبق إلا إيمان اليأس وهو عند قيام الساعة، لكن أشراطها بانت فكان ينبغي أن يؤمنوا ولم يؤمنوا فهم في لجة الفساد وغاية العناد. ثانيهما: يكون لتسلية قلوب المؤمنين كأنه تعالى لما قال: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ فُهم منه تعذيبهم والساعة عند العوام مستبطأة فكأن قائلاً قال: متى الساعة؟ فقد جاء أشراطها، كقوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] والأشراط العلامات، قال المفسرون: هي مثل انشقاق القمر ورسالة محمد عليه السلام، ويحتمل أن يقال: معنى الأشراط: البينات الموضحة لجواز الحشر، مثل خلق الإنسان ابتداء وخلق السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١] والأول هو التفسير.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ يعني لا تنفعهم الذكرى إذ لا تُقبل التوبة ولا يُحسب الإيمان، والمراد فكيف لهم الحال إذا جاءتهم ذكراهم، ومعنى ذلك يحتمل أن يكون هو قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [الصافات: ٢١] فيذكرون به للتحسر، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الزمر: ٧١].

ثم قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ **ولبيان المناسبة وجوه:**

الأول: هو أنه تعالى لما قال: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٨] قال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ يأتي بالساعة، كما قال تعالى: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٧، ٥٨].

وثانيها: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ وهي آتية، فكأن قائلاً قال: متى هذا؟ فقال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ فلا تشتغل به واشتغل بما عليك من الاستغفار، وكن في أي وقت مستعدًّا للقائها، ويناسبه قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾.

الثالث: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ينفعك، فإن قيل: النبي عليه الصلاة والسلام كان عالمًا بذلك فما معنى الأمر؟! نقول عنه من وجهين: أحدهما: فاثبت على ما أنت عليه من العلم، كقول القائل لجالس يريد القيام: اجلس، أي لا تقم. ثانيهما: الخطاب مع النبي عليه الصلاة والسلام، والمراد قومه، والضمير في (أنه) للشأن، وتقدير هذا هو أنه عليه السلام لما دعا القوم إلى الإيمان ولم يؤمنوا ولم يبق شيء يحملهم على الإيمان إلا ظهور الأمر بالبعث والنشور، وكان ذلك مما يحزن النبي عليه الصلاة والسلام، فسلى قلبه وقال: أنت كامل في نفسك مكمل لغيرك فإن لم يكمل بك قوم لم يُرد الله تعالى بهم خيرًا، فأنت في نفسك عامل بعلمك وعلمك حيث تعلم أن الله واحد وتستغفر، وأنت بحمد الله مكمل وتكمل المؤمنين والمؤمنات وأنت تستغفر لهم، فقد حصل لك الوصفان، فاثبت على ما أنت عليه ولا يحزنك كفرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون الخطاب معه والمراد

المؤمنون، وهو بعيد لإفراد المؤمنين والمؤمنات بالذكر. وقال بعض الناس ﴿لِذَنۢبِكَ﴾ أي لذنب أهل بيتك وللمؤمنين والمؤمنات، أي الذين ليسوا منك بأهل بيت. وثانيهما: المراد هو النبي والذنب هو ترك الأفضل الذي هو بالنسبة إليه ذنب وحاشاه من ذلك. وثالثها: وجه حسن مستنبط وهو أن المراد توفيق العمل الحسن واجتناب العمل السيئ، ووجهه أن الاستغفار طلب الغفران، والغفران هو الستر على القبيح، ومن عُصم فقد سُتر عليه قبائح الهوى، ومعنى طلب الغفران أن لا تفضحنا وذلك قد يكون بالعصمة منه فلا يقع فيه كما كان للنبي ﷺ وقد يكون بالستر عليه بعد الوجود كما هو في حق المؤمنين والمؤمنات، وفي هذه الآية لطيفة وهي أن النبي ﷺ له أحوال ثلاثة حال مع الله وحال مع نفسه وحال مع غيره، فأما مع الله فوَحِّده، وأما مع نفسك فاستغفر لذنبك واطلب العصمة من الله، وأما مع المؤمنين فاستغفر لهم واطلب الغفران لهم من الله ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾ يعني حالكم في الدنيا وفي الآخرة، وحالكم في الليل والنهار.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٠ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ٢١ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢﴾

لما بيّن الله حال المنافق والكافر والمهتدي المؤمن عند استماع الآيات العلمية من التوحيد والحشر وغيرهما بقوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ﴾ [محمد: ١٦] وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ [محمد: ١٧] بيّن حالهم في الآيات العملية، فإن المؤمن كان ينتظر ورودها ويطلب تنزيلها وإذا تأخر عنه التكليف كان يقول: (هلا أُمرت بشيء من العبادة) خوفًا من أن لا يؤهل لها، والمنافق إذا نزلت السورة أو الآية وفيها تكليف، شق عليه، ليعلم تباين الفريقين في العلم والعمل، حيث لا يفهم المنافق العلم ولا يريد العمل، والمؤمن يعلم ويحب العمل. وقولهم: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞ﴾ المراد منه سورة فيها تكليف بممتحن المؤمن والمنافق. ثم إنه تعالى أنزل سورة فيها القتال فإنه أشق تكليف.

وقوله: ﴿سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ﴾ فيها وجوه: أحدها: سورة لم تنسخ. ثانيها: سورة فيها ألفاظ أُريدت حقائقها، بخلاف قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] وقوله: ﴿فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] فإن قوله تعالى: ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤] أراد القتل وهو أبلغ من قوله: ﴿فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ﴾ [البقرة: ١٩١] وقوله: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾ [النساء: ٩١] صريح وكذلك غير هذا من آيات القتال، وعلى الوجهين فقوله: ﴿مُّحۡكَمَةٞ﴾ فيها فائدة زائدة من حيث إنهم لا يمكنهم أن يقولوا المراد غير ما يظهر منه، أو يقولوا هذه آية قد نسخت فلا نقاتل. وقوله: ﴿رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ أي

المنافقين ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ لأن عند التكليف بالقتال لا يبقى لنفاقهم فائدة، فإنهم قبل القتال كانوا يترددون إلى القبيلتين، وعند الأمر بالقتال لم يبق لهم إمكان ذلك ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ دعاء، كقول القائل: فويلٌ لهم، ويحتمل أن يكون هو خبر لمبتدأ محذوف سبق ذكره وهو الموت، كأن الله تعالى لما قال: ﴿ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ قال: فالموت أولى لهم؛ لأن الحياة التي لا في طاعة الله ورسوله الموت خير منها، وقال الواحدي: يجوز أن يكون المعنى: فأَوْلى لهم طاعة، أي الطاعة أَوْلى لهم.

ثم قال تعالى: ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾.

كلام مستأنف محذوف الخبر تقديره: (خير لهم) أي أحسن وأمثل، لا يقال: (طاعة) نكرة لا تصلح للابتداء؛ لأنا نقول: هي موصوفة بدل عليه قوله: ﴿ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ فإنه موصوف فكأنه تعالى قال: ﴿ طَاعَةٌ﴾ مخلصة ﴿ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ خير، وقيل: معناه قالوا: ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي قولهم أمرنا ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ ويدل عليه قراءة أُبي (يقولون طاعة وقول معروف).

وقوله: ﴿ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

جوابه محذوف تقديره: فإذا عزم الأمر خالفوا وتخلفوا، وهو مناسب لمعنى قراءة أُبي، كأنه يقول: في أول الأمر قالوا سمعًا وطاعة، وعند آخر الأمر خالفوا وأخلفوا موعدهم، ونسب العزم إلى الأمر والعزم لصاحب الأمر معناه: فإذا عزم صاحب الأمر. هذا قول الزمخشري، ويحتمل أن يقال: هو مجاز كقولنا: (جاء الأمر وولّى) فإن الأمر في الأول يتوقع أن لا يقع وعند إظلاله وعجز الكاره عن إبطاله فهو واقع فقال: (عَزَم) والوجهان متقاربان، وقوله تعالى: ﴿ فَلَوْ صَدَقُواْ﴾ فيه وجهان على قولنا المراد من قوله طاعة أنهم قالوا طاعة فمعناه: لو صدقوا في ذلك القول وأطاعوا ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ وعلى قولنا ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ خير لهم وأحسن، فمعناه ﴿ فَلَوْ صَدَقُواْ﴾ في إيمانهم واتباعهم الرسول ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾.

وهذه الآية فيها إشارة إلى فساد قول قالوه، وهو أنهم كانوا يقولون: كيف نقاتل والقتل إفساد والعرب من ذوي أرحامنا وقبائلنا؟ فقال تعالى: ﴿ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ لا يقع منكم إلا الفساد في الأرض فإنكم تقتلون من تقدرون عليه وتنهبونه والقتال واقع بينكم، أليس قتلكم البنات إفسادًا وقطعًا للرحم؟ فلا يصح تعللكم بذلك مع أنه خلاف ما أمر الله وهذا طاعة. **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: في استعمال (عسى) ثلاثة مذاهب: أحدها: الإتيان بها على صورة فعل ماضٍ معه فاعل، تقول: عسى زيد وعسينا وعسوا وعسيت وعسيتما وعسيتم وعست وعستا. والثاني: أن يؤتى بها على صورة فعل معه مفعول، تقول: عساه وعساهما وعساك وعساكما وعساي وعسانا. والثالث: الإتيان بها من غير أن يُقرن بها شيء تقول: عسى زيد يخرج وعسى أنت تخرج وعسى أنا أخرج. والكل له وجه وما عليه كلام الله أوجه، وذلك لأن عسى من

الأفعال الجامدة واقتران الفاعل بالفعل أَوْلى من اقتران المفعول لأن الفاعل كالجزء من الفعل ولهذا لم يجز فيه أربع متحركات في مثل قول القائل: نَصَرْت، وجُوز في مثل قولهم: نَصَرك ولأن كل فعل له فاعل سواء كان لازمًا أو متعديًا ولا كذلك المفعول به، فعسيت وعساك كعصيت وعصاك في اقتران الفاعل بالفعل والمفعول به، وأما قول من قال: عسى أنت تقوم وعسى أن أقوم، فدون ما ذكرنا للتطويل الذي فيه.

المسألة الثانية: الاستفهام للتقرير المؤكد، فإنه لو قال على سبيل الإخبار: ﴿عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ لكان للمخاطب أن ينكره فإذا قال بصيغة الاستفهام كأنه يقول: أنا أسألك عن هذا وأنت لا تقدر أن تجيب إلا بلا أو نعم، فهو مقرر عندك وعندي.

المسألة الثالثة: عسى للتوقع والله تعالى عالم بكل شيء فنقول فيه ما قلنا في (لعل)، وفي قوله: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾[الكهف: ٧] إن بعض الناس قال: يفعل بكم فعل المترجي والمبتلي والمتوقع. وقال آخرون: كل من ينظر إليهم يتوقع منهم ذلك ونحن قلنا: محمول على الحقيقة وذلك لأن الفعل إذا كان ممكنًا في نفسه فالنظر إليه غير مستلزم لأمر، وإنما الأمر يجوز أن يحصل منه تارة ولا يحصل منه أخرى، فيكون الفعل لذلك الأمر المطلوب على سبيل الترجي، سواء كان الفاعل يعلم حصول الأمر منه وسواء إن لم يكن يعلم، مثاله مَن نَصَب شبكة لاصطياد الصيد يقال: هو متوقع لذلك فإن حصل له العلم بوقوعه فيه بإخبار صادق أنه سيقع فيه أو بطريق أخرى، لا يخرج عن التوقع، غاية ما في الباب أن في الشاهد لم يحصل لنا العلم فيما نتوقعه فيظن أن عدم العلم لازم للمتوقع، وليس كذلك، بل المتوقع هو المنتظر لأمر ليس بواجب الوقوع نظرًا لذلك الأمر فحسب، سواء كان له به علم أو لم يكن. وقوله: ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنه من الولاية يعني إن أخذتم الولاية وصار الناس بأمركم، أفسدتم وقطعتم الأرحام. وثانيهما: هو من التولي الذي هو الإعراض وهذا مناسب لما ذكرنا، أي كنتم تتركون القتال وتقولون: فيه الإفساد وقطع الأرحام لكون الكفار أقاربنا. فلا يقع منكم إلا ذلك حيث تقاتلون على أدنى شيء كما كان عادة العرب الأُول، يؤكده قراءة علي عليه السلام (تُوُلِّيتم)، أي إن تولاكم ولاة ظلمة جفاة غشمة ومشيتم تحت لوائهم وأفسدتم بإفسادهم معهم وقطعتم أرحامكم، والنبي عليه السلام لا يأمركم إلا بالإصلاح وصلة الأرحام، فلمَ تتقاعدون عن القتال وتتباعدون في الضلال؟!

ثم قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾

إشارة لمن سبق ذكرهم من المنافقين أبعدهم الله عنه أو عن الخير، فأصمهم فلا يسمعون الكلام المستبين، وأعماهم فلا يتبعون الصراط المستقيم، وفيه ترتيب حسن، وذلك من حيث إنهم استمعوا الكلام العلمي ولم يفهموه فَهْم بالنسبة إليه صُم أصمهم الله، وعند الأمر بالعمل

تركوه وعللوا بكونه إفسادًا وقطعًا للرحم وهم كانوا يتعاطونه عند النهي عنه، فلم يروا حالهم عليه وتركوا اتباع النبي الذي يأمرهم بالإصلاح وصلة الأرحام، ولو دعاهم من يأمر بالإفساد وقطيعة الرحم لاتبعوه فَهُم عُمْي أعماهم الله، وفيه لطيفة: وهي أن الله تعالى قال: (أصمهم) ولم يقل أصم آذانهم، وقال: ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ﴾ ولم يقل أعماهم، وذلك لأن العين آلة الرؤية ولو أصابها آفة لا يحصل الإبصار، والأُذن لو أصابها آفة من قطع أو قلع تسمع الكلام؛ لأن الأذن خُلقت وخُلق فيها تعاريج ليكثر فيها الهواء المتموج ولا يقرع الصماخ بعنف فيؤذي كما يؤذي الصوت القوي فقال: ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ من غير ذكر الأذن، وقال: ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ﴾ مع ذكر العين لأن البصر ههنا بمعنى العين، ولهذا جمعه بالأبصار، ولو كان مصدرًا لما جُمع فلم يذكر الأذن إذ لا مدخل لها في الإصمام، والعين لها مدخل في الرؤية بل هي الكل، ويدل عليه أن الآفة في غير هذه المواضع لما أضافها إلى الأذن سماها وقرًا، كما قال تعالى: ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥]وقال: ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ [لقمان: ٧]والوقر دون الصم، وكذلك الطرش.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾

ولنذكر تفسيرها في مسائل:

المسألة الأولى: لما قال الله تعالى: ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٣]كيف يمكنهم التدبر في القرآن؟ قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ وهو كقول القائل للأعمى: أبصِر وللأصم اسمع؟ فنقول: الجواب عنه من ثلاثة أوجه مترتبة بعضها أحسن من البعض: الأول: تكليف ما لا يطاق جائز، والله أمر من علم أنه لا يؤمن بأن يؤمن، فكذلك جاز أن يعميهم ويذمهم على ترك التدبر. الثاني: أن قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ المراد منه الناس. الثالث: أن نقول: هذه الآية وردت محققة لمعنى الآية المتقدمة، فإنه تعالى قال: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [محمد: ٢٣]أي أبعدهم عنه أو عن الصدق أو عن الخير أو غير ذلك من الأمور الحسنة ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ لا يسمعون حقيقة الكلام وأعماهم لا يتبعون طريق الإسلام، فإذن هم بين أمرين، إما لا يتدبرون القرآن فيبعدون منه؛ لأن الله تعالى لعنهم وأبعدهم عن الخير والصدق، والقرآن منهما الصنف الأعلى بل النوع الأشرف، وإما يتدبرون لكن لا تدخل معانيه في قلوبهم لكونها مقفلة، تقديره: أفلا يتدبرون القرآن لكونهم ملعونين مبعودين، أم على قلوب أقفال فيتدبرون ولا يفهمون، وعلى هذا لا نحتاج أن نقول: (أم) بمعنى (بل)، بل هي على حقيقتها للاستفهام واقعة في وسط الكلام والهمزة أخذت مكانها وهو الصدر، وأم دخلت على القلوب التي في وسط الكلام.

المسألة الثانية: قوله ﴿عَلَىٰ قُلُوبٍ﴾ على التنكير ما الفائدة فيه؟ نقول: قال الزمخشري: يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون للتنبيه على كونه موصوفًا لأن النكرة بالوصف أَوْلى من المعرفة، فكأنه قال: أم على قلوب قاسية أو مظلمة. الثاني: أن يكون للتبعيض كأنه قال: أم على بعض

القلوب لأن النكرة لا تعم، تقول: جاءني رجال. فيفهم البعض وجاءني الرجال فيفهم الكل. ونحن نقول: التنكير للقلوب للتنبيه على الإنكار الذي في القلوب، وذلك لأن القلب إذا كان عارفًا كان معروفًا لأن القلب خُلق للمعرفة، فإذا لم تكن فيه المعرفة فكأنه لا يعرف، وهذا كما يقول القائل في الإنسان المؤذي: هذا ليس بإنسان، هذا سبع؛ ولذلك يقال هذا ليس بقلب هذا حجر. إذا علم هذا فالتعريف إما بالألف واللام وإما بالإضافة، واللام لتعريف الجنس أو للعهد، ولم يمكن إرادة الجنس إذ ليس على كل قلب قفل، ولا تعريف العهد لأن ذلك القلب ليس ينبغي أن يقال له قلب، وأما بالإضافة بأن نقول على قلوب أقفالها وهي لعدم عود فائدة إليهم، كأنها ليست لهم. فإن قيل: فقد قال: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] وقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ [الزمر: ٢٢] فنقول: الأقفال أبلغ من الختم فترك الإضافة لعدم انتفاعهم رأسًا.

المسألة الثالثة: في قوله: ﴿أَقْفَالُهَآ﴾ بالإضافة ولم يقل أقفال، كما قال: ﴿قُلُوبٍ﴾ لأن الأقفال كانت من شأنها فأضافها إليها كأنها ليست إلا لها، وفي الجملة لم يضف القلوب إليهم لعدم نفعها إياهم، وأضاف الأقفال إليها لكونها مناسبة لها، ونقول: أراد به أقفالاً مخصوصة هي أقفال الكفر والعناد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾

إشارة إلى أهل الكتاب الذين تبين لهم الحق في التوراة بنعت محمد ﷺ وبعثه وارتدُّوا، أو إلى كل من ظهرت له الدلائل وسمعها ولم يؤمن، وهم جماعة منعهم حب الرياسة عن اتباع محمد عليه السلام وكانوا يعلمون أنه الحق ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ سَهَّل لهم ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ يعني قالوا: نعيش أيامًا ثم نؤمن به، وقرئ ﴿وَأُمْلِىَ لَهُمْ﴾ فإن قيل: الإملاء والإمهال وحَدُّ الآجال لا يكون إلا من الله، فكيف يصح قراءة من قرأ (وأملى لهم) فإن المملي حينئذٍ يكون هو الشيطان؟ نقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: جاز أن يكون المراد ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ الله، فيقف على ﴿سَوَّلَ لَهُمْ﴾ وثانيهما: هو أن المسول أيضًا ليس هو الشيطان، وإنما أسند إليه من حيث إن الله قدر على يده ولسانه ذلك، فذلك الشيطان يمليهم ويقول لهم: في آجالكم فسحة فتمتعوا بریاستكم ثم في آخر الأمر تؤمنون، وقرئ: (وأمليَ لهم) بفتح الياء وضم الهمزة على البناء للمفعول.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾

قال بعض المفسرين: ذلك إشارة إلى الإملاء، أي ذلك الإملاء بسبب أنهم قالوا للذين كرهوا. وهو اختيار الواحدي، وقال بعضهم: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى التسويل، ويحتمل أن يقال

ذلك الارتداد بسبب أنهم قالوا: ﴿سَنُطِيعُكُمْ﴾ وذلك لأنا نبين أن قوله: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ هو أنهم قالوا: نوافقكم على أن محمدًا ليس بمرسل وإنما هو كاذب، ولكن لا نوافقكم في إنكار الرسالة والحشر والإشراك بالله من الأصنام، ومن لم يؤمن بمحمد ﷺ فهو كافر، وإن آمن بغيره. لا بل من لم يؤمن بمحمد ﷺ، لا يؤمن بالله ولا برسله ولا بالحشر؛ لأن الله كما أخبر عن الحشر وهو جائز، أخبر عن نبوّة محمد عليه الصلاة والسلام، وهي جائزة فإذا لم يصدق الله في شيء لا ينفي الكذب بقول الله في غيره، فلا يكون مصدقًا موقنًا بالحشر، ولا برسالة أحد من الأنبياء؛ لأن طريق معرفتهم واحد، والمراد من الذين كرهوا ما نزل الله هم المشركون والمنافقون، وقيل: المراد اليهود، فإن أهل مكة قالوا لهم: نوافقكم في إخراج محمد وقتله وقتال أصحابه. والأول أصح؛ لأن قوله: ﴿كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ لو كان مسندًا إلى أهل الكتاب لكان مخصوصًا ببعض ما أنزل الله، وإن قلنا بأنه مسند إلى المشركين يكون عامًّا؛ لأنهم كرهوا ما نزل الله وكذبوا الرسل بأسرهم، وأنكروا الرسالة رأسًا، وقوله: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ يعني فيما يتعلق بمحمد من الإيمان به فلا نؤمن، والتكذيب به فنكذبه كما تكذبونه والقتال معه، وأما الإشراك بالله، واتخاذ الأنداد له من الأصنام، وإنكار الحشر والنبوة، فلا، وقوله: (والله يعلم أسرارهم) قال أكثرهم: المراد منه هو أنهم قالوا ذلك سرًّا، فأفشاه الله وأظهره لنبيه عليه الصلاة والسلام، والأظهر أن يقال: (والله يعلم أسرارهم) وهو ما في قلوبهم من العلم بصدق محمد عليه الصلاة والسلام، فإنهم كانوا مكابرين معاندين، وكانوا يعرفون رسول الله ﷺ كما يعرفون أبناءهم، وقرئ ﴿إِسْرَارَهُمْ﴾ بكسر الهمزة على المصدر، وما ذكرنا من المعنى ظاهر على هذه القراءة، فإنهم كانوا يسرون نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، وعلى قولنا المراد من الذين ارتدوا المنافقون، فكانوا يقولون للمجاهدين من الكفار: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ وكانوا يسرون أنهم إن غلبوا انقلبوا، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩]

ثم قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾

اعلم أنه لما قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٦] قال: فهب أنهم يُسرون والله لا يُظهره اليوم فكيف يبقى مخفيًّا وقت وفاتهم، أو نقول: كأنه تعالى قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٦] وهب أنهم يختارون القتال لما فيه الضراب والطعان، مع أنه مفيد على الوجهين جميعًا، إن غلبوا فالمال في الحال والثواب في المآل، وإن غُلبوا فالشهادة والسعادة، فكيف حالهم إذا ضرب وجوههم وأدبارهم، وعلى هذا فيه لطيفة، وهي أن القتال في الحال إن أقدم على المبارزة فربما يهزم الخصم ويسلم وجهه وقفاه، وإن لم يهزمه فالضرب على وجهه إن صبر وثبت وإن لم يثبت وانهزم، فإن فات القرن فقد سلم وجهه وقفاه، وإن لم يفته فالضرب على

قفاه لا غير، ويوم الوفاة لا نصرة له ولا مفر، فوجهه وظهره مضروب مطعون، فكيف يحترز عن الأذى ويختار العذاب الأكبر؟!

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٢٨﴾ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ﴿٢٩﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ فيه لطيفة، وهي أن الله تعالى ذكر أمرين: ضَرْب الوجه، وضَرْب الأدبار، وذكر بعدهما أمرين آخرين: اتباع ما أسخط الله وكراهة رضوانه، فكأنه تعالى قابل الأمرين فقال: يضربون وجوههم حيث أقبلوا على سخط الله، فإن المتسع للشيء متوجه إليه، ويضربون أدبارهم لأنهم تولوا عما فيه رضا الله، فإن الكاره للشيء يتولى عنه. **وما أسخط الله يحتمل وجوهًا:**

الأول: إنكار الرسول عليه الصلاة والسلام، ورضوانه الإقرار به والإسلام.

الثاني: الكفر هو ما أسخط الله والإيمان يرضيه، يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾[الزمر: ٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ إلى أن قال: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾[البينة: ٧، ٨].

الثالث: ما أسخط الله تسويل الشيطان، ورضوان الله التعويل على البرهان والقرآن، فإن قيل: هم ما كانوا يكرهون رضوان الله، بل كانوا يقولون: إن ما نحن عليه فيه رضوان الله، ولا نطلب إلا رضاء الله، وكيف لا والمشركون بإشراكهم كانوا يقولون: إنا نطلب رضاء الله. كما قالوا: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾[الزمر: ٣] وقالوا: ﴿فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ﴾[الأعراف: ٥٣] فنقول: معناه كرهوا ما فيه رضاء الله تعالى.

وفيه لطيفة وهي أن الله تعالى قال: ﴿مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ﴾ ولم يقل: (ما أرضى الله) وذلك لأن رحمة الله سابقة، فله رحمة ثابتة وهي منشأ الرضوان، وغضب الله متأخر فهو يكون على ذنب، فقال: ﴿رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ لأنه وصف ثابت لله سابق، ولم يقل سخط الله، بل ﴿مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ﴾ إشارة إلى أن السخط ليس ثبوته كثبوت الرضوان، ولهذا المعنى قال في اللعان في حق المرأة: ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[النور: ٩] يقال: غضب الله مضافًا لأن لعانه قد سبق مظهر الزنا بقوله وأيمانه، وقبله لم يكن لله غضب، ورضوان الله أمر يكون منه الفعل، وغضب الله أمر يكون من فعله، ولنضرب له مثالاً: الكريم الذي رسخ الكرم في نفسه يحمله الكرم على الأفعال الحسنة، فإذا كثر من السيئ الإساءة فغضبه لا لأمر يعود إليه، بل غضبه عليه يكون لإصلاح حاله، وزجرًا لأمثاله عن مثل فعاله، فيقال: هو كان الكريم فكرمه لما فيه من الغريزة الحسنة، لكن فلانًا أغضبه وظهر منه الغضب، فيجعل الغضب ظاهرًا من الفعل،

والفعل الحسن ظاهرًا من الكرم، فالغضب في الكريم بعد فعل، والفعل منه بعد كرم، ومن هذا يعرف لطف قوله: ﴿مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ حيث لم يطلبوا إرضاء الله، وإنما طلبوا إرضاء الشيطان والأصنام.

قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ﴾.

هذا إشارة إلى المنافقين و﴿أَمۡ﴾ تستدعي جملة أخرى استفهامية إذا كانت للاستفهام؛ لأن كلمة ﴿أَمۡ﴾ إذا كانت متصلة استفهامية تستدعي سبق جملة أخرى استفهامية، يقال: أزيد في الدار أم عمرو؟ وإذا كانت منقطعة لا تستدعي ذلك، يقال: إن هذا لزيد أم عمرو، وكما يقال: بل عمرو، والمفسرون على أنها منقطعة، ويحتمل أن يقال: إنها استفهامية، والسابق مفهوم من قوله تعالى: (والله يعلم أسرارهم) فكأنه تعالى قال: أحسب الذين كفروا أن لن يعلم الله أسرارهم أم حسب المنافقون أن لن يظهرها؟ والكل قاصر، وإنما يعلمها ويُظهرها، ويؤيد هذا أن المتقطعة لا تكاد تقع في صدر الكلام فلا يقال ابتداء، بل جاء زيد، ولا أم جاء عمرو. والإخراج بمعنى الإظهار فإنه إبراز، والأضغان هي الحقود والأمراض، واحدها ضغن.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾.

لما كان مفهوم قوله: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ﴾ [محمد: ٢٩] أن الله يُظهر ضمائرهم ويبرز سرائرهم، كأن قائلاً قال: فلمَ لم يظهر؟ فقال: أخرناه لمحض المشيئة لا لخوف منهم، كما لا تفشى أسرار الأكابر خوفًا منهم ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ﴾ أي لا مانع لنا والإراءة بمعنى التعريف، وقوله: ﴿فَلَعَرَفۡتَهُم﴾ لزيادة فائدة، وهي أن التعريف قد يطلق ولا يلزمه المعرفة، يقال: عرفته ولم يعرف وفهمته ولم يفهم فقال هاهنا: ﴿فَلَعَرَفۡتَهُم﴾ يعني عرفناهم تعريفًا تعرفهم به، إشارة إلى قوة التعريف، واللام في قوله ﴿فَلَعَرَفۡتَهُم﴾ هي التي تقع في جزاء (لو) كما في قوله: ﴿لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ﴾ أدخلت على المعرفة إشارة إلى أن المعرفة كالمرتبة على المشيئة، كأنه قال: ولو نشاء لعرفتهم. ليفهم أن المعرفة غير متأخرة عن التعريف فتفيد تأكيد التعريف، أي لو نشاء لعرفناك تعريفًا معه المعرفة لا بعده، وأما اللام في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ﴾ فجواب لقسم محذوف كأنه قال: ولتعرفنهم والله، وقوله: ﴿فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ فيه وجوه: أحدها: في معنى القول وعلى هذا فيحتمل أن يكون المراد من القول قولهم، أي لتعرفنهم في معنى قولهم حيث يقولون ما معناه النفاق، كقولهم حين مجيء النصر إنا كنا معكم، وقولهم: ﴿لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ﴾ [المنافقون: ٨] وقولهم: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ﴾ [الأحزاب: ١٣] وغير ذلك، ويحتمل أن يكون المراد قول الله عزّ وجل، أي لتعرفنهم في معنى قول الله تعالى حيث قال ما تعلم منه حال المنافقين كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ﴾ [النور: ٦٢] وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الأنفال: ٢] إلى غير ذلك. وثانيها: في ميل القول عن الصواب حيث قالوا ما لم يعتقدوا،

فأمالوا كلامهم حيث قالوا: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] وقالوا: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ [الأحزاب: ١٣]، ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ [الأحزاب: ١٥] إلى غير ذلك. وثالثها: في لحن القول، أي في الوجه الخفي من القول الذي يفهمه النبي عليه السلام ولا يفهمه غيره، وهذا يحتمل أمرين أيضًا والنبي عليه السلام كان يعرف المنافق ولم يكن يُظهر أمره إلى أن أذن الله تعالى له في إظهار أمرهم ومنع من الصلاة على جنائزهم والقيام على قبورهم، وأما قوله: ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾ فالظاهر أن المراد أن الله تعالى لو شاء لجعل على وجوههم علامة أو يمسخهم كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ﴾ [يس: ٦٧] وروي أن جماعة منهم أصبحوا وعلى جباههم مكتوب هذا منافق، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ وعد للمؤمنين، وبيان لكون حالهم على خلاف حال المنافق، فإن المنافق كان له قول بلا عمل، والمؤمن كان له عمل ولا يقول به، وإنما قوله التسبيح، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقوله: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ [آل عمران: ١٩٣] وكانوا يعملون الصالحات ويتكلمون في السيئات مستغفرين مشفقين، والمنافق كان يتكلم في الصالحات كقوله: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤] ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ [الحجرات: ١٤]، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا﴾ [البقرة: ٨] ويعمل السيئ فقال تعالى: الله يسمع أقوالهم الفارغة ويعلم أعمالكم الصالحة فلا يضيع.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ۝٣١﴾

أي لنأمرنكم بما لا يكون متعينًا للوقوع، بل بما يحتمل الوقوع ويحتمل عدم الوقوع كما يفعل المختبر، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ أي نعلم المجاهدين من غير المجاهدين ويدخل في علم الشهادة فإنه تعالى قد علمه علم الغيب، وقد ذكرنا ما هو التحقيق في الابتلاء، وفي قوله: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ وقوله: ﴿ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ أي المقدمين على الجهاد ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي الثابتين الذين لا يولون الأدبار وقوله: ﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ يحتمل وجوهًا: أحدها: قوله: ﴿ءَامَنَّا﴾ [البقرة: ٨] لأن المنافق وُجد منه هذا الخبر والمؤمن وُجد منه ذلك أيضًا، وبالجهاد يعلم الصادق من الكاذب، كما قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥] وثانيها: إخبارهم من عدم التولية في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ [الأحزاب: ١٥] إلى غير ذلك، فالمؤمن وفى بعهده وقاتل مع أصحابه في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص، والمنافق كان كالهباء ينزعج بأدنى صيحة. وثالثها: المؤمن كان له أخبار صادقة مسموعة من النبي عليه السلام، كقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ [الفتح: ٢٧]، ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١]، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣] وللمنافق أخبار أراجيف كما قال تعالى في حقهم: ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٠] فعند تحقق الإيجاف يتبين الصدق من الإرجاف.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٣٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٣﴾

فيه وجهان: أحدهما: هم أهل الكتاب قريظة والنضير. والثاني: كفار قريش. يدل على الأول قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ قيل: أهل الكتاب تبين لهم صدق محمد عليه السلام، وقوله: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ تهديد معناه هم يظنون أن ذلك الشقاق مع الرسول وهم به يشاقونه وليس كذلك، بل الشقاق مع الله فإن محمدًا رسول الله ما عليه إلا البلاغ، فإن ضروا يضروا الرسل لكن الله منزه عن أن يتضرر بكفر كافر وفسق فاسق، وقوله: ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ قد علم معناه. فإن قيل: قد تقدم في أول السورة أن الله تعالى أحبط أعمالهم فكيف يحبط في المستقبل؟ فنقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: أن المراد من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [محمد: ١] في أول السورة - المشركون، ومن أول الأمر كانوا مبطلين، وأعمالهم كانت على غير شريعة، والمراد من الذين كفروا هاهنا أهل الكتاب، وكانت لهم أعمال قبل الرسول فأحبطها الله تعالى بسبب تكذيبهم الرسول، ولا ينفعهم إيمانهم بالحشر والرسل والتوحيد، والكافر المشرك أحبط عمله حيث لم يكن على شرع أصلاً ولا كان معترفًا بالحشر. الثاني: هو أن المراد بالأعمال هاهنا مكايدهم في القتال وذلك قد تحقق منهم والله سيبطله حيث يكون النصر للمؤمنين، والمراد بالأعمال في أول السورة هو ما ظنوه حسنة.

ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٣﴾.

العطف هاهنا من باب عطف المسبب على السبب، يقال: اجلس واسترح وقم وامش لأن طاعة الله تُحمل على طاعة الرسول، وهذا إشارة إلى العمل بعد حصول العلم، كأنه تعالى قال: يا أيها الذين آمنوا علمتم الحق فافعلوا الخير.

وقوله: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ يحتمل وجوهًا:

أحدها: دوموا على ما أنتم عليه ولا تشركوا فتبطل أعمالكم. قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

الوجه الثاني: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ بترك طاعة الرسول كما أبطل الكتاب أعمالهم بتكذيب الرسول وعصيانه، ويؤيده قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ﴾ إلى أن قال: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

الثالث: ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤] كما قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم﴾ [الحجرات: ١٧] وذلك أن من يمن بالطاعة على الرسول كأنه يقول: هذا فعلته لأجل قلبك، ولولا رضاك به لما فعلت، وهو منافٍ للإخلاص، والله لا يقبل إلا العمل الخالص.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾

بيّن أن الله لا يغفر الشرك، وما دون ذلك يغفره إن شاء حتى لا يظن ظان أن أعمالهم وإن بطلت لكن فضل الله باقٍ يغفر لهم بفضله، وإن لم يغفر لهم بعملهم.

ثم قال تعالى: ﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾.

لما بيّن أن عمل الكافر الذي له صورة الحسنات محبط، وذنبه الذي هو أقبح السيئات غير مغفور، بَيَّن أن لا حرمة في الدنيا ولا في الآخرة، وقد أمر الله تعالى بطاعة الرسول بقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ وأمر بالقتال بقوله: ﴿ فَلَا تَهِنُواْ﴾ أي لا تضعفوا بعد ما وجد السبب في الجد في الأمر والاجتهاد في الجهاد فقال: ﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ وفي الآيات ترتيب في غاية الحسن، وذلك لأن قوله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ يقتضي السعي في القتال لأن أمر الله وأمر الرسول ورد بالجهاد وقد أُمروا بالطاعة، فذلك يقتضي أن لا يضعف المكلف ولا يكسل ولا يهن ولا يتهاون، ثم إن بعد المقتضي قد يتحقق مانع ولا يتحقق المسبب، والمانع من القتال إما أخروي وإما دنيوي، فذكر الأخروي وهو أن الكافر لا حرمة له في الدنيا والآخرة، لأنه لا عمل له في الدنيا ولا مغفرة له في الآخرة، فإذا وُجد السبب ولم يوجد المانع ينبغي أن يتحقق المسبب، ولم يقدم المانع الدنيوي على قوله: ﴿ فَلَا تَهِنُواْ﴾ إشارة إلى أن الأمور الدنيوية لا ينبغي أن تكون مانعة من الإتيان، فلا تهنوا فإن لكم النصر، أو عليكم بالعزيمة على تقدير الاعتزام للهزيمة.

ثم قال تعالى بعد ذلك المانع الدنيوي مع أنه لا ينبغي أن يكون مانعًا ليس بموجود أيضًا حيث أنتم الأعلون، والأعلون والمصطفون في الجمع حالة الرفع معلوم الأصل، ومعلوم أن الأمر كيف آل إلى هذه الصيغة في التصريف، وذلك لأن أصله في الجمع الموافق أعليون ومصطفيون، فسكنت الياء لكونها حرف علة، فتحرك ما قبلها والواو كانت ساكنة فالتقى ساكنان، ولم يكن بد من حذف أحدهما أو تحريكه، والتحريك كان يوقع في المحذور الذي اجتنب منه فوجب الحذف، والواو كانت فيه لمعنى لا يستفاد إلا منها وهو الجمع فأسقطت الياء وبقي أعلون، وبهذا الدليل صار في الجر أعلين ومصطفين.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ هداية وإرشاد يمنع المكلف من الإعجاب بنفسه، وذلك لأنه تعالى لما قال: ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ كان ذلك سبب الافتخار فقال: ﴿ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ يعني ليس ذلك من أنفسكم بل من الله، أو نقول: لما قال: ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ فكان المؤمنون يرون ضعف أنفسهم وقلتهم مع كثرة الكفار وشوكتهم، وكان يقع في نفس بعضهم أنهم كيف يكون لهم الغلبة فقال:

إن الله معكم، لا يبقى لكم شك ولا ارتياب في أن الغلبة لكم. وهذا كقوله تعالى: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ [المجادلة: ٢١] وقوله: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣] وقوله: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ وَعْد آخر وذلك لأن الله لما قال: إن الله معكم، كان فيه أن النصرة بالله لا بكم، فكان القائل يقول: لم يصدر مني عمل له اعتبار فلا أستحق تعظيمًا. فقال: هو ينصركم ومع ذلك لا ينقص من أعمالكم شيئًا، ويجعل كأن النصرة جعلت بكم ومنكم، فكأنكم مستقلون في ذلك ويعطيكم أجر المستبد، والترة: النقص، ومنه الموتر كأنه نقص منه ما يشفعه، ويقول عند القتال: إن قُتل من الكافرين أحد فقد وتروا في أهلهم وعملهم حيث نقص عددهم وضاع عملهم، والمؤمن إن قُتل فإنما ينقص من عدده ولم ينقص من عمله، وكيف ولم ينقص من عدده أيضًا، فإنه حي مرزوق، فرح بما هو إليه مسوق.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾

زيادة في التسلية، يعني كيف تمنعك الدنيا من طلب الآخرة بالجهاد، وهي لا تفوتك لكونك منصورًا غالبًا، وإن فاتتك فعملك غير موتر، فكيف وما يفوتك، فإن فات فائت ولم يعوض لا ينبغي لك أن تلتفت إليها لكونها لعبًا ولهوًا، وقد ذكرنا في اللعب واللهو مرارًا أن اللعب ما تشتغل به ولا يكون فيه ضرورة في الحال ولا منفعة في المآل، ثم إن استعمله الإنسان ولم يشغله عن غيره، ولم يثنه عن أشغاله المهمة، فهو لعب، وإن شغله ودهشه عن مهماته فهو لهو، ولهذا يقال: (ملاهي) لآلات الملاهي لأنها مشغلة عن الغير، ويقال لما دونه لعب، كاللعب بالشطرنج والحمام، وقد ذكرنا ذلك غير مرة.

وقوله: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ إعادة للوعد، والإضافة للتعريف، أي الأجر الذي وعدكم بقوله: ﴿أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١] ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢] ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣].

وقوله: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ يحتمل وجوهًا: أحدها: أن الجهاد لا بد له من إنفاق، فلو قال قائل: أنا لا أنفق مالي. فيقال له: الله لا يسألكم مالكم في الجهات المعينة من الزكاة والغنيمة وأموال المصالح فيها تحتاجون إليه من المال لا تراعون بإخراجه. وثانيها: الأموال لله وهي في أيديكم عارية، وقد طلب منكم أو أجاز لكم في صرفها في جهة الجهاد، فلا معنى لبخلكم بماله، وإلى هذا إشارة بقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ [الحديد: ١٠] أي الكل لله. وثالثها: لا يسألكم أموالكم كلها، وإنما يسألكم شيئًا يسيرًا منها وهو ربع العشر، وهو قليل جدًّا لأن العشر هو الجزء الأقل إذ ليس دونه جزء وليس اسمًا مفردًا، وأما الجزء من أحد عشر ومن اثنى عشر و(إلى) مائة جزء لما لم يكن ملتفتًا إليه لم يوضع له اسم مفرد.

ثم إن الله تعالى لم يوجب ذلك في رأس المال، بل أوجب ذلك في الربح الذي هو من

فضل الله وعطائه، وإن كان رأس المال أيضًا كذلك، لكن هذا المعنى في الربح أظهر، ولما كان المال منه ما ينفق للتجارة فيه ومنه ما لا ينفق، وما أنفق منه للتجارة أحد قسميه، وهو يحتمل أن تكون التجارة فيه رابحة، ويحتمل أن لا تكون رابحة، فصار القسم الواحد قسمين فصار في التقدير كان الربح في ربعه فأوجب (ربع) عشر الذي فيه الربح وهو عشر فهو ربع العشر وهو الواجب، فعلم أن الله لا يسألكم أموالكم ولا الكثير منه.

ثم قال تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾.

الفاء في قوله: ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ للإشارة إلى أن الإحفاء يتبع السؤال بيانًا لشح الأنفس، وذلك لأن العطف بالواو قد يكون للمثلين، وبالفاء لا يكون إلا للمتعاقبين أو متعلقين أحدهما بالآخر، فكأنه تعالى بيّن أن الإحفاء يقع عقيب السؤال لأن الإنسان بمجرد السؤال لا يعطي شيئًا. وقوله: ﴿تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾ يعني ما طلبها ولو طلبها وألح عليكم في الطلب لبخلتم، كيف وأنتم تبخلون باليسير لا تبخلون بالكثير؟ وقوله: ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾ يعني بسببه فإن الطالب وهو النبي ﷺ وأصحابه يطلبونكم، وأنتم لمحبة المال وشح الأنفس تمتنعون، فيفضي إلى القتال وتظهر به الضغائن.

قوله تعالى: ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾

(يعْني) قد طلبت منكم اليسير فبخلتم، فكيف لو طلبت منكم الكل؟ وقوله: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن تكون موصولة كأنه قال: أنتم هؤلاء الذين تُدعون لتنفقوا في سبيل الله: وثانيهما: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ وحدها خبر (ها انتم) كما يقال: (أنت هذا) تحقيقًا للشهرة والظهور، أي ظهر أثركم بحيث لا حاجة إلى الإخبار عنكم بأمر مغاير ثم يبتدئ ﴿تُدْعَوْنَ﴾ وقوله ﴿تُدْعَوْنَ﴾ أي إلى الإنفاق إما في سبيل الله تعالى بالجهاد، وإما في صرفه إلى المستحقين من إخوانكم، وبالجملة ففي الجهتين تخذيل الأعداء ونصرة الأولياء ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾، ثم بيّن أن ذلك البخل ضرر عائد إليه، فلا تظنوا أنهم لا ينفقونه على غيرهم بل لا ينفقونه على أنفسهم فإن من يبخل بأجرة الطبيب وثمن الدواء وهو مريض فلا يبخل إلا على نفسه، ثم حقق ذلك بقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ﴾ غير محتاج إلى مالكم وأتمه بقوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ حتى لا تقولوا: إنا أيضًا أغنياء عن القتال، ودفع حاجة الفقراء فإنهم لا غنى لهم عن ذلك في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فلأنه لولا القتال لقُتلوا، فإن الكافر إن يَغْز يُغْز، والمحتاج إن لم يدفع حاجته يقصده، لا سيما أباح الشارع للمضطر ذلك، وأما في الآخرة فظاهر فكيف لا يكون فقيرًا وهو موقوف مسؤول ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [الشعراء: ٨٨].

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾ بيان الترتيب من وجهين: أحدهما: أنه ذكره بيانًا للاستغناء، كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٩] وقد ذكر أن هذا تقرير بعد التسليم، كأنه تعالى يقول: الله غني عن العالم بأسره فلا حاجة له إليكم. فإن كان ذاهب يذهب إلى أن ملكه بالعالم وجبروته يظهر به وعظمته بعباده، فنقول: هب أن هذا الباطل حق لكنكم غير متعينين له، بل الله قادر على أن يخلق خلقًا غيركم يفتخرون بعبادته، وعالَمًا غير هذا يشهد بعظمته وكبريائه. وثانيهما: أنه تعالى لما بيّن الأمور وأقام عليها البراهين وأوضحها بالأمثلة قال: إن أطعتم فلكم أجوركم وزيادة، وإن تتولوا لم يبق لكم إلا الإهلاك، فإن ما من نبي أنذر قومه وأصروا على تكذيبه إلا وقد حق عليهم القول بالإهلاك وطهر الله الأرض منهم وأتى بقوم آخرين طاهرين. وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾ فيه مسألة نحوية يتبين منها فوائد عزيزة وهي أن النحاة قالوا: يجوز في المعطوف على جواب الشرط بالواو والفاء وثم، الجزم والرفع جميعًا، قال الله تعالى هاهنا: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾ بالجزم، وقال في موضع آخر: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١] بالرفع بإثبات النون وهو مع الجواز، ففيه تدقيق: وهو أن ههنا لا يكون متعلقًا بالتولي لأنهم إن لم يتولوا يكونون ممن يأتي بهم الله على الطاعة وإن تولوا لا يكونون مثلهم لكونهم عاصين، كون من يأتي بهم مطيعين، وأما هناك فسواء قاتلوا أو لم يقاتلوا لا ينصرون، فلم يكن للتعليق هناك وجه فرفع بالابتداء، وههنا جزم للتعليق.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون المراد ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾ في الوصف ولا في الجنس وهو لائق. الوجه الثاني: وفيه وجوه: أحدها: قوم من العجم. ثانيها: قوم من فارس، روي أن النبي ﷺ سئل عمن يستبدل بهم إن تولوا وسلمان إلى جنبه فقال: «هَذَا وَقَوْمُهُ» ثم قال: «لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ مَنُوطًا بِالثُّرَيَّا، لَنَالَهُ رِجَالٌ مِنْ فَارِسَ»(١) وثالثها: قوم من الأنصار، والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين، وصلاته على خير خلقه محمد النبي وآله وصحبه وعترته وآل بيته أجمعين، وسلم تسليمًا كثيرًا، آمين.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٤/ ١٩٧٢/ ٢٥٤٦) من طريق جعفر الجزري عن يزيد عن أبي هريرة... به، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٢٩٦)، حديث رقم (٧٩٣٧)، والحارث في (مسنده) (٢/ ٩٤٣)، حديث رقم (١٤٠)، وابن أبي شيبة في (مصنفه) (١٢/ ٢٠٧)، حديث رقم (٣٣١٨٣)، جميعًا من طريق عوف عن شهر عن أبي هريرة... به.

سورة القتال، وهي سورة محمد ﷺ

مدنية في قول ابن عباس؛ ذكره النحاس[1].

وقال الماوردي[2]: [مدنية] في قول الجميع إلا ابن عباس وقتادة فإنَّهما قالا: إلا آيةً منها نزلت عليه بعد حَجَّة الوداع حين خرج من مكة، وجعل ينظر إلى البيت وهو يبكي حُزناً عليه؛ فنزل عليه ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ﴾ [محمد: ١٣].

وقال الثعلبيّ: إنَّها مكية؛ وحكاه ابن هبة الله عن الضحَّاك وسعيد بن جبير. وهي تسع وثلاثون آية. وقيل: ثمان[3].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝١﴾

قال ابن عباس ومجاهد: هم أهلُ مكةَ؛ كفروا بتوحيد الله[4]، وصدّوا أنفسَهم والمؤمنين عن دين الله ـ وهو الإسلام ـ بنهيهم عن الدخول فيه، وقاله السدّي. وقال الضحاك: «عَنْ سَبِيلِ اللهِ»: عن بيت الله بمنع قاصديه[5].

ومعنى «أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ»: أبطلَ كيدَهم ومكرهم بالنبيّ ﷺ، وجعل الدائرة عليهم. قاله الضحاك[6]. وقيل: أبطل ما عملوه في كفرهم مما كانوا يسمونه مكارم؛ من صلة الأرحام، وفَكِّ الأسارى، وقِرَى الأضياف، وحفظ الجوار[7].

---

(١) في الناسخ والمنسوخ له ٣/ ٤.

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٢٩٠، وما بين حاصرتين منه.

(٣) بنحوه في الكشاف ٣/ ٥٢٩.

(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٣٩.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٩٠.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ١٧٧.

(٧) الكشاف ٣/ ٥٢٩-٥٣٠.

وقال ابن عباس: نزلت في المُطعِمِين ببدر، وهم اثنا عشر رجلاً: أبو جهل، والحارث بن هشام، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأُبيّ وأُميّة ابنا خَلَف، ومُنَبِّه ونُبَيْه ابنا الحجَّاج، وأبو البَخْتري بن هشام، وزَمْعةُ بن الأسود، وحكيمُ بن حزام، والحارثُ ابن عامر بن نوفل[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هم الأنصار. وقال مقاتل: إنَّها نزلت خاصة في ناسٍ من قريش[(٢)]. وقيل: هما عامّتان فيمن كفر وآمن[(٣)].

ومعنى «أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ»: أبطلَها. وقيل: أضلَّهم عن الهدى بما صرفهم عنه من التوفيق[(٤)].

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من قال: إنَّهم الأنصار، فهي المواساة في مساكنهم وأموالهم. ومن قال: إنَّهم من قريش، فهي الهجرة[(٥)]. ومن قال بالعموم، فالصالحات جميع الأعمال التي ترضي الله تعالى.

﴿وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾: لم يخالفوه في شيء. قاله سفيان الثوري[(٦)]. وقيل: صدّقوا محمداً ﷺ فيما جاء به. ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ يريد أنَّ إيمانَهم هو الحقُّ من

(١) بنحوه في النكت والعيون ٥/ ٢٩١، وفيه «الوليد بن عقبة وعقبة بن أبي معيط» بدل «الحارث بن هشام، وأبيّ بن خلف».

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٩١ دون ذكر مجاهد، وذكر قوله ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٠٩.

(٣) بنحوه في الكشاف ٣/ ٥٣٠.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٩١.

(٥) المصدر السابق.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ١٧٧.

ربهم. وقيل: أي: إنَّ القرآن هو الحقُّ من ربهم[١]، نَسَخَ به ما قبلَه ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: ما مضى من سيئاتهم قبل الإيمان.

﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي: شأنَهم؛ عن مجاهد وغيره. وقال قتادة: حالَهم. ابن عباس: أمورَهم. والثلاثة متقاربة، وهي متأوّلة على إصلاح ما تعلق بدنياهم. وحكى النقاشُ أنَّ المعنى: أصلح نياتِهم؛ ومنه قول الشاعر:

فإن تُقبلي بالودِّ أقبِلْ بمثله ... وإن تُدبري أذهبْ إلى حالٍ باليا[٢]

وهو على هذا التأويل[٣] محمول على إصلاح دينهم[٤].

«والبال» كالمصدر، ولا يعرف منه فعل، ولا تجمعه العربُ إلا في ضرورة الشِّعر فيقولون فيه: بالات[٥].

المبرِّد: قد يكون البال في موضع آخر بمعنى القلب؛ يقال: ما يخطر فلان على بالي، أي: على قلبي[٦].

الجوهري[٧]: والبال رخاءُ النفس؛ يقال: فلان رخيّ البال. والبال: الحال؛ يقال: ما بالك؟ وقولهم: ليس هذا من بالي، أي: مما أباليه. والبال: الحوتُ العظيمُ من حيتان البحر، وليس بعربيّ. والبالة: وعاء الطِّيب؛ فارسي معرَّب، وأصله بالفارسية بيله. قال أبو ذؤيب:

كأنَّ عليها بالةً لَطَمِيَّةً ... لها من خلال الدَّأيتَيْنِ أرِيجُ[٨]

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٩١ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٩١-٢٩٢ ، والبيت أيضاً في أمالي الزجاجي ص١٦١ غير منسوب.

(٣) في (م): التأول.

(٤) النكب والعيون ٥/ ٢٩٢ .

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ١١٠ ، وفيه: البال: مصدر، كالحال والشأن.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٨ .

(٧) في الصحاح (بول).

(٨) البيت في ديوان الهذليين ص٥٩ . اللطميّة: أو: اللطيمة: هي العنبرة التي لُطِمت بالمسك، فتفتّقت =

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ «ذلِك» في موضع رفع، أي: الأمر ذلك، أو ذلك الإضلال والهدى المتقدم ذكرهما سببُه هذا[١]. فالكافر اتّبع الباطل، والمؤمن اتّبع الحقّ. والباطل: الشرك. والحقّ: التوحيد والإيمان. ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ أي: كهذا البيان الذي بُيّن؛ يُبيّن الله للناس أمر الحسنات والسيئات[٢]. والضمير في «أَمْثَالَهُمْ» يرجع إلى الذين كفروا والذين آمنوا[٣].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ لـمَّا ميّز بين الفريقين؛ أمرَ بجهاد الكفار.

قال ابن عباس: الكفار المشركون عبدةُ الأوثان. وقيل: كلُّ من خالف دينَ الإسلام من مشركٍ أو كتابيٍّ إذا لم يكن صاحبَ عهد ولا ذِمّة. ذكره الماوردي[٤]، واختاره ابن العربيّ[٥] وقال: وهو الصحيح لعموم الآية فيه.

= به حتى نشبت رائحتها. الدأي: ضلوع الصدر في ملتقاه وملتقى الجنب. الأريج: الريح الطيبة. اللسان (لطم) (دأي) (أرج).

(١) أي: تكون «ذلك» إما في موضع رفع خبر، على إضمار مبتدأ، أي: الأمر ذلك، أو في موضع رفع بالابتداء، وما بعده خبره. إعراب القرآن للنحاس ٤/١٧٨ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٦١ .

(٣) تفسير الرازي ٢٨/ ٤٣ .

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٢٩٣ .

(٥) في أحكام القرآن له ٤/ ١٦٨٨ .

«فَضَرْبَ الرِّقَابِ» مصدر[١]. قال الزجَّاج[٢]: أي: فاضربوا الرِّقاب ضرباً.

وخصّ الرِّقاب بالذِّكر؛ لأنَّ القتلَ أكثر ما يكون بها[٣]. وقيل: نصب على الإغراء[٤]. قال أبو عبيدة[٥]: هو كقولك: يا نفسُ صبراً.

وقيل: التقدير: اقصدوا ضرب الرقاب[٦].

وقال: «فَضَرْبَ الرِّقَابِ» ولم يقل: فاقتلوهم؛ لأنَّ في العبارة بضرب الرِّقاب من الغلظة والشدة ما ليس في لفظ القتل؛ لِما فيه من تصوير القتل بأشنع صورة؛ وهو حزُّ العنق وإطارةُ العضو الذي هو رأس البدن وعُلوه وأوْجَهُ أعضائه[٧].

الثانية: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾ أي: أكثرتُم القتل. وقد مضى في «الأنفال» عند قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الأنفال: ٦٧][٨]. ﴿فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ أي: إذا أسرتُموهم. والوَثاق اسم من الإيثاق، وقد يكون مصدراً؛ يقال: أوثقتُه إيثاقاً ووَثاقاً[٩].

وأما الوِثاق ـ بالكسر ـ فهو اسم الشيء الذي يوثَق به؛ كالرِّباط. قاله القشيري.

وقال الجوهَري[١٠]: وأوثقه في الوِثاق، أي: شدّه، وقال تعالى: «فَشُدُّوا الوَثَاقَ». والوِثاق ـ بكسر الواو ـ لغة فيه.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٩ .

(٢) في معاني القرآن له ٥/ ٦ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٦١ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٩ ـ ونسب القول فيه للفراء ـ وتفسير البغوي ٤/ ١٧٨ .

(٥) في مجاز القرآن ٢/ ٢١٤ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٨٨ .

(٧) الكشاف ٣/ ٥٣٠ .

(٨) ١٠/ ٧٤ .

(٩) الوسيط ٤/ ١١٩ ، وزاد المسير ٧/ ٣٩٧ .

(١٠) في الصحاح (وثق).

وإنما أمر بشدّ الوَثاق لئلا يُفلِتوا. ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا﴾ عليهم بالإطلاق من غير فِدْية ﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾[١]. ولم يذكر القتل هاهنا؛ اكتفاءً بما تقدّم من القتل في صدر الكلام.

و«مَنًّا» و«فِدَاءً» نصب بإضمار فعل. وقرئ: «فَدًى» بالقصر مع فتح الفاء، أي: فإما أن تمنُّوا عليهم مَنًّا، وإما أن تفادوهم فِداءً[٢].

روي عن بعضهم أنَّه قال: كنت واقفاً على رأس الحجَّاج حين أُتيَ بالأسرى من أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث وهم أربعة آلاف وثمانُ مئة، فقتل منهم نحواً من ثلاثة آلاف حتى قدم إليه رجل من كِندة فقال: يا حجَّاج، لا جازاك الله عن السنّة والكرم خيراً! قال: ولم ذلك؟ قال: لأنَّ الله تعالى قال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ في حقّ الذين كفروا، فوالله ما مَنَنْتَ ولا فَدَيتَ! وقد قال شاعركم فيما وصف به قومَه من مكارم الأخلاق:

ولا نَقتلُ الأسرى ولكن نفكُّهم إذا أثقلَ الأعناقَ حملُ المغارِمِ[٣]

فقال الحجَّاج: أفٍّ لهذه الجِيَف! أمَا كان فيهم مَنْ يحسن مثل هذا الكلام؟! خَلُّوا سبيل من بقي. فخُلِّيَ يومئذ عن بقية الأسرى ـ وهم زهاء ألفين ـ بقول ذلك الرجل[٤].

الثالثة: واختلف العلماء في تأويل هذه الآية على خمسة أقوال:

الأوّل: أنها منسوخةٌ، وهي في أهل الأوثان، لا يجوز أن يفادَوا ولا يُمَنَّ عليهم. والناسخُ لها عندهم قولُه تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[٥]

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٧٨ بنحوه.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٣١، وتفسير الرازي ٢٨/ ٤٤، وذكر قراءة: فَدًى، الزمخشري، وهي قراءة شاذة.

(٣) البيت للفرزدق كما في طبقات فحول الشعراء ٢/ ٤٠٢، والأغاني ١٥/ ٣٤٣.

(٤) القصة مختصرة في العقد الفريد ٢/ ١٧٤ ورواية البيت فيه: (القلائد) بدل: (المغارم)، وبهجة المجالس ١/ ٩٩، ووقع في وفيات الأعيان لابن خلّكان ٢/ ٣٩ أنّه رجل من بني تميم.

(٥) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ٥.

[التوبة: ٥] وقولُه: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٧] وقولُه: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] الآية. قاله قتادة والضحاك والسُّدّي وابنُ جُرَيج والعَوْفي عن ابن عباس، وقاله كثير من الكوفيين(١).

وقال عبد الكريم الجَزَري(٢): كُتب إلى أبي بكر في أسير أسِر، فذكروا أنَّهم التمسوه بفداء كذا وكذا، فقال: اقتلوه، لَقَتْلُ رجلٍ من المشركين أحبّ إليّ من كذا وكذا(٣).

الثاني: أنها في الكفار جميعاً. وهي منسوخة على قول جماعة من العلماء وأهل النظر، منهم قتادة ومجاهد. قالوا: إذا أُسِر المشركُ، لم يجز أن يُمَنَّ عليه، ولا أن يفادى به فيردّ إلى المشركين، ولا يجوز أن يفادى عندهم إلا بالمرأة؛ لأنَّها لا تُقتل. والناسخ لها: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] إذ كانت «براءة» آخر ما نزلت بالتوقيف؛ فوجب أن يُقتل كل مشرك إلا من قامت الدلالة على تركه من النساء والصبيان ومن تؤخذ منه الجِزية(٤) ـ وهو المشهور من مذهب أبي حنيفة(٥) ـ خيفة أن يعودوا حَرْباً للمسلمين.

ذكر عبد الرّزاق أخبرنا معمر عن قتادة ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ قال: نسخها: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٧]. وقال مجاهد: نسخها: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. وهو قول الحكَم.(٦)

الثالث: أنها ناسخة. قاله الضحاك وغيره. روى الثوري عن جُوَيبر عن الضحاك:

---

(١) تفسير الطبري ٢١/ ١٨٣-١٨٥ .

(٢) في (م) و(د) و(ز) و(ق): الجوزي، والمثبت من باقي النسخ، وهو الصواب.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٢٠ ، والطبري في تفسيره ٢١/ ١٨٤ ، وذكره أبو الليث في تفسيره ٣/ ٢٤٠ .

(٤) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٤٢٤ ، ٣/ ٧ .

(٥) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٠ .

(٦) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١٠ ، وأثر قتادة في تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٢١ .

﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة:٥] قال: نسخها ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾. وقال ابن المبارك عن ابن جُرَيج عن عطاء: «فَإِمَّا مَنًّا بَعدُ وإِمَّا فِدَاءً» فلا يُقتل المشرك ولكن يُمَنّ عليه ويُفادى؛ كما قال الله عزَّ وجلَّ. قال الأشعث: كان الحسن يكره أن يقتل الأسير، ويتلو: «فَإِمَّا مَنًّا بَعدُ وإِمَّا فِدَاءً»[١].

وقال الحسن أيضاً: في الآية تقديم وتأخير؛ فكأنه قال: فضرب الرِّقاب حتى تضع الحربُ أوزارَها. ثم قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾. وزعم أنَّه ليس للإمام إذا حصل الأسير في يديه أن يقتله، لكنه بالخيار في ثلاثة منازل: إما أن يَمُنّ، أو يُفادى، أو يسترقّ[٢].

الرابع: قول سعيد بن جُبَير: لا يكون فداءٌ ولا أسر إلا بعد الإثخان والقتل بالسيف؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال:٦٧]. فإذا أُسِر بعد ذلك، فللإمام أن يحكمَ بما رآه من قتل أو غيره[٣].

الخامس: أنَّ الآية محكمة، والإمام مخيَّر في كل حال[٤]؛ رواه عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس[٥]، وقاله كثير من العلماء؛ منهم ابن عمرَ والحسن وعطاء، وهو مذهبُ مالك والشافعيِّ والثوريِّ والأوزاعيِّ وأبي عبيد وغيرهِم، وهو الاختيار؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ والخلفاءَ الراشدين فعلوا كلَّ ذلك[٦]؛ قَتَل النبيُّ ﷺ عُقبة بنَ أبي مُعَيط والنضرَ بنَ الحارث يوم بدر صَبْرًا[٧]، وفادى سائر أسارى بدر، ومنَّ على أبي عروة

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١٠-١١.

(٢) أحكام القرآن للكيا ٤/ ٣٧٤.

(٣) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ٥، ١١.

(٤) الناسخ والمنسوخ ٣/ ٥.

(٥) أخرجه أبو عبيد في الأموال ص١٧٠ (٣٤٢)، والنحاس في الناسخ والمنسوخ ٣/ ١٢.

(٦) الأوسط لابن المنذر ١١/ ٢٢٤-٢٢٧، وينظر تفسير البغوي ٤/ ١٧٨.

(٧) سلف ١٠/ ٢٣.

الجمحي[١]، وقتل بني قريظة وقد نزلوا على حكم سعد وصاروا في يده سِلْماً[٢]. ومَنَّ على ثُمامة بن أُثَال الحنفي وهو أسير في يده[٣]، وأخذ من سلمة بن الأكوع جاريةً ففدى بها أناساً من المسلمين[٤]، وهبط عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قوم من أهل مكة، فأخذهم النبيُّ ﷺ وقد منّ عليهم، وقد منّ على سَبي هوازن[٥]. وهذا كلُّه ثابت في الصحيح، وقد مضى جميعه في «الأنفال»[٦] وغيرها.

قال النحاس[٧]: وهذا على أنَّ الآيتين محكمتان معمول بهما، وهو قولٌ حسن؛ لأنَّ النسخ إنما يكون لشيء قاطع، فإذا أمكن العمل بالآيتين فلا معنى للقول بالنسخ، إذ كان يجوز أن يقع التعبُّد، إذا لقينا الذين كفروا قتلناهم، فإذا كان الأسر؛ جاز القتل والاسترقاق والمفاداة والمنّ على ما فيه الصلاح للمسلمين. وهذا القول يروى عن أهل المدينة والشافعي وأبي عبيد.

وحكاه الطحاوي مذهباً عن أبي حنيفة، والمشهورُ عنه ما قدّمناه[٨]، وبالله عزَّ وجلَّ التوفيق.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ قال مجاهد وابن جبير: هو خروج عيسى عليه السلام[٩]. وعن مجاهد أيضاً: أن المعنى حتى لا يكون دينٌ إلا دين

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٣١ وفيه (الحجبي) بدل (الجمحي).

(٢) من قوله: «ومنّ على أبي عروة» إلى قوله: «في يده سلماً». من (خ) و(د) و(ظ) و(ف). وحكم سعد في بني قريظة سلف ٦/ ٦٣ . ووقع في (د) «وقتل من قريظة» بلد «وقتل بني قريظة».

(٣) سلف ٢/ ٤٢٢ .

(٤) أخرجه أحمد (١٦٥٠٢)، ومسلم (١٧٥٥) مطولاً.

(٥) سلف ١٠/ ١١ .

(٦) ١٠/ ٧١ فما بعدها.

(٧) في الناسخ والمنسوخ ٣/ ١٢ .

(٨) الكشاف ٣/ ٥٣١ .

(٩) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٦٣ ، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٥٩٧ .

الإسلام، فَيُسْلِم كل يهوديّ ونصرانيّ وصاحب مِلّة، وتأمن الشاة من الذئب[١]. ونحوه عن الحسن والكلبي والفرّاء[٢] والكسائي. قال الكسائي: حتى يُسْلِم الخلق.

وقال الفرّاء: حتى يؤمنوا ويذهب الكفر. وقال الكلبي: حتى يظهر الإسلام على الدِّين كلِّه[٣]. وقال الحسن: حتى لا يعبدوا إلا الله.

وقيل: معنى الأوزار السلاح؛ فالمعنى: شدّوا الوثاق حتى تأمنوا وتضعوا السلاح[٤].

وقيل: معناه حتى تضع الحرب؛ أي: الأعداءُ المحاربون أوزارَهم[٥]؛ وهو سلاحهم بالهزيمة أو الموادعة[٦]. ويقال للكراع: أوزار. قال الأعشى:

وأعــددْت لــلــحــرب أوزارَهــا ... رمــاحــاً طِــوَالاً وخَــيْــلاً ذُكُــورا

ومِــن نَــسْــج داودَ يــحــدى بــهــا ... عــلــى أثــر الــحــيِّ عِــيــراً فــعِــيــرا[٧]

وقيل: «حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا» أي: أثقالها. والوِزر: الثقل، ومنه وزير الملك؛ لأنَّه يتحمّل عنه الأثقالَ. وأثقالها: السلاح؛ لثقل حملها[٨].

قال ابن العربي[٩]: قال الحسن وعطاء: في الآية تقديم وتأخير؛ المعنى:

(١) أحكام القرآن للكيا ٤/ ٣٧٤-٣٧٥، وقول مجاهد أيضاً في تفسيره ٢/ ٥٩٧، وأخرجه الطبري ٢١/ ١٨٨.

(٢) في معاني القرآن له ٣/ ٥٧-٥٨.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٩٣.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٦٤ بنحوه.

(٥) تفسير الرازي ٢٨/ ٤٥.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٩٣.

(٧) تفسير غريب القرآن ص٤٠٩، والبيتان في ديوان الأعشى ص١٤٩، ورواية البيت الثاني فيه:

ومــن نَــســجِ داودَ مــوضــونــة ... تُــســاق مع الــحــيِّ عــيــراً فــعــيــرا

(٨) النكت والعيون ٥/ ٢٩٣.

(٩) في أحكام القرآن ١٦٩١ - ١٦٩٢.

فضرب الرِّقاب حتى تضع الحربُ أوزارَها، فإذا أثخنتموهم فشدّوا الوَثاق، وليس للإمام أن يقتل الأسير. وقد روي عن الحجّاج أنه دفع أسيراً إلى عبد الله بن عمر ليقتله، فأبى وقال: ليس بهذا أمرنا الله، وقرأ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾. قلنا: قد قاله رسولُ الله ﷺ وفعله[١]، وليس في تفسير الله للمنّ[٢] والفداء منع من غيره، فقد بيّن الله في الزنى حكم الجلد، وبيّن النبيّ ﷺ حكم الرجم، ولعلَّ ابنَ عمر كره ذلك من يد الحجاج فاعتذر بما قال، وربك أعلم.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ﴾ «ذَلِكَ» في موضع رفع على ما تقدّم، أي: الأمر ذلك الذي ذكرت وبينت[٣]. وقيل: هو منصوب على معنى افعلوا ذلك[٤]. ويجوز أن يكون مبتدأ، المعنى: ذلك حكمُ الكفار. وهي كلمة يستعملها الفصيح عند الخروج من كلام إلى كلام، وهو كما قال تعالى: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ﴾ [ص:٥٥]. أي: هذا حقٌّ وأنا أعرّفكم أنَّ للظالمين كذا.

ومعنى: «لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ» أي: أهلكهم بغير قتال[٥]. وقال ابن عباس: لأهلكهم بجند من الملائكة[٦]. ﴿وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ﴾ أي: أمركم بالحرب ليبلُوَ ويختبرَ بعضَكم ببعض، فيعلم المجاهدِين والصابرين، كما في السورة نفسِها[٧]. ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يريد قتلى أُحُد من المؤمنين ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ قراءة العامة: «قاتلوا» وهي اختيار أبي عبيد. وقرأ أبو عمرو وحفص: «قُتِلوا» بضم القاف وكسر التاء[٨]،

(١) سلف ١٠/ ٧٣.

(٢) في النسخ الخطية (لكم) بدل (للمنّ)، وهي نسخة من أحكام القرآن كما في حواشيه، والمثبت من (م) والأحكام.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٩.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٧.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٧٩.

(٦) نسب القول في النكت والعيون ٥/ ٢٩٤ للكلبي.

(٧) الآية ٣١، وينظر الكشاف ٣/ ٥٣١.

(٨) السبعة ص٦٠٠، والتيسير ص٢٠٠.

وكذلك قرأ الحسن إلا أنه شدّد التاء على التكثير[١]. وقرأ الجَحْدرِيّ وعيسى بن عمر وأبو حَيْوة: «قَتَلُوا» بفتح القاف والتاء من غير ألف[٢]؛ يعني الذين قتلوا المشركين.

قال قتادة: ذكر لنا أنَّ هذه الآية نزلت يوم أُحُد ورسولُ الله ﷺ في الشِّعب، وقد فَشَت فيهم الجراحات والقتل[٣]، وقد نادى المشركون: اعْلُ هُبَلُ. ونادى المسلمون: الله أعلى وأجلّ. وقال المشركون: يومٌ بيوم بَدر والحرب سِجال. فقال النبي ﷺ: «قولوا: لا سواء. قتلانا أحياءٌ عند ربهم يرزقون، وقتلاكم في النار يعذَّبون». فقال المشركون: إنَّ لنا العُزّى ولا عُزَّى لكم. فقال المسلمون: الله مولانا ولا مولى لكم. وقد تقدّم ذكر ذلك في «آل عمران»[٤].

قوله تعالى: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥﴾

قال القشيري: قراءة أبي عمرو: «قُتِلوا» بعيدة؛ لقوله تعالى: «سَيَهْدِيهِم وَيُصْلِحُ بالَهُمْ» والمقتول لا يوصف بهذا. قال غيره: يكون المعنى سيهديهم إلى الجنة، أو سيهدي من بقي منهم. أي: يحقّق لهم الهداية. وقال ابن زياد: سيهديهم إلى محاجّة منكر ونكير في القبر[٥].

قال أبو المعالي: وقد ترد الهداية والمراد بها إرشادُ المؤمنين إلى مسالك الجنان والطرق المُفْضية إليها؛ من ذلك قوله تعالى في صفة المجاهدين: ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ﴾ ومنه قوله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣] معناه: فاسلكوهم إليها[٦].

---

(١) القراءات الشاذة ص١٤٠ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٨٠ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١١١ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٧٩ ، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ١٩٠-١٩١ .

(٤) ٥/ ٣٥٨ - ٣٥٩ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٩٤ .

(٦) في (م) و(ق): فاسلكوا بهم إليها، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ١/ ٧٣ وكلام أبي المعالي منه.

قوله تعالى: ﴿وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ۝٦﴾

أي: إذا دخلوها يقال لهم: تفرّقوا إلى منازلكم، فهم أعرفُ بمنازلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم. قال معناه مجاهد وأكثر المفسرين(١).

وفي البخاري(٢) ما يدل على صحة هذا القول عن أبي سعيد الخُدْرِيّ، قال: قال رسول الله ﷺ: «يَخْلُص المؤمنون من النار، فيُحبسون على قنطرةٍ بين الجنَّة والنار [فَيُقَصُّ لبعضهم من بعض مظالمُ كانت بينهم في الدنيا] حتى إذا هُذِّبُوا ونُقُّوا، أُذِن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفسُ محمد بيده لَأَحدُهم أهْدى بمنزله في الجنة [منه] بمنزِله كان(٣) في الدنيا».

وقيل: «عَرَّفَهَا لَهُمْ» أي: بيّنها لهم حتى عرفوها من غير استدلال(٤).

قال الحسن: وصف الله تعالى لهم الجنةَ في الدنيا، فلما دخلوها عرفوها بصفتها(٥). وقيل: فيه حذف، أي: عَرَّف طرقَها ومساكنَها وبيوتَها لهم، فحذف المضاف.

وقيل: هذا التعريف بدليل، وهو المَلَك الموكَّل بعمل العبد يمشي بين يديه(٦) ويتبعه العبد حتى يأتي العبدُ منزلَه، ويعرّفه المَلَك جميع ما جُعل له في الجنة. وحديث أبي سعيد الخُدْريّ يردّه.

وقال ابن عباس: «عَرَّفَهَا لَهُمْ» أي: طيّبها لهم بأنواع الملاذّ؛ مأخوذ من العَرْف،

---

(١) الوسيط ٤/ ١٢١ دون ذكر مجاهد، وينظر قوله في الكشاف ٣/ ٥٣٢ ، وزاد المسير ٧/ ٣٩٨ .

(٢) في صحيحه (٦٥٣٥) وما سيأتي بين حاصرتين منه، وسلف عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الزمر. القنطرة: الجسر. اللسان (قنطر).

(٣) لفظة «كان» ليست في (م).

(٤) الوسيط ٤/ ١٢١ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٩٤-٢٩٥ .

(٦) تفسير الرازي ٢٨/ ٤٨ بنحوه.

وهو الرائحة الطيبة. وطعام مُعَرَّف، أي: مطيّب[١]، تقول العرب: عرّفت القِدر: إذا طيبتَها بالملح والأبزار[٢].

وقال الشاعر يخاطب رجلاً ويمدحه:

عَـرُفْـتَ كـإتْـبٍ عـرّفـتـه الـلّـطـائـمُ

يقول[٣]: كما عَرُف الإتْب، وهو البَقِير والبَقِيرة، وهو قميص لا كمّينِ[٤] له، تلبسه النساء[٥].

وقيل: هو من وضع الطعام بعضه على بعض من كثرته، يقال: خزير[٦] معرّف، أي: بعضه على بعض، وهو من العُرْف المتتابع كعُرف الفرس.

وقيل: «عَرَّفَهَا لَهُمْ» أي: وفَّقهم للطاعة حتى استوجبوا الجنة. وقيل: عرّف أهل السماء أنّها لهم؛ إظهاراً لكرامتهم فيها. وقيل: عرّف المطيعين أنها لهم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ أي: إن تنصروا دين الله ينصركم على الكفار. نظيره: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠] وقد تقدّم[٧].

وقال قُطْرُب: إن تنصروا نبيّ الله ينصركم الله، والمعنى واحد.

﴿وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ أي: عند القتال. وقيل: على الإسلام. وقيل: على الصراط.

---

(١) الوسيط ٤/ ١٢١، وتفسير البغوي ٤/ ١٧٩.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١١٢ بنحوه.

(٣) في (م): يقوله.

(٤) في النسخ الخطية: كمّي.

(٥) الصحاح (عرف) (بقر). اللطائم: ـ جمع لطيمة ـ قطعة مسك. اللسان (لطم).

(٦) في النسخ حرير، والمثبت من تهذيب اللغة ٢/ ٣٤٥، والكلام منه. والخزير: اللحم الغابّ يؤخذ فيقطع صغاراً في القدر، ثمّ يطبخ بالماء الكثير والملح. اللسان (خزر).

(٧) ١٤/ ٤١٢.

وقيل: المراد تثبيت القلوب بالأمن[١]؛ فيكون تثبيتُ الأقدام عبارةً عن النصر والمعونة في موطن الحرب[٢].

وقد مضى في «الأنفال» هذا المعنى[٣]. وقال هناك: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ﴾ [الأنفال: ١٢] فأثبت هناك واسطة ونفاها هنا، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١] ثم نفاه بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [الروم: ٤٠]. ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢] ومثله كثير؛ فلا فاعل إلا الله وحدَه.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يحتمل الرفع على الابتداء، والنصب بما يفسره «فَتَعْسًا لَّهُمْ» كأنه قال: أتْعَسَ الذين كفروا[٤].

و«تَعْسًا لهم» نصب على المصدر بسبيل الدعاء. قاله الفرّاء[٥]، مثل: سَقْيًا له ورَعيًا.

وهو نقيض: لَعًا له. قال الأعشى:

فالتَّعْس أوْلَى لها من أن أقول لَعَا[٦]

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٩٥ .

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٧ .

(٣) ٩/ ٤٦٦ .

(٤) الكشاف ٣/ ٥٣٢ .

(٥) نقله عنه البغوي في تفسيره ٤/ ١٨٠ .

(٦) الكشاف ٤/ ٥٣٢ ، والبيت في ديوان الأعشى ص١٥٣ ، ودرة الغواص للحريري ص١١٠ وروايتهما (أدنى) بدل (أولى) وصدره: بذات لَوْث عَفَرْناةٍ إذا عثرت. اللوث بالفتح: القوة، وناقة عفرناة، أي: قوية. اللسان (لوث) (عفر). قال في درة الغواص: العرب تقول في الدعاء على العاثر: تعساً له وفي الدعاء له: لعاً.

وفيه عشرة أقوال: الأوّل: بُعْدًا لهم. قاله ابن عباس وابن جريج[١]. الثاني: خزياً لهم[٢]. قاله السدي. الثالث: شقاء لهم. قاله ابن زيد. الرابع: شَتماً لهم من الله. قاله الحسن. الخامس: هلاكاً لهم. قاله ثعلب. السادس: خَيْبَةً لهم. قاله الضحاك وابن زيد. السابع: قبحاً لهم. حكاه النقاش. الثامن: رغماً لهم. قاله الضحاك أيضاً[٣]. التاسع: شَرًّا لهم. قاله ثعلب أيضاً[٤]. العاشر: شقوة لهم. قاله أبو العالية[٥].

وقيل: إنَّ التَّعس الانحطاطُ والعِثار[٦].

قال ابن السِّكّيت: التعس أن يَخِرّ على وجهه[٧]. والنَّكْس أن يَخِرّ على رأسه. قال: والتعس أيضاً الهلاك[٨].

قال الجوهري[٩]: وأصله الكَبّ، وهو ضدّ الانتعاش، وقد تَعَس - بفتح العين - يَتْعَس تَعْساً، وأتعسه الله. قال مُجَمّع بن هلال[١٠]:

تقول وقد أفرَدْتُها من حَلِيلها[١١] تَعَسْتَ كما أتْعَسْتَني يا مُجَمِّعُ[١٢]

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٨٠ .

(٢) في (م) و(ز) و(ق): حزناً لهم، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٥/ ٢٩٥ والكلام منه.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٩٥ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٨٠ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٦٧ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٨٠ وفيه: (سقوطاً) بدل (شقوة).

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٩٥ .

(٧) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٦٧ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١١٢ ، ونسبه في تهذيب اللغة ٢/ ٧٨ للرُّسْتُمي.

(٨) تهذيب اللغة ٢/ ٧٨ ، ومعاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٦٨ .

(٩) في الصحاح (تعس).

(١٠) هو مجمّع بن مالك بن هلال، شاعر جاهلي. معجم الشعراء ص٤٣٨ .

(١١) في (م) و(ق) خليلها، والمثبت من باقي النسخ.

(١٢) البيت في درة الغواص ص١١٠ ، والخزانة ١٠/ ٤٠٣ .

يقال: تعساً لفلان، أي: ألزمه الله هلاكاً[١]. قال القُشَيرِي: وجوّز قوم تعِس بكسر العين.

قلت: ومنه حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تَعِس عَبدُ الدينار والدرهم والقَطِيفة والخَمِيصة، إن أُعطيَ رَضيَ، وإنْ لم يُعْطَ لم يرض» خرّجه البخاري[٢]. في بعض طرق هذا الحديث: «تَعِس وانتكس، وإذا شِيك فلا انْتَقَش» خرّجه ابن ماجه[٣].

قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: أبطلها؛ لأنّها كانت في طاعة الشيطان[٤]. ودخلت الفاء في قوله: «فَتَعْساً» لأجل الإبهام الذي في «الَّذينَ»، وجاء «وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ» على الخبر حملاً على لفظ الذين؛ لأنّه خبر في اللفظ، فدخول الفاء حملاً على المعنى، «وأضلَّ» حَملاً على اللفظ.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾﴾

أي: ذلك الإضلال والإتعاس[٥]؛ لأنّهم ﴿كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ من الكتب والشرائع. ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: مالهم من صور الخيرات، كعمارة المسجد وقِرى الضيف وأصناف القُرَب، ولا يَقبَل الله العملَ إلا من مؤمن. وقيل: أحبط أعمالهم، أي: عبادة الصنم.

---

(١) الصحاح (تعس).

(٢) في صحيحه (٢٨٨٦). قوله: القطيفة كساء له خَمْل؛ والخميصة: ثوب من خزّ أو صوف مُعْلَم، وكانت من لباس الناس قديماً. النهاية (قطف) (خمص).

(٣) في سننه (٤١٣٦)، وهو في صحيح البخاري أيضاً (٢٨٨٧) قوله: «انتكس» أي: انقلب على رأسه، وهو دعاءٌ عليه بالخيبة، وقوله: «وإذا شيك فلا انتقش» أي: إذا دخلتْ فيه شوكة، لا أخرجها من موضعها وهو دعاء عليه أيضاً. النهاية (نقش) (نكس).

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٠ .

(٥) الوسيط ٤/ ١٢١ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٨٠ .

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾﴾

بيَّنَ أحوالَ المؤمن والكافر تنبيهاً على وجوب الإيمان، ثمَّ وصل هذا بالنظر؛ أي: ألم يَسِرْ هؤلاء في أرض عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ليعتبروا بهم ﴿فَيَنظُرُوا﴾ بقلوبهم ﴿كَيْفَ كَانَ﴾ آخِرُ أمر الكافرين قبلهم ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أهلكهم واستأصلهم.

يقال: دمّره تدميراً ودمّر عليه، بمعنىً[1].

ثم توعّد مشركي مكةَ فقال: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾[2] أي: أمثالُ هذه الفَعْلة[3]؛ يعني التدمير.

وقال الزَّجَّاج والطبري: الهاء تعود على العاقبة؛ أي: وللكافرين من قريش أمثالُ عاقبة تكذيب الأمم السالفة إن لم يؤمنوا[4].

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾﴾

أي: وليُّهم وناصرُهم[5].

وفي حرف ابن مسعود: «ذَلِكَ بِأنَّ اللهَ وَليُّ الَّذينَ آمَنُوا». فالمولى: الناصر هاهنا. قاله ابن عباس وغيره. قال:

فَغدَت كِلاَ الفَرجَيْن تحسب أنه مَولَى المخافة خَلْفُها وأمامُها[6]

(١) الصحاح (دمر).

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٨٠ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١١٣ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٨ ، وتفسير الطبري ٢١/ ١٩٥ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٨٠ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٨١-١٨٢ . والبيت للبيد، وهو في ديوانه ص٣١١ ، والبيت أيضاً في تهذيب اللغة ١٥/ ٦٣٩ وروايته فيه: (فعدت) بدل (فغدت) وذكر الأزهري في شرح البيت أنه يصف =

قال قتادة: نزلت يوم أُحُد والنبيّ ﷺ في الشِّعب إذ صاح المشركون: يومٌ بيوم، لنا العُزّى ولا عُزَّى لكم؛ قال النبي ﷺ: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم» وقد تقدّم[١]. ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: لا ينصرهم أحد من الله[٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ تقدّم في غير موضع.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ﴾ في الدنيا كأنّهم أنعام، ليس لهم هِمّة إلا بطونُهم وفروجُهم، ساهون عمَّا في غدِهم. وقيل: المؤمن في الدنيا يتزوّد، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع[٣]. ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: مقام ومنزل[٤].

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ تقدّم الكلام في «كَأَيِّنْ» في «آل عمران»[٥]. وهي هاهنا بمعنى كم، أي: وكم من قرية. وأنشد الأخفش قول لبيد:

وكائنْ رأينا من ملوكٍ وسُوقةٍ ومفتاحِ قَيْد للأسير المكبَّل[٦]

= بقرة وحشية غرها القناص فعدت، وكلا فرجيها: وهما أمامها وخلفها، وقال في اللسان (فرج): الفرج الثغرُ المخُوف، وهو موضع المخافة.

(١) ص٢٥٠ من هذا الجزء.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٨ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٨٠ .

(٤) الكشاف ٣/ ٥٣٢ .

(٥) ٥/ ٣٤٩-٣٥١ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٩٦ ، والبيت في ديوان لبيد ص٣ ، ورواية البيت فيه:

وكائنْ رأيتُ من ملوك وسوقة وصاحبْتُ من وفدٍ كرام وموكب

فيكون معناه: وكم من أهل قرية ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ أي: أخرجَك أهلها[١].

﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ قال قتادة وابن عباس: لما خرج النبيُّ ﷺ من مكة إلى الغار، التفت إلى مكة وقال: «اللَّهُمْ أنتِ أحبُّ البلاد إلى الله، وأنتِ أحبُّ البلاد إليّ، ولولا المشركون أهْلُكِ أخرجوني لَما خرجت منك». فنزلت الآية[٢]؛ ذكره الثعلبي، وهو حديث صحيح.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الألف ألف تقرير[٣]. ومعنى «على بينةٍ» أي: على ثبات ويقين. قاله ابن عباس.

أبو العالية: وهو محمد ﷺ. والبينة: الوَحْيُ[٤].

﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي: عبادة الأصنام، وهو أبو جهل والكفار[٥]. ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾ أي: ما اشتهوا. وهذا التزيينُ من جهة الله خلقاً. ويجوز أن يكون من الشيطان دعاءً ووسوسة. ويجوز أن يكون من الكافر، أي: زيَّن لنفسه سوءَ عمله وأصرّ على الكفر.

وقال: «سُوءُ» على لفظ «مَن» «واتَّبَعُوا» على معناه[٦].

---

(١) النكت والعيون ٥/٢٩٦ .

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٢١/١٩٨ عن ابن عباس، وأخرجه بنحوه الترمذي (٣٩٢٦).

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/٩ .

(٤) النكت والعيون ٥/٢٩٦ .

(٥) تفسير البغوي ٤/١٨٠ بنحوه.

(٦) الكشاف ٤/٥٣٣ .

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ﴾ لما قال عزَّ وجلَّ: «إنَّ الله يُدْخِلُ الَّذين آمنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّات» وصف تلك الجنات، أي: صفة الجنة المعدَّة للمتقين. وقد مضى الكلام في هذا في «الرعد»[١].

وقرأ علي بن أبي طالب: «مِثَالُ الجَنَّةِ الَّتي وُعِدَ المُتَّقُونَ»[٢]. ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ أي: غير متغير الرائحة. والآسِن من الماء مثل الآجِن[٣].

وقد أسَن الماء يأسُن ويأسِن أُسُوناً: إذا تغيّرت رائحته. وكذلك أجَن الماء يأجُن ويأجِن أَجْناً وأُجُوناً[٤].

ويقال بالكسر فيهما: أجِن وأسِن يأسَن ويأجَن أَسَناً وأَجَناً. قاله اليزيدي.

وأسِنَ الرجل أيضاً يأسَن؛ بالكسر لا غير[٥]: إذا دخل البئر فأصابته ريحٌ منتنة من ريح البئر أو غير ذلك، فغُشِي عليه أو دارَ رأسُه، قال زُهير:

قـد أتـرك الـقِـرنَ مُـصـفَـرًّا أنـامـلُـه ... يَميدُ في الرُّمح مَيدَ المائحِ الأسِنِ[٦]

---

(١) ١٢/ ٨٠-٨١ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١١٤ .

(٣) زاد المسير ٧/ ٤٠١ بنحوه.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨١ .

(٥) يعني في الماضي كما قيده صاحب القاموس على مثال: فرح.

(٦) الصحاح (أجن) (أسن)، والبيت في شرح ديوان زهير ص١٢١ ، وخزانة الأدب ١١/ ٢٥٩ ، ورواية الديوان:

يـغـادر الـقِـرْنَ مـصـفـرًّا أنـامـلـه ... يَميلُ في الرُّمح مَيْل المائح الأسن

القِرْن: كفؤك في الشجاعة. الصحاح (قرن). قال شارح الديوان: مصفرًّا أناملُه؛ دنا موته فاصفرَّت أنامله، والمائح: الذي ينزل إلى أسفل البئر يملأ الدلو إذا قلَّ الماء.

ويروى: «الوَسِن». وتأسّن الماء: تغيّر. أبو زيد: تأسّن عليَّ تأسُّناً: اعتلّ وأبطأ. أبو عمرو: تأسّن الرجل أباه: أخذ أخلاقه. وقال اللِّحيانيّ: إذا نزع إليه في الشَّبَه[١].

وقراءة العامة: «آسن» بالمدّ. وقرأ ابن كثير وحُميد: «أَسِن» بالقصر، وهما لغتان[٢]، مثل حاذر وحَذِر. وقال الأخفش: أَسِنَ للحال، وآسنَ مثل فاعل يراد به الاستقبال. ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ أي: لم يحمض بطول المقام كما تتغير ألبان الدنيا على الحموضة[٣].

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي: لم تُدنسْها الأرجلُ ولم تُرَنِّقْها الأيدي كخمر الدنيا[٤]؛ فهي لذيذةُ الطعم، طيبةُ الشرب، لا يتكرَّهها الشاربون.

يقال: شراب لَذٌّ ولذيذ بمعنًى. واستلذّه: عدّه لذيذاً[٥].

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ العسل ما يسيل من لُعاب النَّحل[٦]. «مُصَفًّى» أي: من الشمع والقَذَى، خلقه الله كذلك؛ لم يطبخ على نار، ولا دنّسه النَّحل.

وفي الترمذيّ عن حكيم بن معاوية، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ في الجنَّة بحرَ الماء، وبحرَ العسل، وبحرَ اللّبن، وبحرَ الخمر، ثمّ تشقّق الأنهارُ بعدُ». قال: حديث حسن صحيح[٧].

وفي صحيح مسلم[٨] عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «سَيْحانُ وجَيْحانُ والنِّيلُ والفُراتُ، كلٌّ من أنهار الجنّة». وقال كعب: نهر دجلة نهرُ ماء أهل

(١) الصحاح (أسن).

(٢) السبعة ص٦٠٠، والتيسير ص٢٠٠.

(٣) الوسيط ٤/ ١٢٢.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨١ بنحوه. وترنّق، أي: تكدَّر.

(٥) الصحاح (لذذ).

(٦) تهذيب اللغة ٢/ ٩٣.

(٧) سنن الترمذي (٢٥٧١)، وهو في مسند أحمد (٢٠٠٥٢).

(٨) برقم (٢٨٣٩)، وسلف ١٦/ ٢٩.

الجنة، ونهر الفرات نهرُ لبنِهم، ونهر مصرَ نهرُ خمرِهم، ونهر سَيْحان نهرُ عسلِهم. وهذه الأنهار الأربعةُ تخرج من نهر الكوثر(١).

والعسل: يذكَّر ويؤنث. وقال ابن عباس: «مِن عَسَلٍ مُصَفًّى» أي: لم يخرج من بطون النَّحل(٢).

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ «مِن» زائدة للتأكيد.

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: لذنوبهم. ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ قال الفرّاء: المعنى أفمن يخلد في هذا النَّعيم كمن يخلد في النَّار(٣). وقال الزجَّاج(٤): أي: أفمن كان على بيِّنة من ربِّه وأعطي هذه الأشياءَ كمن زُيِّن له سوءُ عمله وهو خالد في النار؟!

فقوله: «كَمَنْ» بدل من قوله: «أفَمَنْ زُيِّن لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ». وقال ابن كَيْسان: مَثَلُ هذه الجنة التي فيها الثمار والأنهار كَمَثَلِ النار التي فيها الحميم والزقُّوم. ومَثَلُ أهل الجنة في النعيم المقيم كَمَثَلِ أهل النار في العذاب المقيم.

﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾ أي: حارًّا شديدَ الغليان، إذا أُدْني(٥) منهم شَوَى وجوهَهم، ووقعت فروةُ رؤوسهم، فإذا شربوه قطَّع أمعاءَهم وأخرجها من دبورهم. والأمعاء: جمع مِعًى، والتثنية مِعْيان، وهو جميعُ ما في البطن من الحوايا(٦).

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أي: من هؤلاء الذين يتمتعون ويأكلون كما

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٨١.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٤ دون نسبة.

(٣) زاد المسير ٧/ ٤٠١.

(٤) في معاني القرآن له ٥/ ١٠.

(٥) في النسخ الخطية: دنى، والمثبت من (م).

(٦) تفسير البغوي ٤/ ١٨١.

تأكل الأنعام، وُزيِّن لهم سوءُ عملهم، قومٌ يستمعون إليك. وهم المنافقون: عبدُ الله ابن أُبيّ ابن سَلُول، ورفاعةُ بن التابوت، وزيدُ بن الصليت، والحارثُ بن عمرو، ومالكُ بن دُخْشم، كانوا يحضرون الخطبةَ يوم الجمعة، فإذا سمعوا ذكرَ المنافقين فيها أعرضوا عنه، فإذا خرجوا سألوا عنه. قاله الكلبي ومقاتل. وقيل: كانوا يحضرون عندَ رسول الله ﷺ مع المؤمنين، فيستمعون منه ما يقول، فيَعيه المؤمن ولا يعيه الكافر[١]. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ﴾ أي: إذا فارقوا مجلسَك. ﴿قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ قال عكرمة: هو عبدُ الله بن العباس[٢]. قال ابن عباس: كنت ممن يُسأل[٣]، أي: كنت من الذين أوتوا العلم.

وفي رواية عن ابن عباس: أنه يريد عبدَ الله بن مسعود[٤]. وكذا قال عبد الله بن بريدة: هو عبد الله بن مسعود. وقال القاسم بن عبد الرحمن: هو أبو الدرداء. وقال ابن زيد: إنهم الصحابة[٥].

﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ أي: الآن؛ على جهة الاستهزاء، أي: أنَّا لم نلتفت[٦] إلى قوله. و«آنِفاً» يراد به الساعة التي هي أقربُ الأوقات إليك[٧]، من قولك: استأنفت الشيء: إذا ابتدأتَ به. ومنه أمْرٌ أنُف، ورَوضة أنُف؛ أي: لم يرْعها أحد[٨]. وكأس أنُف: إذا لم يُشرب منها شيء، كأنَّه استؤنف شربُها، مثل روضة أنف[٩].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٩٧ وفيه: «ولا يعيه المنافق» بدل «ولا يعيه الكافر».

(٢) المصدر السابق.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٨١، والكشاف ٣/ ٥٣٤، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ٢٠٤، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٥٧.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨١، والمحرر الوجيز ٥/ ١١٥ دون ذكر أنه رواية عن ابن عباس.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٩٨.

(٦) في النسخ عدا (د) و(ظ): ألتفت.

(٧) قوله: «إليك» من (م).

(٨) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٧٥ بنحوه.

(٩) الصحاح (أنف).

قال الشاعر:

وَيَحْرُم سِرُّ جارتهم عليهم ويأكل جارُهم أُنُفَ القِصاعِ[(١)]

وقال آخر:

إنّ الشِّواء والنَّشِيلَ والرُّغُفْ والقَيْنَةَ الحسناءَ والكأسَ الأُنُفْ

للطاعنين الخيلَ والخيلُ خُنُفْ[(٢)]

وقال امرؤ القيس:

قد غَدَا يحملُني في أَنْفِهِ[(٣)]

أي: في أوّله. وأَنْفُ كلِّ شيء أوّله.

وقال قتادة في هؤلاء المنافقين: الناس رجلان: رجلٌ عَقَل عن الله فانتفع بما سمع، ورجلٌ لم يعقلْ ولم ينتفعْ بما سمع. وكان يقال: الناس ثلاثة: فسامعٌ عامل، وسامعٌ عاقل، وسامعٌ غافل تارك[(٤)].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فلم يؤمنوا. ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ في الكفر. ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ﴾ أي: للإيمان؛ زادهم الله هدًى. وقيل: زادهم النبيّ ﷺ هدى[(٥)].

---

(١) البيت للحطيئة، وقوله: أُنُف القصاع، يعني جيد الطعام وصفوته، وسلف البيت ٤/ ١٤٩.

(٢) الرجز للقيط بن زرارة كما في الكامل ٢/ ٨٨٧. وهو أيضاً في الشعر والشعراء ٢/ ٧١١، وفيه: قُطُف، بدل: خُنُف. والخنف جمع خَنُوف، وهي الدابة إذا مالت بيديها في أحد شقيها من النشاط. اللسان (خنف).

ووقع في (خ) وهو حاشية في (ق) ما نصه: النشيل لحم يطبخ بلا توابل، والرُّغف جمع رغيف، ويقال: أرغفة ورغفان. اهـ. والكلام في الصحاح (نشل).

(٣) ديوان امرئ القيس ص١٤٦، وعجز البيت: لاحقُ الإطلَين محبوكٌ مُمَرّ، قال شارحه: يحملني في أنفه أي: في أول هذه المطْرة، وأنف كل شيء: أوله، لاحق الإطلين: يعني فرساً ضامر الكَشْحين، والمحبوك: المدمج الخَلْق الشديد، والممر نحوه في المعنى.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ٢٠٣.

(٥) تفسير الرازي ٢٨/ ٥٩ بنحوه.

وقيل: ما يستمعونه من القرآن هدًى، أي: يتضاعف يقينُهم. وقال الفرّاء[١]: زادهم إعراضُ المنافقين واستهزاؤهم هدًى. وقيل: زادهم نزولُ الناسخ هدًى.

وفي الهدى الذي زادهم أربعةُ أقاويل: أحدها: زادهم علماً. قاله الربيع بن أنس. الثاني: أنَّهم علموا ما سمعوا وعملوا بما علموا. قاله الضحاك. الثالث: زادهم بصيرة في دينهم وتصديقاً لنبيِّهم. قاله الكلبيّ. الرابع: شرح صدورَهم بما هم عليه من الإيمان[٢].

﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ أي: ألهمهم إياها[٣]. وقيل فيه خمسة أوجه: أحدها: آتاهم الخشيةَ. قاله الربيع. الثاني: ثوابَ تقواهم في الآخرة. قاله السدّي. الثالث: وفَّقهم للعمل الذي فرض عليهم. قاله مقاتل. الرابع: بيَّن لهم ما يتقون. قاله ابن زياد والسدّيّ أيضاً. الخامس: أنه تركُ المنسوخ والعملُ بالناسخ. قاله عطية. الماوردي[٤]. ويحتمل سادساً: أنه تركُ الرُّخَص والأخذُ بالعزائم[٥].

وقرئ: «وَأَعْطَاهُمْ» بدل: «وآتاهُمْ»[٦]. وقال عكرمة: هذه نزلت فيمن آمن من أهل الكتاب[٧].

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي: فجأةً. وهذا وعيد

(١) في معاني القرآن له ٣/ ٦١ بنحوه، ونقله المصنف عنه بواسطة النكت والعيون ٥/ ٢٩٨ وما قبله منه.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٩٨ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١١ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٩٨ وما قبله منه دون قول السدي: بيَّن لهم ما يتقون، وهو في الكشاف ٣/ ٥٣٤ .

(٥) مجمع البيان ٢٦/ ٣٨ .

(٦) الكشاف ٣/ ٥٣٤ .

(٧) زاد المسير ٧/ ٤٠٣ .

للكفار. ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَاۚ﴾ أي: أماراتها وعلاماتها[١]. وكانوا قد قرؤوا في كتبهم أنَّ محمداً ﷺ آخر الأنبياء، فَبَعْثُه من أشراطها وأدلتها. قاله الضحاك والحسن[٢].

وفي الصحيح عن أنس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «بعثت أنا والساعةَ كهاتين» وضمّ السبابة والوسطى، لفظ مسلم: وخرّجه البخاريّ والترمذيّ وابن ماجه[٣].

ويروى: «بعثتُ والساعةَ كَفَرَسَي رِهان»[٤]. وقيل: أشراطُ الساعة: أسبابُها التي هي دون معظمها، ومنه يقال للدُّون من النَّاس: الشَّرَط[٥].

وقيل: يعني علامات الساعة؛ انشقاق القمر، والدخان، قاله الحسن أيضاً[٦].

وعن الكلبي: كثرةُ المال، والتجارة، وشهادة الزور، وقطع الأرحام، وقلةُ الكرام، وكثرة اللئام[٧]. وقد أتينا على هذا الباب في كتاب «التذكرة» مستوفىً والحمد لله[٨].

وواحد الأشراط شَرَط، وأصله الأعلام. ومنه قيل: الشُّرَط؛ لأنَّهم جعلوا لأنفسهم علامةً يعرفون بها، ومنه الشَّرْط في البيع وغيره[٩].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٨٢.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٩٩ بنحوه عند الضحاك.

(٣) صحيح مسلم (٢٩٥١): (١٣٥)، وصحيح البخاري (٦٥٠٤)، وسنن الترمذي (٢٢١٤) وهو في مسند أحمد (١٢٢٤٥) من حديث أنس ﷺ، وأخرجه البخاري (٦٥٠٥)، وابن ماجه (٤٠٤٠) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أحمد (١٤٤٣١)، وابن ماجه (٤٥) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. وسلف حديث أنس ﷺ ١٢/ ٢٦٨.

(٤) أخرجه أحمد (٢٢٨٠٩)، والبيهقي في الشعب (١٠٢٣٧)، وأبو الشيخ في الأمثال (٣٤٧) من حديث سهل بن سعد ﷺ. قوله: كفرسي رهان: أي: يتسابقان إلى غاية. النهاية (فرس).

(٥) تهذيب اللغة ١١/ ٣٠٩.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٩٩ دون ذكر الدخان.

(٧) الكشاف ٣/ ٣٥٣.

(٨) ص٦٢٤ فما بعدها.

(٩) تهذيب اللغة ١١/ ٣٠٨-٣٠٩.

قال أبو الأسود:

فإن كنتَ قد أزْمَعْتَ بالصَّرْم بيننا فقد جَعَلَتْ أشراطُ أوّله تبدو[(١)]

ويقال: أشرطَ فلان نفسه في عمل كذا أي: أعلمها وجعلها له. قال أوس بن حجر يصف رجلاً تدلّى بحبل من رأس جبل إلى نَبْعة ليقطعها يَتخذ[(٢)] منها قوسًا:

فأشْرَطَ فيها نفسَه[(٣)] وهو مُعْصِمٌ وألقى بأسبابٍ له وَتَوَكَّلا[(٤)]

﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ «أنْ» بدل اشتمال من «الساعة»، نحو قوله: ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ من قوله: ﴿رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ﴾.

وقرئ: «بَغَتَّةً» بوزن جَرَبَّة[(٥)]، وهي غريبة لم ترد في المصادر أختُها، وهي مَرْوِية عن أبي عمرو. الزمخشري[(٦)]: وما أخوفني أن تكون غلطةً من الراوي عن أبي عمرو، وأن يكون الصواب «بَغَتة» بفتح الغين من غير تشديد، كقراءة الحسن.

وروى أبو جعفر الرؤاسي وغيره من أهل مكة: «إن تَأْتِهِمْ بَغْتَةً»[(٧)].

قال المهدويّ: ومن قرأ: «إن تَأْتِهِمْ بَغْتَةً» كان الوقف على «السَّاعَة»، ثمَّ استأنف الشرط. وما يحتمله الكلام من الشكِّ مردودٌ إلى الخلق، كأنه قال: إن شكُّوا في مجيئها «فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا».

قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ «ذِكْرَاهُمْ» ابتداء، و«أَنَّى لَهُمْ» الخبر. والضمير المرفوع في «جَاءَتْهُمْ» للساعة؛ التقدير: فمن أين لهم التذكُّر إذا جاءتهم

(١) البيت في الأغاني ١٢/ ٣٣٤، والكشاف ٣/ ٥٣٥. الصَّرْم: الهجران اللسان (صرم). وهي أبيات قالها في أبي الجارود الشاعر وكان قد هجره كما في الأغاني.

(٢) في (م): يقطعها ليتخذ.

(٣) في النسخ: نفسه فيها، والمثبت من جمهرة اللغة (رشط) ـ والكلام فيه بنحوه، ومما سلف ٥/ ٢٣٧.

(٤) جاء في (خ) و(ز) بعد البيت ـ وهو في حاشية (ق) ـ ما نصه: النبع شجرٌ يتخذ منه القسيّ، الواحدة: نبعة، ويتخذ من أغصانها السهام. اهـ. وهذا الكلام في الصحاح (نبع).

(٥) أي: جماعة الحُمُر. اللسان (جرب).

(٦) في الكشاف ٣/ ٥٣٥ وما قبله منه، والقراءة أيضاً في المحرر الوجيز ٥/ ١١٦، والمحتسب ٢/ ٢٧١.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ١١٦، والقراءة في المحتسب ٢/ ٢٧٠، ووقع في النسخ عدا (م) و(ق) تأتيهم.

الساعة. قال معناه قتادة وغيره(١).

وقيل: فكيف لهم بالنجاة إذا جاءتهم الذكرى عند مجيء الساعة! قاله ابن زيد(٢).

وفي الذكرى وجهان: أحدهما: تذكيرُهم بما عملوه من خير أو شرّ. الثاني: هو دعاؤهم بأسمائهم تبشيراً وتخويفاً، روى أبان عن أنس، عن النبيّ ﷺ قال: «أحسنوا أسماءَكم، فإنكم تُدْعَون بها يوم القيامة: يا فلانُ قُمْ إلى نُورِك، يا فلانُ قُم لا نُور لك» ذكره الماوَرْدِي(٣).

قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ قال الماوردي(٤): وفيه ـ وإن كان الرسول عالماً بالله ـ ثلاثة أوجه: يعني اِعلم أنَّ الله أعلمك أن لا إله إلا الله. الثاني: ما علمتَه استدلالاً فاعلمْه خبراً يقيناً. الثالث: يعني فاذكر أن لا إله إلا الله، فعبّر عن الذكر بالعلم لحدوثه عنه.

وعن سفيان بن عيينة أنه سئل عن فضْل العلم فقال: ألم تسمع قولَه حين بدأ به ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ فأمر بالعمل بعد العلم وقال: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾ إلى قوله: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الحديد: ٢٠-٢١] وقال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ [الأنفال: ٢٨]. ثم قال بعد: ﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾(٥). وقال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال: ٤١]. ثم أمر

---

(١) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٧٣ دون نسبة، وذكر معنى قول قتادة أبو الليث في تفسيره ٣/ ٢٤٣، والواحدي في الوسيط ٤/ ١٢٤.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٩٩.

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٢٩٩-٣٠٠، وذكره الديلمي في الفردوس ١/ ٩٨، وسلف ١٣/ ١٠١ بنحوه عن أبي الدرداء وإسناده منقطع.

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٣٠٠.

(٥) كذا وقع في النسخ، والكشاف ٣/ ٥٣٥، والكلام منه، ولعله يريد الآية (١٤) من التغابن: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾.

بالعمل بعد.

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: يعني استغفر الله إنْ يقع منك ذنب. الثاني: استغفر الله ليعصمَك من الذنوب[١].

وقيل: لما ذكر له حالَ الكافرين والمؤمنين، أمره بالثبات على الإيمان، أي: اثبُتْ على ما أنت عليه من التوحيد والإخلاص والحذَر عما تحتاج معه إلى استغفار[٢].

وقيل: الخطابُ له، والمرادُ به الأمة، وعلى هذا القول توجب الآيةُ استغفارَ الإنسان لجميع المسلمين[٣].

وقيل: كان عليه الصلاة والسلام يضيق صدرُه من كفر الكفار والمنافقين؛ فنزلت الآية. أي: فاعلم أنَّه لا كاشفَ يكشف ما بك إلا الله؛ فلا تعلِّق قلبَك بأحد سواه.

وقيل: أمر بالاستغفار لتقتديَ به الأمة[٤]. ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: ولذنوبهم. وهذا أمرٌ بالشفاعة[٥].

وروى مسلم عن عاصم الأحول، عن عبد الله بن سَرْجِس المخزوميّ قال: أتيت النبيَّ ﷺ وأكلتُ من طعامه فقلت: يا رسول الله، غفر الله لك! فقال له صاحبي: هل استغفر لك النبي ﷺ؟ قال: نعم، ولك. ثمَّ تلا هذه الآية: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ثم تحوّلت فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه، جُمعٌ[٦]؛ خِيلانٌ كأنه الثآليل[٧].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٠٠ .

(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٥ بنحوه.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١١٦ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٢ بنحوه.

(٥) الوسيط ٤/ ١٢٥ .

(٦) كذا في (خ) و(د) و(ز) و(ف) و(ق)، وفي (ظ): جميع، وهي نسخة كما ذكر النووي في شرحه على صحيح مسلم ١٥/ ٩٩ . ووقع في (م): جمعاً.

(٧) صحيح مسلم (٢٣٤٦) بنحوه وما بين حاصرتين منه، وأخرجه أيضاً بنحوه أحمد (٢٠٧٧٨). قوله: =

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: يعلم أعمالكم في تصرفكم وإقامتكم[١]. الثاني: «مُتَقَلَّبَكُمْ» في أعمالكم نهاراً «وَمَثْوَاكُمْ» في ليلكم نياماً[٢].

وقيل: «مُتَقَلَّبَكُمْ» في الدنيا. «وَمَثْوَاكُمْ» في الدنيا والآخرة. قاله ابن عباس والضحاك. وقال عكرمة: «مُتَقَلَّبَكُمْ» في أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات. «وَمَثْوَاكُمْ»: مُقامكم في الأرض. وقال ابن كَيْسان: «مُتَقَلَّبَكُمْ» من ظهر إلى بطن إلى الدنيا. «وَمَثْوَاكُمْ» في القبور[٣].

قلت: والعموم يأتي على هذا كلِّه، فلا يخفى عليه سبحانه شيءٌ من حركات بني آدمَ وسَكَناتهم، وكذا جميع خلقه. فهو عالم بجميع ذلك قبلَ كونه؛ جملةً وتفصيلاً؛ أُولَى وأُخرَى. سبحانه، لا إله إلا هو.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: المؤمنون المخلصون. ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ اشتياقاً للوَحْي وحرصاً على الجهاد وثوابه. ومعنى «لَوْلَا» هلا[٤]. ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ لا نسخ فيها. قال قتادة: كلُّ سورة ذكر فيها الجهاد فهي مُحْكمة، وهي أشدُّ

= جمع؛ يريد مثل جُمع الكف؛ وهو أن يجمع الأصابع ويضمها. خيلانٌ: جمع خال؛ وهو الشامة في الجسد. الثآليل: جمع ثؤلول: وهو هذه الحبة التي تظهر في الجلد كالحِمّصة فما دونها. النهاية (جمع) (خيل) (ثأل).

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٢ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٠٠ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٨٣ .

(٤) زاد المسير ٧/ ٤٠٥ .

القرآن على المنافقين[١]. وفي قراءة عبد الله: «فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْدَثَةٌ»[٢]، أي: محدَثةُ النزول. ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ أي: فُرض فيها الجهاد[٣].

وقرئ: «فَإِذَا نَزَلَتْ[٤] سُورَةٌ، وَذَكَرَ فِيهَا القِتَالَ» على البناء للفاعل ونصب القتال. ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شكٌّ ونفاق[٥]. ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: نظر مغمومين[٦] مغتاظين بتحديد وتحديق، كمن يشخص بصرَه عند الموت؛ وذلك لجبنهم عن القتال جزعاً وهَلَعاً[٧]، ولميلهم في السرّ إلى الكفار.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ . طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ «فأوْلَى لَهُمْ» قال الجوهريّ[٨]: وقولهم: أوْلَى لَكَ، تهديد ووعيد. قال الشاعر:

فأوْلَى ثمّ أوْلَى ثمّ أوْلَى وهل لِلدَّرِّ يُحْلَبُ من مَرَدِّ

قال الأصمعي: معناه قارَبَه ما يُهْلكه؛ أي: نزل به. وأنشد:

فعادَى بين هادِيَتَيْنِ منها وأوْلَى أن يزيدَ على الثلاثِ[٩]

أي: قارب أن يزيد. قال ثعلب: ولم يقل أحد في «أوْلَى» أحسنَ مما قال الأصمعي[١٠].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٨٣، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ٢١٠.
(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٠٠، والكشاف ٣/ ٥٣٥.
(٣) زاد المسير ٧/ ٤٠٥.
(٤) في (م) و(خ): أنزلت، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الكشاف ٣/ ٥٣٥ والكلام منه.
(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٤٤.
(٦) في (م) و(خ): مغموصين، والمثبت من باقي النسخ.
(٧) تأويل مشكل القرآن ص٣٥٢، والكشاف ٣/ ٥٣٥ بنحوه.
(٨) في الصحاح (ولى)، والبيت الآتي لعبد الله بن الزبير الأسدي كما في الأغاني ١٤/ ٢٣٧.
(٩) البيت أيضاً في خزانة الأدب ٩/ ٣٤٥ قال البغدادي: قال ابن عقيل: عادى؛ من العِداء، وهو الموالاة بين الصيدين بصرع أحدهما على إثر الآخر في طلق واحد، والهادية: أوَّل الوحش.
(١٠) الصحاح (ولى)، وتهذيب اللغة ١٥/ ٤٤٨.

وقال المُبَرِّد: يقال لمن هَمَّ بالعَطَب[١] ثم أفْلَت: أوْلى لك؛ أي: قاربت العطب[٢].

كما رُوِي أنَّ أعرابيًّا كان يوالي رَميَ الصيد، فيُفْلِت منه فيقول: أوْلى لك. ثمَّ رمى صيداً فَقاربه ثمَّ أفلت منه فقال:

فلو كان «أوْلَى» يُطعِم القومَ صِدْتُهم ولكنّ «أوْلَى» يَتْرُكُ القومَ جُوَّعا[٣]

وقيل: هو كقول الرجل لصاحبه: يا محروم، أيُّ شيء فاتك[٤]؟

وقال الجُرْجَانيْ: هو مأخوذ من الويل، فهو أفعل، ولكن فيه قلب؛ وهو أنَّ عينَ الفعل وقع موقع اللام. وقد تمَّ الكلام على قوله: «فأَوْلَى لَهُمْ».

قال قتادة: كأنه قال: العِقاب أوْلَى لهم[٥]. وقيل: أي: وَلِيَهم المكروه[٦].

ثم قال: «طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ» أي: طاعة وقول معروف أمثل وأحسن، وهو مذهب سيبويه والخليل.

وقيل: إنَّ التقدير: أمرنا طاعة وقول معروف[٧]؛ فحذف المبتدأ، فيوقف على «فأوْلَى لَهُمْ». وكذا من قدّر: يقولون مِنَّا طاعة[٨]، وهي قراءة أُبيّ: «يقولون طاعة»[٩].

---

(١) في (ظ): همَّ بالغضب.

(٢) في (ظ): قاربت الغضب.

(٣) في (د) و(ظ) و(ق) صيدهم، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٧٩ والكلام منه، والبيت أيضاً في الكامل ٣/ ١٤١٦، والخزانة ٩/ ٣٤٦. قال البغدادي: هو بيت لرجل يقتنص الصيد، فإذا أفلته الصيد قال: أولى لك. اهـ. وقوله: صدتُهم، أي: صدتُ لهم، قال في اللسان: صدت فلاناً صيداً: إذا صدتَه له. اللسان (صيد).

(٤) تهذيب اللغة ١٥/ ٤٤٨.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٠١.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٤٤.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٨٧.

(٨) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٧٤.

(٩) قوله: وهي قراءة أُبيّ... الخ، وقع في (ظ) في هذا الموضع، وهو الصواب، ووقع في باقي النسخ =

وقيل: إن الآية الثانية متصلةٌ بالأولى. واللام في قوله: «لَهُم» بمعنى الباء[١]؛ أي: الطاعة أولى وأليقُ بهم، وأحقُّ لهم من ترك امتثال أمر الله.

وقيل إن: «طَاعَةٌ» نعت لـ «سورة»؛ على تقدير: فإذا أنزلت سورة ذاتُ طاعة. فلا يوقف على هذا على «فَأَوْلَى لَهُمْ»[٢].

قال ابن عباس: إن قولهم: «طَاعَةٌ» إخبارٌ من الله عزَّ وجلَّ عن المنافقين. والمعنى: لهم طاعةٌ وقولٌ معروف، قيل: وجوب الفرائض عليهم، فإذا أنزلت الفرائض شقَّ عليهم نزولُها. فيوقف على هذا على «فَأَوْلَى».

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: جدّ القتال، أو وجب فرض القتال[٣]، كرهوه. فكرهوه جواب «إذا» وهو محذوف.

وقيل: المعنى فإذا عزم أصحاب الأمر[٤]. ﴿فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: في الإيمان والجهاد[٥]. ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من المعصية والمخالفة.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ اختلف في معنى «إن تَوَلَّيْتُمْ» فقيل: هو من الولاية.

= بعد قوله: «وأحقُّ لهم من ترك امتثال أمر الله». الآتي. وهي في الكشاف ٣/ ٥٣٦ ، والرازي ٢٨/ ٦٣ .

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٨٣ .

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٧٤ . وقال مكي: القولان الأولان أبين وأشهر.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٣ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٨٣ بنحوه.

(٤) الكشاف ٣/ ٥٣٦ ، وتفسير الرازي ٢٨/ ٦٣ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٨١ .

قال أبو العالية: المعنى فهل عسيتم إن تولَّيتم الحكمَ فجُعِلتم حكّاماً أن تفسدوا في الأرض بأخذ الرُّشَا. وقال الكلبيّ: أي: فهل عسيتم إن تولَّيتم أمرَ الأمة أن تفسدوا في الأرض بالظلم. وقال ابن جريج: المعنى: فهل عسيتم إن تولَّيتم عن الطاعة أن تفسدوا في الأرض بالمعاصي وقطعِ الأرحام[١].

وقال كعب: المعنى: فهل عسيتم إن تولَّيتم الأمرَ أن يقتلَ بعضُكم بعضاً[٢].

وقيل: من الإعراض عن الشيء.

قال قتادة: أي: فهل عسيتم إن تولَّيتم عن كتاب الله أن تفسدوا في الأرض بسفك الدماء الحرام، وتقطعوا أرحامَكم[٣].

وقيل: «فَهَلْ عَسَيْتُمْ» أي: فلعلكم إن أعرضتم عن القرآن وفارقتم أحكامَه، أن تفسدوا في الأرض فتعودوا إلى جاهليتكم[٤].

وقرىء بفتح السين وكسرها[٥]. وقد مضى في «البقرة» القول فيه مستوفًى[٦].

وقال بكر المزني: إنَّها نزلت في الحَرُوريّة والخوارج. وفيه بُعدٌ، والأظهر أنه إنما عُني بها المنافقون. وقال ابن حيان: قريش[٧].

ونحوه قال المسيّب بن شريك والفرّاء، قالا: نزلت في بني أمية وبني هاشم[٨]، ودليل هذا التأويل ما روى عبدُ الله بن مُغَفّل قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: ﴿فَهَلْ

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٠١ - ٣٠٢.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٨٢.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٠٢.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٣.

(٥) قرأ نافع بكسر السين، والباقون بالفتح. السبعة ص١٨٦، والتيسير ص٨١.

(٦) ٤/ ٢٢٩.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٠٢ دون ذكر الحرورية، وذكر أنها في الحرورية النحاس في معاني القرآن له ٦/ ٤٨٢.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ١٨٤.

عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ثمَّ قال: «هم هذا الحيّ من قريش؛ أخذ الله عليهم إن وَلُوا الناسَ ألّا يفسدوا في الأرض ولا يقطّعوا أرحامَهم»[١].

وقرأ عليّ بن أبي طالب: «إِن تُوُلِّيْتُم أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ» بضم التاء والواو وكسر اللام[٢]. وهي قراءة ابن أبي إسحاق، ورواها رُوَيس عن يعقوب[٣].

يقول: إن وليتُكم ولاةً جائرةً، خرجتم معهم في الفتنة وحاربتموهم[٤]. ﴿وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ بالبغي والظلم والقتل[٥].

وقرأ يعقوب وسلام وعيسى وأبو حاتم: «وتَقْطَعُوا»[٦] بفتح التاء وتخفيف القاف، من القطع؛ اعتباراً بقوله تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [البقرة:٢٧]. وروى هذه القراءةَ هارونُ عن أبي عمرو[٧]. وقرأ الحسن: «وَتَقَطَّعُوا» مفتوحةَ الحروف مشدّدة[٨]؛ اعتباراً بقوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ [الأنبياء:٩٣]. الباقون: «وتُقَطِّعُوا» بضم التاء مشدّدة الطاء، من التقطيع على التكثير، وهو اختيار أبي عبيد. وتقدّم ذكر «عَسَيْتُمْ» في «البقرة»[٩].

وقال الزجاج[١٠] في قراءة نافع: لو جاز هذا لجاز «عَسِي» بالكسر.

قال الجوهري[١١]: ويقال عَسَيت أن أفعل ذلك، وعَسِيت بالكسر. وقرىء: «فَهَلْ عَسِيْتُمْ» بالكسر.

---

(١) أخرجه الطبري في تهذيبه كما في فتح الباري ٨/ ٥٨١ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٨٤ ، والقراءة في القراءات الشاذة ص١٤٠ ، والمحتسب ٢/ ٢٧٢ .

(٣) النشر ٢/ ٣٧٤ ، وهي من العشرة.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٤ .

(٥) الوسيط ٤/ ١٢٧ .

(٦) قراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٧٤ ، وهي من العشرة، وقراءة سلام في القراءات الشاذة ص١٤٠ .

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ١١٨ دون ذكر هارون.

(٨) البحر المحيط ٨/ ٨٢ .

(٩) ٤/ ٢٢٩ .

(١٠) في معاني القرآن له ٥/ ١٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٨٧ .

(١١) في الصحاح (عسا).

قلت: ويدل قوله هذا على أنّهما لغتان. وقد مضى القول فيه في «البقرة» مستوفًى[١].

﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: طردَهم وأبعدَهم من رحمته[٢] ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن الحقّ ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ أي: قلوبَهم عن الخير. فأتبع الأخبارَ بأنّ مَن فعل ذلك حقّت عليه لعنته، وسلبه الانتفاعَ بسمعه وبصره حتى لا ينقاد للحق وإن سمعه، فجعله كالبهيمة التي لا تعقل. وقال: «فَهَلْ عَسَيْتُمْ» ثم قال: «أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ» فرجع من الخطاب إلى الغَيبة على عادة العرب في ذلك.

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: يتفهمونه فيعلمون ما أعدّ الله للذين لم يتولّوا غير[٣] الإسلام. ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ أي: بل على قلوب أقفالٌ أقفلَها الله عزَّ وجلَّ عليهم فهم لا يعقلون[٤]. وهذا يردّ على القدرية والإمامية مذهبَهم.

وفي حديث مرفوع أنّ النبيّ ﷺ قال: «إنَّ عليها أقفالاً كأقفالِ الحديد حتى يكون اللهُ يفتحها»[٥]. وأصل القَفْل: اليُبْس والصلابة.

ويقال لما يبس من الشجر: القَفْل. والقفيل مثله. والقَفِيل أيضاً: نبت. والقفيل: السوط[٦]. قال الراجز:

---

(١) ٤/ ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٤٥ .

(٣) في (م): عن.

(٤) تفسير الطبري ٢١/ ٢١٥ .

(٥) كذا ذكر المصنف رحمه الله، والذي أخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ٢١٧ ، والواحدي في الوسيط ٤/ ١٢٧ ، والبغوي ٤/ ١٨٤ ، من حديث هشام بن عروة، عن أبيه. قال: تلا رسول الله ﷺ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ فقال شابٌّ من أهل اليمن: بل على قلوب أقفالها حتى يكون الله يفتحها أو يفرِّجها. واللفظ للبغوي.

(٦) في (م) و(د) و(ز) و(ق): الصوت، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الصحاح والكلام منه.

لـمّـا أتـاك يـابـسـاً قِـرْشـبّـاً قـمـتَ إلـيـه بـالـقَـفِـيـل ضـربـا
كـيـف قَـرَيْـتَ شَـيْـخَـك الأزَبّـا[(١)]

القِرشَبُّ؛ بكسر القاف: المُسِنّ؛ عن الأصمعي. وأقفله الصوم، أي: أيبسه. قاله القشيريّ والجوهري[(٢)]. فالأقفال هاهنا إشارة إلى ارتتاج القلب وخلوّه عن الإيمان. أي: لا يدخل قلوبَهم الإيمانُ ولا يخرج منها الكفر؛ لأنَّ الله تعالى طبع على قلوبهم وقال: «عَلَى قُلُوبٍ» لأنَّه لو قال: على قلوبهم، لم يدخل قلبُ غيرهم في هذه الجملة. والمراد: أم على قلوب هؤلاء وقلوبِ من كانوا بهذه الصفة أقفالُها.

الثالثة: في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله خلقَ الخلْقَ، حتى إذا فرغ منهم، قامت الرَّحِم فقالت: هذا مَقامُ العائذ بك من القطيعة. قال: نَعَمْ: أما ترضَين أنْ أصِلَ من وصَلَكِ وأقطعَ من قطعكِ؟ قالت: بلى. قال: فذاك لكِ - ثمَّ قال رسولُ الله ﷺ - اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ . أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ . أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[(٣)]

وظاهر الآية أنَّها خطاب لجميع الكفار. وقال قتادة وغيره: معنى الآية فلعلَّكم، أو يخاف عليكم، إن أعرضتم عن الإيمانِ أن تعودوا إلى الفساد في الأرض بسفك[(٤)] الدماء[(٥)].

قال قتادة: كيف رأيتم القوم حين تَوَلَّوْا عن كتاب الله تعالى! ألم يسفكوا الدماءَ

---

(١) الصحاح (قفل) (قرشب)، ونسب الرجزَ في اللسان (قفل) لأبي محمد الفقعسي، وهو أيضاً في الأصمعيات ص١٦٣ دون نسبة وباختلاف في ترتيبه، وفيه: (يائساً) بدل (يابساً)، و(ضيفك) بدل (شيخك). قوله: الأزبّ، أي: كثير شعر الذراعين والحاجبين والعينين. اللسان (زبب).

(٢) في الصحاح (قرشب) دون قوله: وأقفله الصوم أي: أيبسه. وهو في تهذيب اللغة ٩/ ١٦١ .

(٣) صحيح مسلم (٢٥٥٤)، وأخرجه أحمد (٨٣٦٧)، والبخاري (٤٨٣٠).

(٤) في (م) لسفك.

(٥) المفهم ٦/ ٥٢٦ .

الحرام ويقطعوا الأرحامَ وعصَوُا الرَّحمن(١).

فالرَّحِم على هذا رَحِمُ دين الإسلام والإيمان، التي قد سمَّاها الله أُخُوَّة بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وعلى قول الفرّاء: إنَّ الآية نزلت في بني هاشم وبني أمية(٢)، والمراد: مَن أضمر منهم نفاقاً؛ فأشار بقطع الرحِم إلى ما كان بينهم وبين النبيّ ﷺ من القرابة بتكذيبهم النبيّ ﷺ. وذلك يوجب القتال.

وبالجملة؛ فالرحمُ على وجهين: عامَّة وخاصَّة. فالعامَّة رحِم الدين، ويجب مواصلتُها بملازمة الإيمان، والمحبةِ لأهله ونُصرتِهم، والنصيحةِ وتركِ مضارتهم، والعدل بينهم، والنَّصَفة في معاملتهم، والقيام بحقوقهم الواجبة؛ كتمريض المرضى، وحقوق الموتى مِن غسلهم، والصلاةِ عليهم ودفنهم، وغير ذلك من [الحقوق] المترتبة لهم.

وأما الرَّحم الخاصَّة ـ وهي رحمُ القرابة من طرفي الرجل أبيه وأمه ـ فتجب لهم الحقوقُ العامة(٣) وزيادة؛ كالنفقة، وتفقد أحوالهم، وترك التغافل عن تعاهدهم في أوقات ضروراتهم؛ وتتأكد في حقِّهم حقوقُ الرحم العامةِ، حتى إذا تزاحمت الحقوقُ بدئ بالأقرب فالأقرب.

وقال بعض أهل العلم: إنَّ الرَّحم التي تجب صلتُها هي كلُّ رَحِم مَحْرَم، وعليه فلا تجب في بني الأعمام وبني الأخوال. وقيل: بل هذا في كلِّ رحم ممن ينطلق عليه ذلك من ذوي الأرحام في المواريث، مَحْرَماً كان أو غير مَحْرَم. فيخرج من هذا أنَّ رحمَ الأمِّ التي لا يُتوارث بها لا تجب صلتُهم ولا يحرم قطعُهم. وهذا ليس بصحيح، والصواب أنَّ كلَّ ما يشمله ويعمُّه الرحم تجب صلته على كل حال، قربةً ودينية؛ على ما ذكرناه أولاً، والله أعلم(٤).

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٨٤ . وفيه: الدم الحرام، وقطَّعوا. . .

(٢) المفهم ٦/ ٥٢٦ .

(٣) في (م) و(د) و(ز) و(ق) الخاصة، والمثبت من (خ) و(ظ)، وهو الموافق لما في المفهم والكلام منه.

(٤) المفهم ٦/ ٥٢٤ و٥٢٧ - ٥٢٨ .

وقد روى أبو داود الطيالسي في مسنده[١] قال: حدثنا شعبة قال: أخبرني محمد ابن عبد الجبار، قال: سمعت محمد بن كعب القُرَظي يحدّث عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ للرَّحم لساناً يوم القيامة تحت العرش، يقول: يا ربُّ قُطعتُ، يا ربُّ ظُلمت، يا ربُّ أُسيء إليّ، فيجيبها ربُّها: ألا تَرْضَيْن أن أصلَ مَن وصلكِ وأقطعَ مَن قطعكِ».

وفي صحيح مسلم عن جُبير بن مُطعِم، عن النبيّ ﷺ قال: «لا يدخل الجنةَ قاطع». قال ابن أبي عمر: قال سفيان: يعني قاطعَ رَحِم. ورواه البخاري[٢].

الرابعة: قوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الله تعالى خلق الخلْقَ حتى إذا فرغ منهم...» «خلق» بمعنى اخترع، وأصله التقدير، كما تقدم[٣]. والخلق هنا بمعنى المخلوق. ومنه قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ١١] أي: مخلوقه. ومعنى «فرغ منهم»: كَمَّل خلقَهم. لا أنَّه اشتغل بهم ثمَّ فرغ من شُغْله بهم؛ إذ ليس فعلُه بمباشرة ولا مناولة، ولا خَلْقُه بآلة ولا محاولة، تعالى عن ذلك[٤].

وقوله: «قامت الرّحم فقالت» يحمل على أحد وجهين:

أحدهما: أن يكونَ اللهُ تعالى أقام من يتكلم عن الرَّحم من الملائكة فيقول ذلك، وكأنّه وكَّل بهذه العبادة من يناضل عنها ويكتب ثوابَ من وصلها ووِزْر مَن قطعَها؛ كما وكَّل الله بسائر الأعمال كراماً كاتبين، وبمشاهدة أوقات الصلوات ملائكةً متعاقبين.

وثانيهما: أنَّ ذلك على جهة التقدير والتمثيل المُفْهِم للإغياء[٥] وشدّة الاعتناء.

---

(١) برقم (٢٥٤٣).

(٢) صحيح مسلم (٢٥٥٦) (١٨)، وصحيح البخاري (٥٩٨٤)، وهو في مسند أحمد (١٦٧٦٣).

(٣) ١/ ٣٤١، وسلف الحديث في المسألة قبلها.

(٤) المفهم ٦/ ٥٢٤.

(٥) في النسخ عدا (خ) للاعياء، والمثبت من (خ) وهو الموافق لما في المفهم ٦/ ٥٢٥ والكلام منه.

فكأنه قال: لو كانت الرَّحم ممن يعقل ويتكلم لقالت هذا الكلام، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ ثم قال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[(١)] [الحشر: ٢١].

وقوله: «فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة» مقصود هذا الكلام: الإخبارُ بتأكّد أمر صلة الرحم، وأن الله سبحانه قد نزّلها بمنزلة من استجار به فأجاره، وأدخله في ذمَّته وخَفارته[(٢)]. وإذا كان كذلك فجارُ الله غيرُ مخذول، وعهدُه غيرُ منقوض. ولذلك قال مخاطباً للرَّحِم: «أمَا تَرْضَيْن أن أصلَ مَن وَصَلكِ وأقطع مَن قطعكِ». وهذا كما قال عليه الصلاة والسلام: «من صلَّى الصبحَ فهو في ذمة الله تعالى، فلا يطلبنكم اللهُ من ذمَّته بشيء، فإنه من يطلبُه بذمته بشيء يدركه، ثمَّ يَكُبّه في النار على وجهه»[(٣)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾

قال قتادة: هم كفار أهل الكتاب، كفروا بالنبيّ ﷺ بعد ما عرفوا نعتَه عندهم. وقاله ابن جريج[(٤)]. وقال ابن عباس والضحاك والسدي: هم المنافقون[(٥)]، قعدوا عن القتال بعد ما علموه في القرآن.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي: زيّن لهم خطاياهم. قاله الحسن. ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: مدّ لهم الشيطان في الأمل، ووعدهم طولَ العمر؛ عن الحسن أيضاً. وقال: إنَّ الذي

---

(١) المفهم ٦/ ٥٢٤ - ٥٢٥.

(٢) الخَفارة: الأمان. اللسان (خفر).

(٣) أخرجه مسلم (٦٥٧): (٢٦٢)، وأخرجه أحمد (١٨٨١٤) مختصراً، من حديث جندب البجلي، وأخرجه أحمد (٥٨٩٨) ـ مختصراً أيضاً ـ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٠٢.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٨٤.

أملى لهم في الأمل ومدّ في آجالهم هو الله عزّ وجلّ. قاله الفرّاء والمفضل. وقال الكَلْبيّ ومقاتل: إنَّ معنى «أَمْلَى لَهُمْ»: أمهلهم؛ فعلى هذا يكون الله تعالى أمْلَى لهم بالإمهال في عذابهم(١).

وقرأ أبو عمرو وابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر وأبو جعفر وشيبة: «وَأُمْلِيَ لَهُمْ»(٢) بضم الهمزة وكسر اللام وفتح الياء؛ على ما لم يسمَّ فاعله(٣). وكذلك قرأ ابن هُرْمُز ومجاهد والجَحْدرِيُّ ويعقوب، إلا أنَّهم سكَّنوا الياء؛ على وجه الخبر من الله تعالى عن نفسه أنه يفعل ذلك بهم؛ كأنَّه قال: وأنا أملي لهم(٤). واختاره أبو حاتم، قال: لأنَّ فتح الهمزة يُوهم أنَّ الشيطان يملي لهم، وليس كذلك؛ فلهذا عدل إلى الضم. قال المهدويّ: ومن قرأ: «وَأَمْلَى لَهُمْ» فالفاعل اسم الله تعالى. وقيل: الشيطان. واختار أبو عبيد قراءةَ العامة، قال: لأنَّ المعنى معلوم؛ لقوله: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ [الفتح:٩] ردّ التسبيحَ على اسم الله، والتوقيرَ والتعزيرَ على اسم الرسول.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۝٢٦﴾

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ أي: ذلك الإملاء لهم حتى يتمادَوْا في الكفر بأنهم قالوا؛ يعني المنافقين واليهود ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ وهم المشركون: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أي: في مخالفة محمد والتظاهر على عداوته، والقعود عن الجهاد معه وتوهين أمره في السرِّ. وهم إنَّما قالوا ذلك سرًّا، فأخبر الله نبيَّه(٥).

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٠٣.

(٢) قراءة أبي عمرو في السبعة ص٦٠٠، والتيسير ص٢٠١، وقراءة عيسى وشيبة في المحرر الوجيز ٥/ ١١٩. وقراءة أبي جعفر المشهورة عنه: «وأَمْلَى» كقراءة العامة. النشر ٢/ ٣٧٤.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٨٤.

(٤) ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٧٢، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٧٤، وهي من العشرة، وينظر معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٤.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٨٤ بنحوه.

وقراءة العامة: «أَسْرَارَهُمْ» بفتح الهمزة جمع سِرّ، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. وقرأ الكوفيون وابن وثّاب والأعمش وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم: «إِسْرَارَهُمْ» بكسر الهمزة على المصدر[١]، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٩] جُمع لاختلاف ضروب السر[٢].

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ﴾ أي: فكيف تكون حالهم[٣]. ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ﴾ أي: ضاربين؛ فهو في موضع الحال[٤]. ومعنى الكلام التخويف والتهديد، أي: إن تأخر عنهم العذابُ فإلى انقضاء العمر. وقد مضى في «الأنفال» و«النحل»[٥].

وقال ابن عباس: لا يتوفى أحد على معصية إلا بضرب شديد لوجهه وقفاه[٦].

وقيل: ذلك عند القتال نُصْرَةً لرسول الله ﷺ، بضرب الملائكة وجوهَهم عند الطلب، وأدبارَهم عند الهرب. وقيل: ذلك في القيامة عند سَوْقهم إلى النار[٧].

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: ذلك جزاؤهم[٨]. ﴿بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١١٩، والسبعة ص٦٠١، والتيسير ص٢٠١، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٩٠.
(٢) الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٢٧٨.
(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٩٠.
(٤) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٧٤.
(٥) ١٠/ ٤٤ - ٤٥ و١٢/ ٣١٥.
(٦) الكشاف ٣/ ٥٣٧ بنحوه، ووقع في (ظ): يضرب ضرباً شديداً.
(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٠٣-٣٠٤.
(٨) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٩٠.

قال ابن عباس: هو كتمانُهم ما في التوراة من نعت محمد ﷺ[١]. وإن حُملت على المنافقين فهو إشارة إلى ما أضمروا عليه من الكفر. ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ يعني: الإيمان. ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: ما عملوه من صدقة وصلةِ رحم وغير ذلك؛ على ما تقدّم[٢].

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: نفاق وشكٌّ[٣]، يعني المنافقين. ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ الأضغان ما يُضمر من المكروه.

واختلف في معناه؛ فقال السُّدِّيّ: غِشّهم. وقال ابن عباس: حسدهم. وقال قُطْرُب: عداوتهم، وأنشد قول الشاعر:

قل لابن هندٍ ما أردتَ بمَنْطِقٍ ... ساء الصديقَ وشيَّدَ الأضغانا

وقيل: أحقادهم[٤]. واحدها ضِغن[٥]. قال:

وذي ضغنٍ كففتُ النفسَ عنهُ

وقد تقدم[٦].

وقال عمرو بن كلثوم:

وإنَّ الضِّغنَ بعد الضِّغنِ يَفْشُو ... عليك ويُخرجُ الداءَ الدفينا[٧]

---

(١) الوسيط ٤/ ١٢٨، وتفسير البغوي ٤/ ١٨٥.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٥، وسلف ص٢٥٥ من هذا الجزء.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٠٤.

(٤) المصدر السابق، وفيه: (وسرَّ ذا الأضغان) بدل (وشيد الأضغانا).

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٨٥.

(٦) صدر بيت للزبير بن عبد المطلب وعجزه: وكنت على مساءته مقيتا، وسلف ٦/ ٤٨٦.

(٧) شرح المعلقات للنحاس ٢/ ١٠١ ـ معلقة عمرو بن كلثوم ـ قال النحاس: الداء: يعني الحقد.

قال الجوهريّ: الضِّغن والضَّغينة: الحِقْد. وقد ضَغِنَ عليه ـ بالكسر ـ ضِغناً. وتضاغن القومُ واضْطَغَنُوا: انْطَوَوْا[١] على الأحقاد. واضْطَغَنْت الصبيَّ: إذا أخذتَه تحت حضنك. وأنشد الأحمر:

كـأنّـه مُـضْـطَـغِـنٌ صـبِـيَّـا[٢]

أي: حاملُه في حِجْره. وقال ابن مُقبل:

إذا اضطغنتُ سلاحي عند مَغْرِضِها ومِرفقٍ كرِئاس السيفِ إذْ شَسَفَا[٣]

وفرس ضاغن: لا يعطي ما عنده من الجري إلا بالضرب.

والمعنى: أم حسبوا أن لن يُظهرَ الله عداوتَهم وحقدَهم لأهل الإسلام. ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ أي: لعرَّفناكهم[٤].

قال ابن عباس: وقد عرّفه إيَّاهم في سورة براءة[٥].

تقول العرب: سأريك ما أصنع، أي: سأعلمك[٦]، ومنه قوله تعالى: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥] أي: بما أعلمك.

﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي: بعلاماتهم. قال أنس: ما خفيَ على النبيّ ﷺ بعد هذه الآية أحدٌ من المنافقين؛ كان يعرفهم بسيماهم[٧]. وقد كنا في غَزَاة وفيها سبعة من المنافقين يشكونهم الناس[٨]، فأصبحوا ذات ليلة وعلى جبهة كلِّ واحد منهم مكتوبٌ

(١) في النسخ: أبطنوا، والمثبت من الصحاح، والكلام منه.
(٢) الصحاح (ضغن)، والرجز أيضاً في غريب الحديث لأبي عبيد ٤/ ١٩٣ .
(٣) هذه رواية الصحاح، وفي ديوان ابن مقبل ص١٨٦ : (ثم اضطبنت) بدل (إذا اضطغنت). اضطبنت: أي: احتضنت، والمغرض: جانب البطن أسفل الأضلاع، ورئاس السيف: مقبضه، وشسَف، أي: يبس من الضمر والهزال. اللسان (ضبن) (غرض) (رأس) (شسف).
(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٥ بنحوه.
(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ٢٢٢ .
(٦) تفسير الطبري ٢١/ ٢٢٢ .
(٧) تفسير البغوي ٤/ ١٨٥ ، والكشاف ٣/ ٥٣٧ .
(٨) في (ف): يشكوا الناس، وفي الكشاف ٣/ ٥٣٧ والكلام منه: يشكوهم الناس.

«هذا منافق» فذلك سيماهم[١].

وقال ابن زيد: قدَّر الله إظهارَهم، وأمر أن يُخرجوا من المسجد، فأبَوا إلا أن يتمسكوا بلا إله إلا الله، فحُقنت دماؤهم ونكحوا وأنكحوا بها[٢].

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: في فحواه ومعناه. ومنه قول الشاعر:

وخيرُ الكلام ما كان لَحْنا

أي: ما عُرف بالمعنى ولم يُصَرَّح به[٣].

مأخوذ من اللَّحن في الإعراب، وهو الذهابُ عن الصواب، ومنه قول النبيّ ﷺ: «إنَّكم تختصمون إليَّ، ولعلَّ بعضَكم أن يكون ألحنَ بحجته من بعض» أي: أذهبَ بها في الجواب لقوّته على تصريف الكلام[٤].

أبو زيد: لَحَنْتُ له ـ بالفتح ـ ألْحَنُ لَحْناً: إذا قُلْتَ له قوْلاً يفهمه عنك، ويخْفَى على غيره. ولَحِنَه هو عَنِّي ـ بالكسر ـ يلحَنه لَحْناً، أي: فهمه. وألحنته أنا إياه. ولاحنْتُ الناس: فاطنتُهم، قال الفَزارِيّ:

وحديثٍ ألَذُّهُ هو ممّا يَنْعَتُ النّاعِتُون يُوزَن وزْنا
منطِقٌ رائعٌ وتَلْحَنُ أحيا نًا وخير الحديث ما كان لحنًا[٥]

يريد أنَّها تتكلم وهي تريد غيرَه، وتُعَرِّض في حديثها فتزيله عن جهته من فطنتها وذكائها. وقد قال تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾. وقال القَتَّال الكِلابيّ:

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٣٧ ، وفيه (تسعة) بدل (سبعة).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ٢٢٣ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٨٥-٤٨٦ ، وفيه: (وخير الحديث) بدل (وخير الكلام)، والشعر لمالك بن أسماء الفزاري وسيأتي قريباً.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٠٤-٣٠٥ ، والحديث سلف ٢/ ٢٧٤ .

(٥) الصحاح (لحن) وهذه روايته، والبيت أيضاً في الشعر والشعراء ٢/ ٧٨٢ ، والأغاني ١٧/ ٢٣٦ وروايتهما فيه: (صائب) بدل (رائع)، و(أحلى) بدل (خير)، ووقع في الشعر والشعراء أيضاً (يشتهي) بدل (ينعت)، والفزاري قال ابن قتيبة: هو مالك بن أسماء بن خارجة، وآباؤه سادة غَطَفان.

ولقد وَحَيْتُ لكم لكيما تفهموا ... ولَحَنْتُ لحنًا ليس بالمرتابِ(١)

وقال مرار الأسدي:

ولحنتِ لحنًا فيه غشٌّ ورابني ... صدودُكِ تُرْضين الوُشاةَ الأعادِيا

قال الكلبي: فلم يتكلم بعد نزولها عند النبيّ ﷺ منافق إلا عرفه(٢).

وقيل: كان المنافقون يخاطبون النبيَّ ﷺ بكلام تواضعوه فيما بينهم، والنبيُّ ﷺ يسمع ذلك ويأخذ بالظاهر المعتاد، فنبهه الله تعالى عليه، فكان بعد هذا يعرف المنافقين إذا سمع كلامَهم.

قال أنس: فلم يَخْفَ منافقٌ بعد هذه الآية على رسول الله ﷺ؛ عَرّفه الله ذلك بوحي أو علامة عرَفها بتعريف الله إياه(٣).

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء منها.

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أي: نتعبّدكم بالشرائع وإن علمنا عواقبَ الأمور، وقيل: لنعاملنَّكم معاملة المختبرين(٤).

﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ عليه. قال ابن عباس: «حَتَّى نَعْلَمَ»: حتى نميّز. وقال عليّ ﷺ: «حَتَّى نَعْلَمَ»: حتى نرى. وقد مضى في «البقرة»(٥).

---

(١) الصحاح (لحن) وهذه روايته، وهو في ديوان القتّال الكلابي ص٣٦ برواية:

ولقد لحنت لكم لكيما تفقهوا ... ووحيت وحياً ليس بالمرتاب

والقتّال الكِلابي: هو عبد الله بن مُجيب بن المضرحيّ، شاعر فارس. المؤتلف والمختلف للآمدي ص٢٥٢ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٠٥ ، والبيت السالف فيه.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٨٥ ، والكشاف ٣/ ٥٣٧ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٥ .

(٥) ٢/ ٤٣٧ - ٤٣٨ .

وقراءة العامة بالنون في «نَبْلُونَّكُمْ» و«نعلم» «وَنَبْلُوَ». وقرأ أبو بكر عن عاصم بالياء فيهنّ. وروى رُوَيس عن يعقوب إسكانَ الواو من «نبلو» على القطع مما قبل. ونصب الباقون ردًّا على قوله: «حَتَّى نَعْلَمَ[(١)]».

وهذا العِلمُ هو العِلمُ الذي يقع به الجزاء؛ لأنَّه إنَّما يجازيهم بأعمالهم لا بعلمه القديم عليهم. فتأويله: حتى نعلمَ المجاهدين علمَ شهادة؛ لأنَّهم إذا أمروا بالعمل يشهد منهم ما عملوا، فالجزاءُ بالثواب والعقاب يقع على علم الشهادة[(٢)]. ﴿وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾: نختبرها ونظهرها.

قال إبراهيم بن الأشعث: كان الفُضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال: اللهم لا تبتلنا[(٣)]؛ فإنَّك إذا بلوتنا فضحْتَنا وهتكْتَ أستارَنا[(٤)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾

يرجع إلى المنافقين أو إلى اليهود[(٥)].

وقال ابن عباس: هم المطعِمون يوم بدر. نظيرها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٦] الآية[(٦)].

﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أي: عادوه وخالفوه. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: علموا أنه نبيّ بالحُجج والآيات. ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ بكفرهم. ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: ثوابَ ما عملوه[(٧)].

---

(١) السبعة ص٦٠١، والتيسير ص٢٠١، والنشر ٢/ ٣٧٥. والكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ١٢١.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٦ بنحوه.

(٣) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: لا تبتلينا.

(٤) الكشاف ٣/ ٥٣٨، والمحرر الوجيز ٥/ ١٢١ دون ذكر إبراهيم بن الأشعث.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ١٢١.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ١٨٦.

(٧) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٤٧.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ لمَّا بيَّن حال الكفار، أمر المؤمنين بلزوم الطاعة في أوامره، والرسولِ في سننه.

﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ أي: حسناتِكم بالمعاصي. قاله الحسن. وقال الزُّهْرِي: بالكبائر. ابن جريج: بالرِّياء والسُّمعة[1]. وقال مقاتل والثُّمَاليّ: بالمَنّ[2]؛ وهو خطاب لمن كان يمنّ على النبيّ ﷺ بإسلامه. وكلُّه متقارب، وقول الحسن يجمعه.

وفيه إشارة إلى أنَّ الكبائرَ تحبط الطاعات، والمعاصي تُخرِج عن الإيمان[3].

الثانية: احتج علماؤنا وغيرُهم بهذه الآية على أنَّ التحللَ من التطوّع ـ صلاةً كان أو صوماً ـ بعد التلبس به لا يجوز؛ لأنَّ فيه إبطالَ العمل، وقد نهى الله عنه. وقال من أجاز ذلك ـ وهو الإمام الشافعي وغيرُه ـ: المراد بذلك إبطالُ ثواب العمل المفروض، فنهى الرجل عن إحباط ثوابه. فأمّا ما كان نفلاً فلا؛ لأنَّه ليس واجباً عليه. فإن زعموا أنَّ اللفظ عام، فالعامّ يجوز تخصيصه. ووجه تخصيصه أنَّ النَّفلَ تطوّع، والتطوّع يقتضي تخييراً[4].

وعن أبي العالية: كانوا يرون أنه لا يضر مع الإسلام ذنب، حتى نزلت هذه الآية فخافوا الكبائر أن تُحبط الأعمال. وقال مقاتل: يقول الله تعالى إذا عصيتم الرسول فقد أبطلتم أعمالكم[5].

---

(١) النكت والعيون ٥/٣٠٦.

(٢) زاد المسير ٧/ ٤١٢ دون نسبة.

(٣) الكشاف ٣/٥٣٨ - ٥٣٩ بنحوه، وهذا كلام المعتزلة، ومذهب أهل السنة أن المعاصي لا تبطل الحسنات، ولا تُخرج صاحبها عن الإيمان، غير أن من أصرَّ عليها خيف عليه أن يرين على قلبه، فيخرجه من الإيمان. وينظر روح المعاني ٢٦/ ٧٩ - ٨٠ ، والداء والدواء ص١٠٣-١٠٥ .

(٤) أحكام القرآن للكيا الطبري ٤/ ٣٧٥ .

(٥) لفظ قول مقاتل في تفسير البغوي ٤/ ١٨٦ : «لا تَمُنُّوا على رسول الله ﷺ؛ فتبطلوا أعمالكم». وذكر قول أبي العالية بنحوه أيضاً الواحدي في الوسيط ٤/ ١٢٩ ، وأبو الليث في تفسيره ٣/ ٢٤٧ .

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾

بيّن أنَّ الاعتبارَ بالوفاة على الكفر يوجبُ الخلودَ في النار. وقد مضى في «البقرة» الكلام فيه[١]. وقيل: إنَّ المرادَ بالآية أصحابُ القليب. وحكمها عام[٢].

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟﴾ أي: تضعفوا عن القتال[٣].

والوَهْن: الضعف. وقد وَهَن الإنسانُ وَوَهَنَهُ غيره، يتعدّى ولا يتعدَّى. قال:

إنَّــنــي لــسْــتُ بــمــوهــونٍ فَــقِــرْ[٤]

ووَهِن أيضاً ـ بالكسر ـ وَهْنًا، أي: ضعف[٥].

وقرىء: «فما وَهُنُوا» بضم الهاء وكسرها. وقد مضى في «آل عمران»[٦].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ أي: الصُّلح. ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ أي: وأنتم أعلمُ بالله منهم. وقيل: وأنتم الأعلون في الحجة[٧]. وقيل: المعنى: وأنتم الغالبون لأنَّكم مؤمنون وإن غلبوكم في الظاهر في بعض الأحوال[٨].

---

(١) ٣/ ٤٣٠ .

(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٩ ، والقليب: البئر ، والمراد: قليب بدر. النهاية (قلب).

(٣) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣٩٣ .

(٤) عجز بيت لطرفة وصدره: وإذا تلسُنُني ألسُنها، وهو في ديوانه ص٥٣ ، والكلام في الصحاح (وهن).

(٥) الصحاح (وهن).

(٦) ٥/ ٣٥٣ ، ولم نقف على من قرأ «وهُنوا» بضم الهاء.

(٧) تفسير أبي الليث ١/ ٣٠١ .

(٨) تفسير البغوي ٤/ ١٨٦ .

وقال قتادة: لا تكونوا أوّلَ الطائفتين ضرعتْ إلى صاحبتها[١].

الثالثة: واختلف العلماء في حكمها؛ فقيل: إنها ناسخة لقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١] لأنَّ الله تعالى منع من المَيْل إلى الصلح إذا لم يكن بالمسلمين حاجةٌ إلى الصلح. وقيل: منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]. وقيل: هي محكمة. والآيتان نزلتا في وقتين مختلفي الحال. وقيل: إنَّ قوله: «وإنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا» مخصوص في قوم بأعيانهم، والأخرى عامة[٢].

فلا يجوز مهادنة الكفار إلا عند الضرورة؛ وذلك إذا عجزنا عن مقاومتهم لضعف المسلمين[٣]. وقد مضى هذا المعنى مستوفى[٤].

﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ أي: بالنَّصر والمعونة[٥]؛ مثل: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي: لن ينقصكم؛ عن ابن عباس وغيره[٦].

ومنه الموتور الذي قُتِل له قتيل فلم يدرك بدمه، تقول منه: وَتَرَه يَتِره وتْرًا وَتِرَةً[٧].

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «من فاتته صلاةُ العصر فكأنَّما وُتِرَ أهلَه ومالَه» أي: ذُهب بهما[٨].

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٣٩، وفيه: ضرعت إلى صاحبتها بالموادعة. وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٢٤.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١٣، وينظر ٢/ ٣٨٥ منه.

(٣) أحكام القرآن للكيا الطبري ٤/ ٣٧٥.

(٤) ١٠/ ٦٢ فما بعدها.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٨٦.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٠٦ عن مجاهد وقطرب، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٥٩٩.

(٧) الصحاح (وتر).

(٨) أخرجه أحمد (٦٣٢٤)، والبخاري (٥٥٢)، ومسلم (٦٢٦): (٢٠١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وكذلك وَتَرَهُ حقّه أي: نقصه. وقوله تعالى: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي: لن ينتقصَكم في أعمالكم، كما تقول: دخلتُ البيت؛ وأنت تريد في البيت. قاله الجوهريّ[١].

الفرّاء: «وَلَنْ يَتِرَكُمْ» هو مشتقٌّ من الوتر، وهو الفرد؛ فكان المعنى: ولن يفردكم بغير ثواب[٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ تقدّم في «الأنعام»[٣]. ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ شرط، وجوابه. ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ أي: لا يأمركم بإخراج جميعها في الزكاة؛ بل أمر بإخراج البعض. قاله ابن عُيينة وغيره[٤].

وقيل: «لا يَسْأَلْكم أموالَكُم» لنفسه[٥] أو لحاجة منه إليها، إنَّما يأمركم بالإنفاقِ في سبيله؛ ليرجع ثوابُه إليكم.

وقيل: «لَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ» إنَّما يسألكم أمواله؛ لأنَّه أملَكُ[٦] لها، وهو المنعم بإعطائها[٧].

وقيل: ولا يسألكم محمدٌ أموالَكم أجراً على تبليغ الرسالة. نظيره: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الفرقان: ٥٧] الآية. ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾: يلحّ عليكم.

---

(١) في الصحاح (وتر).

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٢٢ دون نسبة. وقال: والأول أصح.

(٣) ٨/ ٣٦٠ - ٣٦١.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٦، والمحرر الوجيز ٥/ ١٢٣ بنحوه عن ابن عيينة.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٠٦.

(٦) في (م): المالك.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٠٧.

يقال: أحفى بالمسألة وألحف وألحّ بمعنًى واحد. والحَفيّ المستقصِي في السؤال، وكذلك الإحفاء الاستقصاء في الكلام والمنازعة. ومنه أحفى شاربَه؛ أي: استقصى في أخذه[١].

﴿تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾ أي: يخرج البخل أضغانكم.

قال قتادة: قد علم الله أنّ في سؤال المال خروجَ الأضغان[٢].

وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن مُحَيصِن وحميد: «وتَخْرُج» بتاء مفتوحة وراء مضمومة. «أضْغَانُكُمْ» بالرفع لكونه الفاعل[٣]. وروى الوليدُ عن يعقوب الحضرميّ «ونخرج» بالنون[٤]. وأبو معمر عن عبد الوارث عن أبي عمرو: «ويخرج» بالرفع في الجيم على القطع والاستئناف[٥]، والمشهور عنه: «ويُخْرِجْ» كسائر القرّاء، عطف على ما تقدّم.

قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ﴾ أي: هأنتم هؤلاء أيُّها المؤمنون تُدعون ﴿لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في الجهاد وطريق الخير. ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي: على نفسه؛ أي: يمنعها الأجرَ والثواب. ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ﴾ أي: إنَّه ليس بمُحتاجٍ إلى أموالكم. ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ إليها.

---

(١) الصحاح (حفا).

(٢) تفسير أبي الليث ٣/٢٤٨، والوسيط ٤/ ١٣٠، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٢٤.

(٣) القراءات الشاذة ص١٤١، والبحر المحيط ٨/ ٨٦.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٨٦، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٤١ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) المحتسب ٢/ ٢٧٣، والقراءات الشاذة ص١٤١.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ أي: أطوعَ لله منكم[١].

روى الترمذي[٢] عن أبي هريرة قال: تلا رسولُ الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ قالوا: ومن يُستبدل بنا؟ قال: فضرب رسولُ الله ﷺ على منكِب سلمان ثم قال: «هذا وقومُه. هذا وقومُه» قال: حديث غريب في إسناده مقال.

وقد روى عبد الله بن جعفر بن نجيح والد علي بن المديني أيضاً هذا الحديث عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال أناس من أصحاب رسول الله ﷺ: يا رسول الله، مَنْ هؤلاء الذين ذكر اللهُ إنْ تَوَلَّينا استُبدلوا، ثمَّ لا يكونوا أمثالَنا؟ قال: وكان سلمانُ جنبَ رسول الله ﷺ قال: فضرب رسولُ الله ﷺ فخذَ سلمان، قال: «هذا وأصحابُه. والذي نفسي بيدِه لو كان الإيمانُ مَنُوطًا بالثُّرَيَّا لتناولَه رجالٌ من فارس»[٣].

وقال الحسن: هم العجم. وقال عكرمة: هم فارس والروم[٤]. قال المحاسبيّ: فلا أحد بعد العرب من جميعِ أجناسِ الأعاجم أحسنُ دِيناً، ولا كانت العلماءُ منهم إلا الفرس.

وقيل: إنَّهم اليمن، وهم الأنصار. قاله شريح بن عبيد[٥]. وكذا قال ابن عباس:

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/٢٤٨ .

(٢) في سننه (٣٢٦٠).

(٣) سنن الترمذي (٣٢٦١)، وهو في صحيح ابن حبان (٧١٢٣) من طريق مسلم بن خالد عن العلاء...
وأخرجه البخاري (٤٨٩٧)، ومسلم (٢٥٤٦) (٢٣١) بلفظ: «... فوضع يده على سلمان ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا، لَنَالهُ رجال من هؤلاء».
وأخرجه أحمد (٨٠٨١)، ومسلم (٢٥٤٦) (٢٣٠) بلفظ: «لو كان الدين عند الثريا، لذهب به رجل من فارس ـ أو قال ـ من أبناء فارس».

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٧ ، والكشاف ٣/ ٥٤٠ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٠٧ .

هم الأنصار[١]. وعنه: أنَّهم الملائكة[٢]. وعنه: هم التابعون. وقال مجاهد: إنَّهم من شاء من سائر الناس[٣].

﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ قال الطبريّ: أي: في البُخل بالإنفاق في سبيل الله. وحُكي عن أبي موسى الأشعريّ أنَّه لمّا نزلت هذه الآيةُ، فرح بها رسولُ الله ﷺ وقال: «هي أحبُّ إليَّ من الدنيا»[٤]. والله أعلم.

ختمت السورةُ بحمد الله وعونه، وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه الأطهار.

---

(١) نسبه ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٤١٦ لمقاتل.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٧ دون نسبة.

(٣) زاد المسير ٧/ ٤١٦ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٠٨ .

تفسير سورة القتال

[وهى مدنية][1] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝١ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ۝٣﴾ .

يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: بآيات الله، ﴿وَصَدُّوا﴾ غيرهم ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أى: أبطلها وأذهبها، ولم يجعل لها جزاء ولا ثوابا، كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: آمنت قلوبهم وسرائرهم، وانقادت جوارحهم وبواطنهم وظواهرهم، ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾، عطف خاص على عام، وهو دليل على أنه شرط فى صحة الإيمان بعد بعثته صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ جملة معترضة حسنة؛ ولهذا قال: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ قال ابن عباس: أى أمرهم. وقال مجاهد: شأنهم. وقال قتادة وابن زيد: حالهم. والكل متقارب. وقد جاء فى حديث تشميت العاطس: «يهديكم الله، ويصلح بالكم»[2].

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ أى: إنما أبطلنا أعمال الكفار، وتجاوزنا عن سيئات الأبرار، وأصلحنا شؤونهم؛ لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل، أى: اختاروا الباطل على الحق، ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ أى: يبين لهم مآل أعمالهم، وما يصيرون إليه فى معادهم.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم

---

(١) زيادة من ت، م، أ.

(٢) رواه أبو داود فى السنن برقم (٥٠٣٨)، والترمذى فى السنن برقم (٢٧٣٩)، وابن ماجه فى السنن برقم (٣٧١٥)، وقال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح».

ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم (٤) سيهديهم ويصلح بالهم (٥) ويدخلهم الجنة عرفها لهم (٦) يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم (٧) والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم (٨) ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم (٩) ﴾.

يقول تعالى مرشدا للمؤمنين إلى ما يعتمدونه فى حروبهم مع المشركين: ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب﴾ أى: إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصدا بالسيوف، ﴿حتى إذا أثخنتموهم فشدوا﴾ أى: أهلكتموهم قتلا ﴿فشدوا﴾ [وثاق][1] الأسارى الذين تأسرونهم، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مخيرون فى أمرهم، إن شئتم مننتم عليهم فأطلقتم أساراهم مجانا، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم وتشارطونهم عليه. والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر، فإن الله، سبحانه، عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ ليأخذوا منهم الفداء، والتقلل من القتل يومئذ فقال: ﴿ما كان لنبي أن يكون[2] له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم. لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨].

ثم قد ادعى بعض العلماء أن هذه الآية ـ المخيرة بين مفاداة الأسير والمن عليه ـ منسوخة بقوله تعالى: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم [وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد][3]﴾الآية [التوبة: ٥]، رواه العوفى عن ابن عباس. وقاله قتادة، والضحاك، والسدى، وابن جُرَيج.

وقال الآخرون ـ وهم الأكثرون ـ: ليست منسوخة.

ثم قال بعضهم: إنما الإمام مُخَيَّر بين المن على الأسير ومفاداته فقط، ولا يجوز له قتله.

وقال آخرون منهم: بل له أن يقتله إن شاء، لحديث قتل النبى ﷺ النضر بن الحارث وعقبة بن أبى مُعَيط من أسارى بدر، وقال ثمامة بن أثال لرسول الله ﷺ حين قال له: «ما عندك يا ثمامة؟» فقال: إن تَقتُلْ تَقتُلْ ذا دمٍ، وإن تمنن تمنن على شاكر، وإن كنت تريد المال فَسَلْ تعطَ منه ما شئت[4].

وزاد الشافعى، رحمه الله، فقال: الإمام مخير بين قتله أو المن عليه، أو مفاداته أو استرقاقه أيضا. وهذه المسألة مُحَرَّرة فى علم الفروع، وقد دللنا على ذلك فى كتابنا «الأحكام»، ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿حتى تضع الحرب أوزارها﴾: قال مجاهد: حتى ينزل عيسى ابن مزيم [عليه

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى ت، م: «تكون». (٣) زيادة من أ.
(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٣٧٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

السلام][(١)]. وكأنه أخذه من قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى يقاتل آخرهم الدجال»[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن إبراهيم بن سليمان، عن الوليد بن عبد الرحمن الجُرَشى[(٣)]، عن جُبَير بن نُفَير؛ أن سلمة بن نُفَيل أخبرهم: أنه أتى رسول الله ﷺ فقال: إنِّى سَيَّبْتُ الخيل، وألقيت السلاح، ووضعت الحرب أوزارها، وقلت: «لا قتال» فقال له النبى ﷺ: «الآن جاء القتال، لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الناس يُزيغ[(٤)] الله قلوب أقوام فيقاتلونهم: ويرزقهم الله[(٥)] منهم، حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك. ألا إن عُقْرَ دار المؤمنين الشام، والخيلُ معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة».

وهكذا رواه النسائى من طريقين، عن جُبَيْر بن نُفَير، عن سلمة بن نُفَيْل السكونى، به[(٦)].

وقال أبو القاسم البغوى: حدثنا داود بن رُشَيْد، حدثنا الوليد بن مسلم، عن محمد بن مهاجر عن الوليد بن عبد الرحمن الجُرَشى، عن جبير بن نُفَير، عن النواس بن سمعان قال: لما فتح على رسول الله ﷺ فَتْح فقالوا: يا رسول الله، سيبت الخيل، ووضعت السلاح، ووضعت الحرب أوزارها، قالوا: لا قتال، قال: «كذبوا، الآن، جاء القتال، لا يزال الله يُرَفِّع[(٧)] قلوب قوم يقاتلونهم، فيرزقهم منهم، حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك، وعُقْر دار المسلمين بالشام».

وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى عن داود بن رُشَيْد، به[(٨)]. والمحفوظ أنه من رواية سلمة ابن نُفَيْل كما تقدم. وهذا يقوى القول بعدم النسخ، كأنه شرع هذا الحكم فى الحرب إلى ألاّ يبقى حرب.

وقال قتادة: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾: حتى لا يبقى شرك. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾[البقرة: ١٩٣]. ثم قال بعضهم: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أى: أوزار المحاربين، وهم المشركون، بأن يتوبوا إلى الله عز وجل. وقيل: أوزار أهلها[(٩)] بأن يبذلوا الوسع فى طاعة الله، عز وجل.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أى: هذا ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكَال من عنده، ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ أى: ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء ليختبركم، ويبلو أخباركم. كما ذكر حكمته فى شرعية الجهاد فى سورتى «آل عمران» و«براءة» فى قوله: ﴿أَمْ

(١) زيادة من ت.
(٢) رواه أبو داود فى السنن برقم (٢٤٨٤) من حديث عمران بن حصين رضى الله عنه.
(٣) فى ت: «وروى الإمام أحمد بإسناده». (٤) فى أ: «يرفع». (٥) فى أ: «قاتلونهم ويرزقه الله».
(٦) المسند (٤/ ١٠٤) وسنن النسائى (٦/ ٢١٤).
(٧) فى أ: «يرفع».
(٨) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (١٦١٧) «موارد» من طريق أبى يعلى عن داود بن رشيد به، ورواه النسائى فى السنن (٦/ ٢١٤) من طريق إبراهيم بن أبى عبلة، عن الوليد بن عبد الرحمن الجرشى، عن جبير بن نفير عن سلمة بن نفيل مرفوعًا بنحوه.
(٩) فى ت، أ: «وقيل: أوزارها».

حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وقال في سورة براءة: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥].

ثم لما كان من شأن القتال أن يُقتل كثيرٌ من المؤمنين، قال: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: لن يذهبها بل يكثرها وينميها ويضاعفها. ومنهم من يجرى عليه عمله فى طول بَرْزَخه، كما ورد بذلك الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده، حيث قال:

حدثنا زيد بن يحيى الدمشقى، حدثنا ابن ثَوْبان، عن أبيه، عن مكحول، عن كثير بن مُرّة[1]، عن قيس الجذامى ـ رجل كانت له صحبة ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يعطى الشهيد ست خصال عند أول قطرة من دمه: يُكَفَّر عنه كل خطيئة، ويرى مقعده من الجنة، ويزوج من الحور العين، ويُؤَمَّن من الفزع الأكبر، ومن عذاب القبر، ويحلى حُلَّة[2] الإيمان»[3]. تفرد[4] به أحمد، رحمه الله.

حديث آخر: قال أحمد[5] أيضا: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن بَحِير[6] ابن سعيد، عن خالد بن مَعْدان، عن المقدام بن معد يكرب الكندى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للشهيد عند الله ست خصال: أن يغفر له فى أول دَفْعَة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حُلَّة[7] الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويَأمَن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويُشَفَّع فى سبعين إنسانا من أقاربه».

وقد أخرجه الترمذى وصححه ابن ماجه[8].

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عَمْرو، وعن أبى قتادة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يُغفر للشهيد كل شىء إلا الدَّيْن»[9]. وروى من حديث جماعة من الصحابة، وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: «يشفع الشهيد فى سبعين من أهل بيته». ورواه أبو داود[10]. والأحاديث فى فضل الشهيد[11] كثيرة جدا.

وقوله: ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ أي: إلى الجنة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩].

---

(١) فى ت: «أحمد بإسناده». (٢) فى أ: «بحلة».
(٣) المسند (٤/ ٢٠٠) قال الهيثمى فى المجمع (٥/ ٢٩٣): «فيه عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، وثقه أبو حاتم وجماعة وضعفه جماعة».
(٤) فى ت: «انفرد». (٥) فى ت: «وروى أحمد». (٦) فى م، أ: «يحيى».
(٧) فى ت، م، أ: «حلية».
(٨) المسند (٤/ ١٣١) ، وسنن الترمذى برقم (١٦٦٣) ، وسنن ابن ماجه برقم (٢٧٩٩).
(٩) صحيح مسلم برقم (١٨٨٦).
(١٠) سنن أبى داود برقم (٢٥٢٢).
(١١) فى ت، م: «الشهداء».

وقوله: ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ أى: أمرهم وحالهم، ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أى: عرفهم بها وهداهم إليها.

قال مجاهد: يهتدى أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم الله لهم منها، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها أحدا. وروى مالك عن ابن زيد بن أسلم نحو هذا.

وقال محمد بن كعب: يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة، كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة.

وقال مقاتل بن حَيَّان: بلغنا أن الملك الذى كان وُكِل بحفظ عمله فى الدنيا يمشى بين يديه فى الجنة، ويتبعه ابن آدم حتى يأتى أقصى منزل هو له، فيعرِّفه كلّ شىء أعطاه الله فى الجنة، فإذا انتهى إلى أقصى منزله فى الجنة دخل [إلى][١] منزله وأزواجه، وانصرف الملك عنه، ذكرهن[٢] ابن أبى حاتم، رحمه الله.

وقد ورد الحديث الصحيح بذلك أيضا، رواه البخارى من حديث قتادة، عن أبى المتوكل الناجى، عن أبى سعيد الخدرى [رضى الله عنه][٣]؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار، يتقاصّون مظالم كانت بينهم فى الدنيا، حتى إذا هُذّبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة، والذى نفسى بيده، إن أحدهم بمنزله فى الجنة أهدى منه بمنزله كان فى الدنيا»[٤].

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾، كقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]، فإن الجزاء من جنس العمل؛ ولهذا قال: ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾، كما جاء فى الحديث: «من بَلَّغ ذا سلطان حاجة مَنْ لا يستطيع إبلاغها، ثبت الله قدمه على الصراط يوم القيامة».

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾، عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله ولرسوله ﷺ. وقد ثبت فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تَعِس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القَطِيفة ـ [وفى رواية: تعس عبد الخميصة][٥] ـ تعس وانتكس، وإذا شِيكَ فلا انتقش»، أى: فلا شفاه الله.

وقوله: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أى: أحبطها وأبطلها؛ ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أى: لا يريدونه ولا يحبونه، ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

---

(١) زيادة من ت، م، أ. (٢) فى ت: «ذكر هذا». (٣) زيادة من ت.
(٤) صحيح البخارى برقم (٦٥٣٥).
(٥) زيادة من ت، أ.

وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ (١١) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ (١٢) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣)﴾ .

يقول تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا**﴾ يعنى: المشركين بالله المكذبين لرسوله ﴿**فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ**﴾ أى: عاقبهم بتكذيبهم وكفرهم، أى: ونجى المؤمنين من بين أظهرهم؛ ولهذا قال: ﴿**وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا**﴾، ثم قال: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ**﴾، ولهذا قال أبو سفيان صخرُ بن حرب رئيس المشركين يوم أحد حين سأل عن النبى ﷺ، وعن أبى بكر وعمر فلم يجب، وقال: أما هؤلاء فقد هلكوا، وأجابه عمر بن الخطاب فقال: كذبت يا عدو الله، بل أبقى الله لك ما يسوؤك، وإن الذين عَدَدت لأحياء [كلهم][(١)]. فقال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سِجال، أما إنكم ستجدون مُثْلَةً لم آمر بها ولم تسؤنى، ثم ذهب يرتجز ويقول: اعل هُبَل، اعل هُبَل. فقال رسول الله ﷺ: «ألا تجيبوه؟» قالوا: يا رسول الله، وما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجلّ» ثم قال أبو سفيان: لنا العزى، ولا عُزّى لكم. فقال: «ألا تجيبوه؟» قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم»[(٢)].

ثم قال [تعالى][(٣)]: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**﴾ أى: يوم القيامة، ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ**﴾ أى: فى دنياهم، يتمتعون بها ويأكلون منها كأكل الأنعام، خَضْمًا وقضما ليس لهم همة إلا فى ذلك. ولهذا ثبت فى الصحيح: «المؤمن يأكل فى معىً واحد، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء»[(٤)].

ثم قال: ﴿**وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ**﴾ أى: يوم جزائهم.

وقوله: ﴿**وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ**﴾ يعنى: مكة، ﴿**أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ**﴾، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة، فى تكذيبهم لرسول الله ﷺ، وهو سيد المرسلين[(٥)] وخاتم الأنبياء، فإذا كان الله، عز وجل، قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله، بسببهم، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء، فماذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم فى الدنيا والأخرى؟ فإن رفع عن كثير منهم العقوبة فى الدنيا لبركة وجود الرسول نبى الرحمة، فإن العذاب يوفر على

---

(١) زيادة من أ.

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٠٤٣) من حديث البراء رضى الله عنه.

(٣) زيادة من أ.

(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٣٩٣) ، ومسلم فى صحيحه برقم (٢٠٦٠) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.

(٥) فى ت: «الرسل».

الكافرين به فى معادهم، ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠].

وقوله: ﴿مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ أى: الذين أخرجوك من بين أظهرهم.

وقال ابن أبى حاتم: ذكر أبى، عن محمد بن عبد الأعلى، عن المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن حَنَش[١]، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن النبى[٢] ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار أراه قال: التفت[٣] إلى مكة ـ وقال: «أنت أحب بلاد الله إلى الله، وأنت أحبّ بلاد الله إلىّ، ولو أن المشركين لم يخرجونى لم أخرج منك»[٤]. فأعدى الأعداء من عدَا على الله فى حرمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل بذُحُول الجاهلية، فأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ﴾

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥)﴾.

يقول: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أى: على بصيرة ويقين فى أمر الله ودينه، بما أنزل الله فى كتابه من الهدى والعلم، وبما جَبَله الله عليه من الفطرة المستقيمة، ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم﴾ أى: ليس هذا، كهذا كقوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ [الرعد: ١٩]، وكقوله: ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

ثم قال: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾: قال عكرمة: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ أى: نعتها[٥]: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ قال ابن عباس، والحسن، وقتادة: يعنى غير متغير. وقال قتادة، والضحاك، وعطاء الخراسانى: غير منتن. والعرب تقول: أسِنَ الماء، إذا تَغَيَّر ريحه.

وفى حديث مرفوع أورده ابن أبى حاتم: ﴿غَيْرِ آسِنٍ﴾ يعنى: الصافى الذى لا كَدَر فيه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وَكيع، عن الأعمش، عن عبد الله بن مُرَّة[٦]، عن مسروق قال: قال عبد الله: أنهار الجنة تُفَجَّر من جبل من مسك.

---

(١) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده». (٢) فى ت: «أن رسول الله». (٣) فى ت، م: «وداراه».

(٤) ورواه الطبرى فى تفسيره (٢٦/ ٣١).

(٥) فى ت، م، أ: «نعيمها». (٦) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده».

﴿ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ أى: بل فى غاية البياض والحلاوة والدسومة. وفى حديث مرفوع: «لم يخرج من ضُرُوع الماشية».

﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ أى: ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، بل [هى][1] حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل، ﴿ لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧]، ﴿ لا يُصَدَّعُونَ عَنهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩]، ﴿ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴾ [الصافات: ٤٦]، وفى حديث مرفوع: «لم تعصرها الرجال بأقدامها».

[قوله][2]: ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ أى: وهو فى غاية الصفاء، وحسن اللون والطعم والريح، وفى حديث مرفوع: «لم يخرج من بطون النحل».

وقال[3] الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا الجُريرى، عن حكيم بن معاوية، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «فى الجنة بحر اللبن، وبحر الماء، وبحر العسل، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار منها بعد».

ورواه الترمذى فى «صفة الجنة»، عن محمد بن بَشار، عن يزيد بن هارون، عن سعيد بن إياس الجَريرى، به[4]. وقال: حسن صحيح.

وقال أبو بكر بن مردويه[5]: حدثنا أحمد بن محمد بن عاصم، حدثنا عبد الله بن محمد بن النعمان، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا الحارث بن عبيد أبو قدامة الإيادى، حدثنا أبو عمران الجَوْنى، عن أبى بكر بن عبد الله بن قيس، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «هذه الأنهار تَشْخُبُ من جنة عدن فى جَوْبَة، ثم تصدع بعد أنهارا»[6].

وفى الصحيح: «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، ومنه تُفَجَّر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن»[7].

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا مصعب بن إبراهيم بن حمزة الزبيرى، وعبد الله بن الصقر السكرى قالا: حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامى، حدثنا عبد الرحمن بن المغيرة، حدثنى عبد الرحمن بن عياش، عن دلهم بن الأسود بن عبد الله بن حاجب بن عامر بن المنتفق العقيلى، عن أبيه، عن عمه لقيط بن عامر، قال دلهم: وحدثنيه أيضا أبو الأسود، عن عاصم بن لقيط أن لقيط

(١) زيادة من ت، أ.

(٢) زيادة من ت.

(٣) فى ت: «وروى».

(٤) المسند (٥/٥) وسنن الترمذى برقم (٢٥٧١) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٦/٢٠٤) عن طريق الجريرى به، وقال: «غريب عن الجريرى تفرد به عن حكيم».

(٥) فى ت: «وروى ابن مردويه».

(٦) ورواه أبو نعيم فى صفة الجنة برقم (٣١٤) من طريق معلى بن أسد عن الحارث بن عبيد به.

(٧) سبق تخريج الحديث عند تفسير الآية: ١٣٣ من سورة آل عمران.

ابن عامر خرج وافدا إلى رسول الله ﷺ، قلت: يا رسول الله، فعلام نطلع من الجنة؟ قال: «على أنهار عسل مصفى، وأنهار من خمر[١] ما بها صداع ولا ندامة، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وماء غير آسن، وفاكهة، لعمر إلهك ما تعلمون وخير من مثله، وأزواج مطهرة» قلت: يا رسول الله، أو لنا فيها أزواج مصلحات؟ قال: «الصالحات للصالحين، تلذونهن مثل لذاتكم فى الدنيا ويلذونكم، غير ألا توالد»[٢].

وقال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا: حدثنا يعقوب بن عبيدة[٣]، عن يزيد بن هارون، أخبرنى الجريرى، عن معاوية بن قرة، عن أبيه[٤]، عن أنس بن مالك قال: لعلكم تظنون أن أنهار الجنة تجرى فى أخدود فى الأرض، والله إنها لتجرى سائحة على وجه الأرض، حافاتها قباب اللؤلؤ، وطينها المسك الأذْفَر[٥].

وقد رواه أبو بكر ابن مَرْدُويه، من حديث مهدى بن حكيم، عن يزيد بن هارون، به مرفوعا[٦].

وقوله: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾، كقوله: ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥]. وقوله: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢].

وقوله: ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أى: مع ذلك كله.

وقوله: ﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ أى: أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد فى النار؟ ليس هؤلاء كهؤلاء، أى: ليس من هو فى الدرجات كمن هو[٧] فى الدركات، ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ أى: حارا[٨] شديد الحر، لا يستطاع. ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ أى: قطع ما فى بطونهم من الأمعاء والأحشاء، عياذا بالله من ذلك.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ⑯ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى

---

(١) فى ت،م، أ: «كأس».

(٢) المعجم الكبير (١٩/ ٢١١) من حديث طويل كأن الحافظ اختصره، وصورة السند فى المعجم الكبير: «حدثنا مصعب بن إبراهيم بن حمزة الزبيرى وعبد الله بن الصقر العسكرى ـ وصوابه: السكرى ـ قالا: حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامى، حدثنا عبد الرحمن بن المغيرة بن عبد الله بن خالد بن حزام، حدثنى عبد الرحمن بن عياش الأنصارى ثم المسعودى عن دلهم بن الأسود عن عاصم بن لقيط أن لقيط بن عامر خرج. . . . الحديث». وهناك عطف بالواو يوهم أن هناك إسنادًا آخر رواه الطبرانى، وليس عنده إلا من هذا الطريق، وقد رواه عبد الله بن الإمام أحمد فى زوائد المسند (٤/ ١٣) من طريق إبراهيم بن حمزة بن مصعب بن الزبير عن عبدالرحمن بن المغيرة الحزامى عن عبد الرحمن بن عياش عن دلهم بن الأسود بن عبد الله بن حاجب بن عامر بن المنتفق العقيلى عن أبيه عن عمه لقيط بن عامر فذكره.

(٣) فى م: «عبيد». (٤) فى ت: «وروى ابن أبى الدنيا بسنده».

(٥) وذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب (٤/ ٥١٨) وقال: «الموقوف أشبه بالصواب».

(٦) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٦/ ٢٠٥) من طريق محمد بن أحمد الزهرى عن مهدى بن حكيم بن مهدى به مرفوعًا.

(٧) فى م: «هو خالد». (٨) فى ت: «صار».

وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩)﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن المنافقين فى بلادتهم وقلة فهمهم، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه ولا يفهمون منه شيئا، فإذا خرجوا من عنده ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من الصحابة: ﴿ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ أى: الساعة، لا يعقلون ما يقال[1]، ولا يكترثون له.

قال الله تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أى: فلا فهم صحيح، ولا قصد صحيح.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ أى: والذين قصدوا الهداية وفقهم الله لها فهداهم إليها، وثبتهم عليها وزادهم منها، ﴿ وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ أى: ألهمهم رُشْدَهم.

وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ أى: وهم غافلون عنها، ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أى: أمارات اقترابها، كقوله تعالى: ﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَىٰ .أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾ [النجم: ٥٦، ٥٧]، وكقوله: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] وقوله: ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقوله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ١]، فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة؛ لأنه خاتم الرسل الذى أكمل الله به الدين، وأقام به الحجة على العالمين. وقد أخبر ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بأمارات الساعة وأشراطها، وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤته نبى قبله، كما هو مبسوط فى موضعه.

وقال الحسن البصرى: بعثة محمد ﷺ من أشراط الساعة. وهو كما قال؛ ولهذا جاء فى أسمائه، عليه السلام، أنه نبى التوبة، ونبى الملحمة، والحاشر الذى يُحشَر الناس على قدميه، والعاقب الذى ليس بعده نبى.

وقال[2] البخارى: حدثنا أحمد بن المقدام، حدثنا فضيل بن سليمان، حدثنا أبو حازم، حدثنا[3] سهل بن سعد قال: رأيتُ رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا، بالوسطى والتى تليها: «بعثت أنا والساعة كهاتين»[4].

ثم قال تعالى: ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ أى: فكيف للكافرين بالتذكر[5] إذا جاءتهم القيامة، حيث لا ينفعهم ذلك[6]، كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر:

---

(١) فى أ: «ما يقول». (٢) فى ت: «وروى». (٣) فى ت: «عن».
(٤) صحيح البخارى برقم (٤٩٣٦).
(٥) فى أ: «بالتذكير». (٦) فى ت: «التذكير».

٢٣]، ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٥٢].

وقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾: هذا إخبار بأنه لا إله إلا الله، ولا يتأتى[١] كونه آمرا بعلم ذلك؛ ولهذا عطف عليه بقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾. وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى، وإسرافى فى أمرى، وما أنت أعلم به منى. اللهم اغفر لى هَزْلى وجدّى، وخَطَئى وعَمْدى، وكل ذلك عندى»[٢]. وفى الصحيح أنه كان يقول فى آخر الصلاة: «اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به منى، أنت إلهى لا إله إلا أنت»[٣]. وفى الصحيح أنه قال: «يأيها الناس، توبوا إلى ربكم، فإنى أستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة»[٤].

وقال[٥] الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عاصم الأحول قال: سمعت[٦] عبد الله، بن سرجس قال: أتيتُ رسول الله ﷺ فأكلت معه من طعامه، فقلت: غفر الله لك يا رسول الله فقلت: أستغفر لك[٧]؟ فقال: «نعم، ولكم»، وقرأ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، ثم نظرت إلى نُغْض كتفه الأيمن ـ أو: كتفه الأيسر، شعبة الذى شك ـ فإذا هو كهيئة الجمع عليه الثآليل.

رواه مسلم، والترمذى، والنسائي[٨]، وابن جرير، وابن أبى حاتم، من طرق، عن عاصم الأحول، به[٩].

وفى الحديث الآخر الذى رواه أبو يعلى: حدثنا مُحَرَّز بن عون[١٠]، حدثنا عثمان بن مطر، حدثنا عبد الغفور، عن أبى نَصِيرَة، عن أبى رجاء، عن أبى بكر الصديق، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار، فأكثروا منهما، فإن إبليس قال: أهلكت[١١] الناس بالذنوب، وأهلكونى بـ «لا إله إلا الله»، والاستغفار فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء، فهم يحسبون أنهم مهتدون»[١٢].

وفى الأثر المروى: «قال إبليس: وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم فى

---

(١) فى أ: «إلا هو ولا ينافى».
(٢) صحيح البخارى برقم (٦٣٩٨).
(٣) صحيح مسلم برقم (٧٦٩).
(٤) صحيح البخارى برقم (٦٣٠٧).
(٥) فى ت: «وروى». (٦) فى ت: «عن».
(٧) فى ت، م، أ: «أستغفر لك رسول الله ﷺ».
(٨) فى ت: «والنسائى وابن ماجه».
(٩) المسند (٥/ ٨٢) ،وصحيح مسلم برقم (٢٣٤٦) والشمائل للترمذى برقم (٢٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٩٦).
(١٠) فى م: «محمد بن عوف» وفى هـ: «محمد بن عون». والتصويب من مسند أبى يعلى.
(١١) فى م: «قال: إنما أهلكت».
(١٢) مسند أبى يعلى (١/ ١٢٣) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٠٧): «فيه عثمان بن مطر وهو ضعيف».

أجسادهم. فقال الله عز وجل: وعزتى وجلالى ولا أزال أغفر لهم ما استغفرونى»[(١)].

والأحاديث فى فضل الاستغفار كثيرة جدا.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ أى: يعلم تصرفكم فى نهاركم ومستقركم فى ليلكم، كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وكقوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]. وهذا القول ذهب إليه ابن جريج، وهو اختيار ابن جرير. وعن ابن عباس: متقلبكم فى الدنيا، ومثواكم فى الآخرة.

وقال السدى: متقلبكم فى الدنيا، ومثواكم فى قبوركم.

والأول أولى وأظهر، والله أعلم.

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣) ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن المؤمنين أنهم تمنوا شرعية الجهاد، فلما فرضه الله، عز وجل[(٢)]، وأمر به نكل عنه كثير من الناس، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء: ٧٧].

وقال هاهنا: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أى: مشتملة على حُكْم القتال؛ ولهذا قال: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أى: من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء. ثم قال مشجعا لهم: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ. طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أى: وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا، أى: فى الحالة الراهنة، ﴿فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ﴾ أى: جد الحال، وحضر القتال، ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ أى: أخلصوا له النية، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

وقوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أى: عن الجهاد ونكلتم عنه، ﴿أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا

(١) رواه أحمد فى مسنده (٣/ ٢٩) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه.

(٢) فى ت: «الله تعالى».

أَرْحَامَكُمْ ﴾ أى: تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء، تسفكون الدماء، وتقطعون الأرحام؛ ولهذا قال: ﴿أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾، وهذا نهى عن الإفساد فى الأرض عموما، وعن قطع الأرحام خصوصا، بل قد أمر [الله][1] تعالى بالإصلاح فى الأرض وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب فى المقال والفعال وبذل الأموال. وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله ﷺ، من طرق عديدة، ووجوه كثيرة.

قال البخارى: حدثنا خالد بن مَخْلَد، حدثنا سليمان، حدثنى معاوية بن أبى مُزَرِّد، عن سعيد ابن يسار[2]، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «خلق الله الخلق، فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن عز وجل، فقال: مه! فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة. فقال: ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذاك[3]». قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾[4].

ثم رواه البخارى من طريقين آخرين، عن معاوية بن أبى مزرد، به.قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾»[5]. ورواه مسلم من حديث معاوية بن أبى مزرد، به[6].

وقال[7] الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، أخبرنا عيينة بن عبد الرحمن بن جوشن، عن أبيه، عن أبى بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أحرى أن يعجل الله عقوبته فى الدنيا، مع ما يدخر لصاحبه فى الآخرة، من البغى وقطيعة الرحم».

رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه، من حديث إسماعيل ـ هو ابن عُلَيَّة ـ به[8]. وقال الترمذى: هذا حديث صحيح.

وقال[9] الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ميمون أبو محمد المرئى، حدثنا محمد بن عباد المخزومى، عن ثوبان، عن رسول الله ﷺ قال: «من سره النِّساء فى الأجل، والزيادة فى الرزق، فليصل رحمه»[10]. تفرد به أحمد، وله شاهد فى الصحيح.

---

(١) زيادة من ت، م، أ.

(٢) فى ت: «فروى البخارى بسنده».

(٣) فى أ: «فذلك لك».

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٨٣٠).

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨٣١، ٤٨٣٢) لكن زاد أبو الحباب بين معاوية وسعيد بن يسار.

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٥٥٤) من طريق معاوية بن أبى مزرد عن عمه أبى الحباب عن سعيد بن يسار به.

(٧) فى ت: «وروى».

(٨) المسند (٥/٣٨) ،وسنن أبى داود برقم (٤٩٠٢) ،وسنن الترمذى برقم (٢٥١١) ، وسنن ابن ماجه برقم (٤٢١١)

(٩) فى ت:«وروى».

(١٠) المسند (٥/٢٧٩) وشاهده حديث أنس بن مالك رضى الله عنه مرفوعا: «من سره أن يبسط عليه رزقه، أو ينسأ فى أثره، فليصل رحمه». رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٩٨٦)، ومسلم فى صحيحه برقم (٢٥٥٧) واللفظ لمسلم.

وقال[١] أحمد أيضا: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حجاج بن أرطاة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لى ذوى أرحام، أصل ويقطعون، وأعفو ويظلمون، وأحسن ويسيئون، أفأكافئهم؟ قال: «لا، إذن تتركون جميعا، ولكن جُدْ بالفضل وصلهم؛ فإنه لن يزال معك ظهير من الله، عز وجل، ما كنت على ذلك»[٢].

تفرد به من هذا الوجه، وله شاهد[٣] من وجه آخر.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يَعْلَى، حدثنا فِطْر، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو[٤] قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرحم معلقة بالعرش، وليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها»، رواه البخارى[٥] [٦].

وقال أحمد: حدثنا بهز، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا قتادة، عن أبى ثمامة الثقفى، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «توضع الرحم يوم القيامة لها حُجْنَة كحجنة المغزل، تتكلم بلسان طُلَقٍ ذُلَقٍ، فتصل من وصلها وتقطع من قطعها»[٧].

وقال[٨] الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا عمرو، عن أبى قابوس، عن عبد الله بن عمرو ـ يبلغ به النبى ﷺ ـ قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض[٩] يرحمكم أهل السماء، والرحم شُجْنَة من الرحمن، من وصلها وصلته، ومن قطعها بتته».

وقد رواه أبو داود[١٠] والترمذى، من حديث سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، به[١١]. وهذا هو الذى يروى بتسلسل الأولية[١٢]، وقال الترمذى: حسن صحيح.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا هشام الدَّسْتَوائى، عن يحيى بن أبى كثير، عن إبراهيم بن عبد الله بن قارظ؛ أن أباه حدثه: أنه دخل على عبد الرحمن بن عوف وهو مريض، فقال له عبد الرحمن: وصلتك رَحِمٌ، إن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: أنا الرحمن، خلقت الرحم وشققت لها من اسمى، فمن يصلها أصله، ومن يقطعها أقطعه فأبته ـ أو قال: من يبتها أبته».

تفرد به من هذا الوجه[١٣]. ورواه أحمد أيضا من حديث الزهرى، عن أبى سلمة، عن الرداد ـ

(١) فى ت: «وروى».
(٢) المسند (٢/ ١٨١).
(٣) فى أ: «شواهد».
(٤) فى ت: «عن ابن عمر».
(٥) فى ت: «انفرد به».
(٦) المسند (٢/ ١٦٣)، وصحيح البخارى برقم (٥٩٩١).
(٧) المسند (٢/ ١٨٩)، قال الهيثمى فى المجمع (٨/ ١٥٠): «رجال أحمد رجال الصحيح غير أبى ثمامة الثقفى، وثقه ابن حبان».
(٨) فى ت: «رواه».
(٩) فى أ: «ارحموا من فى الأرض».
(١٠) فى ت: «وقد رواه أحمد وأبو داود».
(١١) المسند (٢/ ١٦٠)، وسنن أبى داود برقم (٤٩٤١)، وسنن الترمذى برقم (١٩٢٤).
(١٢) وأروى هذا الحديث بالإجازة مسلسلاً بأول ما سمع، إلا أن الأولية تنقطع فيما فوق سفيان، وعلى هذا فشرط المسلسل غير متحقق عند التدقيق.
(١٣) المسند (١/ ١٩١).

أو أبى الردّاد ـ عن عبد الرحمن بن عوف، به[١]. ورواه أبو داود والترمذى، من رواية أبى سلمة، عن أبيه[٢]. والأحاديث فى هذا كثيرة.

وقال الطبرانى: حدثنا على بن عبد العزيز، حدثنا محمد بن عمار الموصلى، حدثنا عيسى بن يونس، عن محمد بن عبد الله بن علاثة[٣]، عن الحجاج بن الفُرَافِصَة، عن أبى عمر البصرى، عن سلمان[٤] قال: قال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»[٥].

وبه قال رسول الله ﷺ: «إذا ظهر القول، وخزن العمل، وائتلفت الألسنة، وتباغضت القلوب، وقطع كل ذى رحم رحمه، فعند ذلك لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم»[٦].

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (٢٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨)﴾.

يقول تعالى آمراً بتدبر القرآن وتفهمه، وناهيا عن الإعراض عنه، فقال: **﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾** أى: بل على قلوب أقفالها، فهى مُطْبَقَة لا يخلص إليها شىء من معانيه.

قال ابن جرير: حدثنا بشر، قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد قال: حدثنا[٧] حماد بن زيد، حدثنا هشام بن عروة، عن أبيه قال: تلا رسول الله ﷺ يوما: **﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾**، فقال شاب من أهل اليمن: بل عليها[٨] أقفالها حتى يكون الله عز وجل يفتحها أو يفرجها. فما زال الشاب فى نفس عمر، رضى الله عنه، حتى ولى، فاستعان به[٩].

ثم قال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم﴾** أى: فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر، **﴿مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾** أى: زين لهم ذلك وحسنه، **﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾** أى: غرهم

---

(١) المسند (١/ ١٩٤) وقال الترمذى فى السنن: «روى معمر عن الزهرى هذا الحديث عن أبى سلمة عن رداد الليثى عن عبد الرحمن ابن عوف، قال محمد ـ يعنى البخارى ـ: حديث معمر خطأ» والصحيح الرواية الآتية فى السنن.

(٢) سنن أبى داود برقم (١٦٢٤)، وسنن الترمذى برقم (١٩٠٧).

(٣) فى هـ: «الحجاج بن يونس». والتصويب من المعجم الكبير.

(٤) فى هـ: «سليمان» والتصويب من المعجم الكبير.

(٥) المعجم الكبير (٦/ ٢٦٣)، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢٨٧): «فيه جماعة لم أعرفهم». وله شاهد من حديث أبى هريرة رواه أحمد فى المسند (٢/ ٢٩٥).

(٦) المعجم الكبير (٦/ ٢٦٣) والكلام عليه كالذى قبله.

(٧) فى ت، م: «ابن».

(٨) فى ت، م: «بل على قلوب».

(٩) تفسير الطبرى (٢٦/ ٣٧).

وخدعهم، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ﴾ أى: مالئوهم وناصحوهم فى الباطن على الباطل، وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون؛ ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أى: [يعلم][1] ما يسرون وما يخفون، الله مطلع عليه وعالم به، كقوله: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ [النساء: ٨١].

ثم قال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾أى: كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم وتعصت الأرواح فى أجسادهم، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب، كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٥٠]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ أى: بالضرب ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١)﴾ .

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ أى: اعتقد[2] المنافقون أن الله لايكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟ بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم[3] ذوو البصائر، وقد أنزل تعالى فىَ ذلك سورة «براءة»، فبين فيها فضائحهم وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم؛ ولهذا إنما كانت تسمى الفاضحة. والأضغان: جمع ضغن، وهو ما فى النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره.

وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ يقول تعالى: ولو نشاء يا محمد لأريناك أشخاصهم، فعرفتهم[4] عيانا، ولكن لم يفعل تعالى ذلك فى جميع المنافقين سترا منه على خلقه، وحملا للأمور على ظاهر السلامة، ورد السرائر إلى عالمها، ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أى: فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم، يفهم المتكلم من أى الحزبين هو بمعانى كلامه وفحواه، وهو المراد من لحن القول، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وفلتات لسانه. وفى الحديث: «ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله

---

(١) زيادة من ت.
(٢) فى م: «أيعتقد».
(٣) فى أ: «يفهمه».
(٤) فى ت: «تعرفهم».

جلبابها، إن خيرا فخير، وإن شرًا فشر»[١]. وقد ذكرنا ما يستدل به على نفاق الرجل، وتكلمنا على نفاق العمل والاعتقاد[٢] فى أول «شرح البخارى»، بما أغنى عن إعادته هاهنا. وقد ورد فى الحديث تعيين جماعة من المنافقين. قال الإمام أحمد:

حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن سلمة، عن عياض بن عياض، عن أبيه، عن أبى مسعود عقبة ابن عمرو، رضى الله عنه، قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن منكم[٣] منافقين، فمن سميت فليقم». ثم قال: «قم يا فلان، قم يا فلان، قم يا فلان». حتى سمى ستة وثلاثين رجلا ثم قال: «إن فيكم ـ أو: منكم[٤] ـ فاتقوا الله». قال: فمر عمر برجل ممن سمى مقنع قد كان يعرفه، فقال: ما لك؟ فحدثه بما قال رسول الله ﷺ، فقال: بعداً لك سائر اليوم[٥].

وقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أى: ولنختبرنكم بالأوامر والنواهى، ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾. وليس فى تقدم علم الله تعالى بما هو كائن أنه سيكون شك ولا ريب، فالمراد: حتى نعلم وقوعه؛ ولهذا يقول ابن عباس فى مثل هذا: إلا لنعلم، أى: لنرى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥)﴾.

يخبر تعالى عمن كفر وصد عن سبيل الله، وخالف الرسول وشاقه، وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى: أنه لن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها، وسيحبط الله عمله فلا يثيبه على سالف ما تقدم من عمله الذى عقبه بردته مثقال بعوضة من خير، بل يحبطه ويمحقه بالكلية، كما أن الحسنات يذهبن السيئات.

وقد قال الإمام محمد بن نصر المروزى فى كتاب الصلاة: حدثنا أبو قدامة، حدثنا وكيع، حدثنا أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية قال[٦]: كان أصحاب رسول الله ﷺ يظنون أنه لا يضر مع «لا إله إلا الله» ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل، فنزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾، فخافوا أن يبطل الذنب العمل.

---

(١) سيأتى تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية: ٢٩ من سورة الفتح.
(٢) فى أ: «النفاق العملى والاعتقادى». (٣) فى ت: «فيكم». (٤) فى ت: «ومنكم».
(٥) المسند (٥/ ٢٧٣) قال الهيثمى فى المجمع (١/ ١١٢): «فيه عياض بن أبى عياض عن أبيه ولم أر من ترجمهما».
(٦) فى ت: «روى الإمام أحمد بإسناده».

ثم روى من طريق عبد الله بن المبارك: أخبرنى بكير بن معروف، عن مقاتل بن حيان، عن نافع، عن ابن عمر قال: كنا معشر أصحاب رسول الله ﷺ نرى أنه ليس شىء من الحسنات إلا مقبول حتى نزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾. فقلنا: ما هذا الذى يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات والفواحش، حتى نزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فلما نزلت كففنا عن القول فى ذلك، فكنا نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش، ونرجو لمن لم يصيبها(١).

ثم أمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله التى هى سعادتهم فى الدنيا والآخرة، ونهاهم عن الارتداد الذى هو مبطل للأعمال؛ ولهذا قال: ﴿وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ أى: بالردة؛ ولهذا قال بعدها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ الآية.

ثم قال لعباده المؤمنين: ﴿فَلا تَهِنُوا﴾ أى: لا تضعفوا عن الأعداء، ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ أى: المهادنة والمسالمة، ووضع القتال بينكم وبين الكفار فى حال قوتكم وكثرة عَدَدكم وعُدَدكم؛ ولهذا قال: ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ أى: فى حال علوكم على عدوكم، فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة(٢) بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام فى المعاهدة والمهادنة مصلحة، فله أن يفعل ذلك، كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة، ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين، فأجابهم إلى ذلك.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾: فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء، ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أى: ولن يحبطها ويبطلها ويسلبكم إياها، بل يوفيكم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئا.

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨)﴾.

يقول تعالى تحقيراً لأمر الدنيا وتهوينا لشأنها: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أى: حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله عز وجل؛ ولهذا قال: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ أى: هو غنى عنكم لا يطلب منكم شيئا، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساة لإخوانكم

(١) تعظيم قدر الصلاة للمروزى برقم (٦٩٨، ٦٩٩).
(٢) فى ت: «فئة كثيرة».

الفقراء، ليعود نفع ذلك عليكم، ويرجع ثوابه إليكم.

ثم قال: ﴿ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾ أى: يحرجكم[١] تبخلوا: ﴿ وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾.

قال قتادة: «قد علم الله أن فى إخراج الأموال إخراج الأضغان». وصدق قتادة فإن المال محبوب، ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه.

وقوله: ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ أى: لا يجيب إلى ذلك ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ﴾ أى: إنما نقص نفسه من الأجر، وإنما يعود وبال ذلك عليه، ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾ أى: عن كل ما سواه، وكل شىء فقير إليه دائما؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ أى: بالذات إليه. فوصفه بالغنى وصف لازم له، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم، [أى][٢]لا ينفكون عنه.

وقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ أى: عن طاعته واتباع شرعه[٣] ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ أى: ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأوامره.

وقال[٤] ابن أبى حاتم، وابن جرير: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرنى مسلم بن خالد، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبى هريرة [رضى الله عنه][٥] أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾، قالوا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين إن تولينا استبدل بنا ثم لا يكونوا أمثالنا؟ قال: فضرب بيده على كتف سلمان الفارسى ثم قال: «هذا وقومه، ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من الفرس»[٦].

تفرد به مسلم بن خالد الزنجى، ورواه عنه غير واحد، وقد تكلم فيه بعض الأئمة، والله أعلم.

آخر تفسير سورة القتال

(١) فى أ: «يحوجكم». (٢) زيادة من ت.

(٣) فى ت: «شرعته»، وفى أ: «شريعته».

(٤) فى ت: «وروى».

(٥) زيادة من ت.

(٦) تفسير الطبرى (٢٦/ ٤٣)، ومسلم بن خالد الزنجى ضعفه ابن معين، وقال البخارى: منكر الحديث لكنه لم ينفرد به، فقد توبع:

١ـ تابعه شيخ من أهل المدينة عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه به، أخرجه الترمذى برقم (٣٢٦٠) وقال: «هذا حديث غريب فى إسناده مقال».

٢ـ وتابعه عبد الله بن جعفر بن نجيح عن العلاء عن أبيه به، أخرجه الترمذى برقم(٣٢٦١) وعبد الله بن جعفر والد على بن المدينى ضعيف.

سورة محمّد عليه السلام

مدنيّة،[1] وقيل:[2] مكّيّة، وهي[3] تسع[4] وثلاثون آيةً،[5]
وقيل: ثمانٍ وثلاثون.[6] وتسمّى سورة القتال أيضًا.[7]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١﴾

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: أعرَضوا عن الإسلام وسلوكِ طريقه، مِن "صَدَّ صُدودًا"، أو مَنَعوا الناس عن ذلك، مِن "صَدَّه صَدًّا"، كالمُطعِمِين يوم بدر.[8] وقيل: هم اثنا عشر رجلًا مِن أهل الشرك، كانوا يصدّون الناس عن الإسلام، ويأمرونهم بالكفر. وقيل: أهل الكتاب الذين كفروا وصدّوا مَن أراد منهم ومِن غيرهم أن يدخل في الإسلام. وقيل: هو عامّ في كلّ مَن كفَر وصدّ.

﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: أبطلَها وأحبطَها، وجعلها ضائعةً لا أثرَ لها أصلًا، لكن لا بمعنى أنّه أبطلَها وأحبطَها بعد أن لم يكن كذلك؛ بل بمعنى أنّه حكم ببطلانها وضَياعها، فإنّ ما كانوا يعملونها مِن أعمال البرّ كصِلة الأرحام وقِرى الأضياف وفكِّ الأسارى وغيرِها مِن المكارم ليس لها أثر مِن أصلها؛ لعدم مقارنتها للإيمان، أو أبطلَ ما عملوه مِن الكيد لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم

---

١ س + عند مجاهد. | انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣١٤/٤.

٢ س: وقال الضحّاك وسعيد بن جبير. | انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣١٤/٤.

٣ ي - مدنيّة، وقيل: مكّيّة، وهي.

٤ ي: سبع. | و"تسع" أصحّ. قال الداني: «وهي ثلاثون وثماني آيات في الكوفي، وتسع في المدنيّين والمكّي والشامي، وأربعون آيةً في البصري». البيان للداني، ص ٢٢٨.

٥ س ي - آية.

٦ س + آية؛ ي + آية مدنيّة.

٧ س ي - وتسمّى سورة القتال أيضًا.

٨ المطعِمون يومَ بدر اثنا عشر رجلًا، كلّهم مِن قريش، كان يطعم كلّ واحد منهم عشرَ جزر. انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٣٥٥/٤ (الأنفال، ٣٦/٨)؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٤٥٨/٢ (الأنفال، ٣٦/٨).

والصدِّ عن سبيله بنصر رسوله وإظهارِ دينه على الدّين كلّه. وهو الأوفق لِما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾،[١] وقولِه تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ﴾... إلخ.[٢]

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ۝٢﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قيل: هم ناسٌ مِن قريش. وقيل: مِن
[٩٦و] الأنصار. وقيل: هم مؤمنو أهل الكتاب. / وقيل: عامّ للكلّ. ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ﴾ خُصّ بالذكر الإيمانُ بذلك مع اندراجه فيما قبله تنويهًا بشأنه، وتنبيهًا على سموّ مكانه مِن بين سائر ما يجب الإيمان به، وأنّه الأصل في الكلّ، ولذلك أُكِّد بقوله تعالى:[٣] ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ بطريق حصر الحقّيّة فيه. وقيل: حقّيّته بكونه ناسخًا غيرَ منسوخ، فـ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ على هذا مقابل الزائل، وعلى الأوّل مقابل الباطل. وأيًّا ما كان فقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّهِمۡ﴾ حال مِن ضمير ﴿ٱلۡحَقُّ﴾. وقُرئ: "نَزَّلَ"[٤] على البناء للفاعل، و"أنزلَ" على البناءَين،[٥] و"نَزَلَ" بالتخفيف.[٦]

﴿كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ أي: سترها بالإيمان والعمل الصالح، ﴿وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾ أي: حالَهم في الدين والدنيا بالتأييد والتوفيق.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ۝٣﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما مرّ مِن إضلال الأعمال، وتكفيرِ السيّئات، وإصلاح البال. وهو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

---

١ محمد، ٤٧/٨.
٢ محمد، ٤٧/٤.
٣ م - تعالى.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ وابن مقسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٨.
٥ "أَنزَلَ" قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. و"أُنزِلَ" قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٨؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٤٥٩.
٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٨.

﴿ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي: ذلك كائن بسبب أنّ الأوّلين اتّبعوا الشيطان -كما قاله مجاهد-[١] ففعلوا ما فعلوا مِن الكفر والصدّ. فبيان سببيّة اتّباعه للإضلال المذكور متضمِّن لبيان سببيّتهما له، لكونه أصلًا مستتبِعًا لهما قطعًا. وبسبب أنّ الآخرين اتّبعوا الحقّ الذي لا محيدَ عنه كائنًا مِن ربّهم، ففعلوا ما فعلوا مِن الإيمان به وبكتابه، ومِن الأعمال الصالحة. فبيان سببيّة اتّباعه لِما ذُكر مِن التكفير والإصلاح بعد الإشعار بسببيّة الإيمان والعمل الصالح له متضمِّن لبيان سببيّتهما له، لكونه مَبدأً ومَنشأً لهما حتمًا، فلا تدافُعَ بين الإشعار والتصريح في شيء مِن الموضعين.

ويجوز أن يُحمل ﴿ٱلْبَٰطِلَ﴾ على ما يقابل "الحقّ"؛ وهو الزائل الذاهب الذي لا أصلَ له أصلًا، فالتصريح بسببيّة اتّباعه لإضلال أعمالهم وإبطالِها لبيان أنّ إبطالها لبطلان مَبناها وزوالِه.

وأمّا حملُه على ما لا يُنتفَع به[٢] فليس كما ينبغي، لِما أنّ الكفر والصدّ أفحشُ منه، فلا وجهَ للتصريح بسببيّته لِما ذُكر[٣] بطريق القَصر بعد الإشعار بسببيّتهما له، فتدبّر.

ويجوز / أن يرادَ بـ﴿ٱلْبَٰطِلَ﴾ نفسُ الكفر والصدّ، وبـ﴿ٱلْحَقَّ﴾ نفسُ الإيمان والأعمال الصالحة، فيكونَ التنصيص على سببيّتهما لِما ذُكر مِن الإضلال ومِن التكفير والإصلاح تصريحًا بالسببيّة المشعَر بها في الموقعين. [٩٦ظ]

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثلَ ذلك الضرب البديع ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ﴾ أي: يُبيّن ﴿لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ أي: أحوالَ الفريقين وأوصافَهما الجاريةَ في الغرابة مَجرى الأمثال، وهي اتّباع الأوّلين الباطلَ وخيبتُهم وخسرانُهم، واتّباع الآخرين الحقَّ وفوزُهم وفلاحُهم.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ④﴾

---

١ جامع البيان للطبري، ٢١/١٨٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٣١٥.

٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤/٣١٥.

٣ وفي هامش م: مِن إضلال أعمالهم. «منه».

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لترتيب ما في حيّزها مِن الأمر على ما قبلها، فإنّ ضلال أعمال الكفرة وخيبتَهم، وصلاحَ أحوال المؤمنين وفلاحَهم؛ ممّا يوجب أن يُرتَّب[١] على كلٍّ مِن الجانبَين ما يَليق به مِن الأحكام، أي: فإذا كان الأمر كما ذُكر فإذا لقيتموهم في المحاربة ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ أصلُه: "فاضربوا الرِّقاب ضربًا"، فحُذف الفعل، وقُدّم المصدر، وأُنيبَ منابَه مضافًا إلى المفعول، وفيه اختصار وتأكيد بليغ. والتعبير به عن القتل تصويرٌ له بأشنع صُوَرِه، وتهويلٌ لأمره، وإرشادٌ للغزاة إلى أيسر ما يكون منه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أي: أكثرتم قَتلَهم، وأغلظتموه، مِن "الشيء الثَّخِين"، وهو الغليظ، أو أثقلتموهم بالقتل والجراح حتّى أذهبتم عنهم النهوضَ، ﴿فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾ فأسِرُوهم واحفَظوهم. و﴿ٱلْوَثَاقَ﴾ اسم لما يوثَق به، وكذا "الْوِثَاقَ" بالكسر، وقد قُرئ بذلك.[٢]

﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ أي: فإمّا تَمنُّون بعد ذلك مَنًّا، أو تَفْدُون فِداءً. والمعنى التخيير بين القتل والاسترقاق والمَنّ والفداء، وهذا ثابت عند الشافعي رحمه الله،[٣] وعندنا منسوخ،[٤] قالوا: نزَل ذلك يوم بدر، ثُمّ نُسخ، والحُكم إمّا القتل أو الاسترقاق. وعن مجاهد: «ليس اليوم مَنٌّ ولا فِداء، إنّما[٥] هو الإسلام أو ضرب العنُق».[٦] وقُرئ: "فَدًا"[٧] كـ"عَصًا".

﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أوزارُ الحرب: آلاتها وأثقالها التي لا تقوم إلّا بها مِن السلاح والكراع. أُسنِد وضعها إليها وهو لأهلها / إسنادًا مجازيًّا. [٩٧و]

---

١ س: يترتّب.

٢ لم أجد مَن صرّح بأنّها قراءة غير المؤلّف، وظاهر كلام المفسّرين أنّها لغة. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٣١٦/٤؛ **وأنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٢٠/٥؛ **والبحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٦١/٩.

٣ انظر: **الأمّ** للشافعي، ١٨٧/٤؛ **والحاوي الكبير** للماوردي، ٤٠٩/٨.

٤ انظر: **المبسوط** للسرخسي، ٢٤/١٠؛ ١٣٨/١٠؛ **والدرّ المختار** للحصكفي **وحاشية ابن عابدين**، ١٣٩/٤.

٥ س ي: وإنّما.

٦ **الكشّاف** للزمخشري، ٣١٦/٤. وانظر: **مصنّف عبد الرزّاق**، ٢١٠/٥ (٩٤٠٤).

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن محيصن وشِبل عن ابن كثير. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٣٩.

و﴿حَتَّىٰٓ﴾ غاية عند الشافعي رحمه الله لأحد الأمور الأربعة، أو للمجموع، والمعنى: أنّهم لا يزالون على ذلك أبدًا إلى أن لا يكون مع المشركين حرب بأن لا تبقى لهم شَوكة. وقيل: بأن ينزل عيسى عليه السلام.[١]

وأمّا عند أبي حنيفة رضي الله عنه[٢] فإن حُمِلَ الحربُ على حرب بدر فهي غاية للمَنّ والفداء، والمعنى: يُمَنّ عليهم ويُفادَون حتّى تضع حربُ بدرٍ أوزارَها، وإن حُمِلَت على الجنس فهي غاية للضرب والشدّ، والمعنى: أنّهم يُقتَلون ويُؤسَرون حتّى يضع جنس الحرب أوزارَها بأن لا يبقى للمشركين شَوكة.

وقيل: ﴿أَوۡزَارَهَا﴾ آثامها، أي: حتّى يَترك المشركون شِركَهم ومعاصِيَهم بأن أسلموا.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر ذلك، أو افعلوا ذلك، ﴿وَلَوۡ يَشَآءُ[٣] ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ﴾ لَانتقَمَ منهم ببعض أسباب الهلَكة والاستئصال، ﴿وَلَٰكِن﴾ لم يشأ ذلك ﴿لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖ﴾ فأمرَكم بالقتال، وبَلاكم بالكافرين لتجاهدوهم فتستوجبوا الثواب العظيم بموجَب الوعد، والكافرين بكم ليعاجلَهم على أيديكم ببعض عذابهم كي يرتدع بعضهم عن الكفر.

﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: استُشهِدوا. وقُرئ: "قَاتَلُوا"،[٤] أي: جاهَدوا وقُتِلوا وقَتَلُوا. ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي: فلَن يُضَيِّعَها. وقُرئ: "تُضَلَّ أَعْمَالُهُمْ"[٥] على البناء للمفعول، و"تَضِلَّ أَعْمَالُهُمْ"[٦] مِن "ضَلَّ".

---

١ تفسير مجاهد، ص ٦٠٤.

٢ س: رحمه الله.

٣ م س ي: شاء.

٤ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وخَلف وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٧٤/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ رضي الله عنه. الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٦٨٦/٩. وهي في مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤١؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٦٣/٩؛ واللباب لابن عادل، ٤٣٣/١٧، كذلك لكن بـ"الياء".

٦ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٦٨٦/٩؛ واللباب لابن عادل، ٤٣٤/١٧. وهي في مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤١، عن عليّ رضي الله عنه لكن بـ"الياء". وفي شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٩، عن الحسن كذلك بـ"الياء".

وعن قتادة أنّها نزلت في يوم أُحُد.[١]

﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾

﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ في الدنيا إلى أرشدِ الأمور، وفي الآخرة إلى الثواب، أو سَيُثبِت هدايتَهم، ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ في الدنيا بذكر أوصافها بحيث اشتاقوا إليها، أو بيّنها لهم بحيث يعلم كلّ أحد مَنزِله ويهتدي إليه، كأنّه كان ساكِنَه مُذ خُلق. وعن مقاتل: «أنّ الملَك الموكَّل بعمله في الدنيا يمشي بين يديه، فيُعرّفه كلَّ شيء أعطاه الله تعالى».[٢] أو طيَّبها لهم، مِن "العَرْف"، وهو طِيب الرائحة، أو حدّدَها لهم وأفرزها، مِن "عَرَّفَ الدارَ"، فجنّة كلّ منهم محدَّدة مُفرَزة. والجملة إمّا مستأنفة، أو حال بإضمار "قد"، أو بدونه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: دينَه ورسولَه ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ على أعدائكم، ويَفتَحْ لكم، ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ في مواطن الحرب ومواقفِها، أو على مَحجّة الإسلام.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٨﴾

[٩٧ظ] / ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ التَّعْس: الهلاك، والعِثار، والسقوط، والشرّ، والبُعد، والانحطاط. ورَجلٌ تاعِس وتَعِسٌ. وانتصابه بفعله الواجبِ حذفُه سماعًا، أي: فقال: تَعْسًا لهم، أو فقضَى تَعْسًا لهم. وقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ عطفٌ عليه، داخلٌ معه في حيّز الخبريّة للموصول.

---

[١] وفي هامش م: أي: في شأنه. «منه». | الكشّاف للزمخشري، ٣١٨/٤. وانظر: تفسير عبد الرزّاق، ٢٠٤/٣ (٢٨٧٣)؛ وجامع البيان للطبري، ١٩١/٢١. وفي جامع البيان للطبري، ١٩٠/٢١، كذلك عنه أنّ هذه الآية أنزلت يومَ أحُد ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم في الشِّعب.

[٢] الكشّاف للزمخشري، ٣١٨/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٦٣/٩.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن التَّعْس وإضلالِ الأعمال ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنّهم ﴿كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ مِن القرآن، لِما فيه مِن التوحيد وسائرِ الأحكام المخالفة لِما ألِفوه واشتَهتْه أنفسهم الأمّارة بالسوء، ﴿فَأَحْبَطَ﴾ لأجلِ ذلك ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ التي لو كانوا عملوها مع الإيمان لَأُثِيبوا عليها.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ۝١٠﴾

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أَقَعَدُوا في أماكنهم فلم يسيروا فيها، ﴿فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِن الأمم المكذِّبة، فإنّ آثارَ ديارهم تُنبئ عن أخبارهم.

وقوله تعالى: ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن الكلام، كأنّه قيل: كيف كان عاقبتهم؟ فقيل: استأصل الله عليهم ما اختصّ بهم مِن أنفسهم وأهليهم وأموالهم. يقال: "دمّره" أهلكه، و"دمَّرَ عليه" أهلَك عليه ما يختصّ به.

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: ولهؤلاء الكافرين السائرين بسيرتهم ﴿أَمْثَٰلُهَا﴾ أمثالُ عواقبهم، أو عقوباتِهم، لكن لا على أنّ لهؤلاء أمثالَ ما لأُولئك وأضعافَه؛ بل مِثلَه، وإنّما جُمع باعتبار مماثلته لعواقب متعدّدة حسب تعدّد الأمم المعذَّبة. وقيل: يجوز أن يكون عذابهم أشدّ مِن عذاب الأوّلين، وقد قُتِلوا وأُسروا بأيدي مَن كانوا يستخفّونهم ويستضعفونهم، والقتل بيد المِثل أشدّ ألَمًا مِن الهلاك بسبب عامّ. وقيل: المراد بـ"الكافرين" المتقدِّمون، بطريق وضع الظاهر موضع الضمير، كأنّه قيل: دمَّر الله عليهم في الدنيا، ولهم في الآخرة أمثالها.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝١١﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ثبوت أمثال عقوبة الأمم السابقة لهؤلاء ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: ناصِرُهم على أعدائهم. وقُرئ: "وَلِيُّ الذِينَ"...[١] إلخ.[٢]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. الكشّاف للزمخشري، ٤/٣١٩.

٢ س ي - إلخ.

﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ فيدفع عنهم ما حَلّ بهم مِن العقوبة والعذاب، ولا يخالف هذا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام، ٦٢/٦]، فإنّ "المَولى" هناك بمعنى "المالك".

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بيان لحُكم ولايته تعالى لهم، وثمرتِها الأخرويّة.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ﴾ أي: ينتفعون في الدنيا بمتاعها، ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا / تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ غافلين عن عواقبهم، ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: مَنزلُ ثواءٍ وإقامة. [٩٨و]
والجملة إمّا حال مقدّرة مِن واو ﴿يَأْكُلُونَ﴾، أو استئناف.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾

﴿وَكَأَيِّن﴾ كلمة مركّبة مِن "الكاف" و"أيّ"، بمعنى "كم" الخبريّة، ومحلّها الرفع بالابتداء. وقوله تعالى: ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ تمييز لها. وقوله تعالى: ﴿هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ﴾ صفة لـ﴿قَرْيَةٍ﴾، كما أنّ قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ صفة لـ﴿قَرْيَتِكَ﴾، وقد حُذف عنهما المضاف، وأجريَ أحكامه عليهما، كما يُفصح عنه الخبر الذي هو قوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ أي: وكم مِن أهل قريةٍ هم أشدّ قوّةً مِن أهل قريتك الذين كانوا سببًا لخروجك مِن بينهم.

ووصفُ القرية الأُولى بشدّة القوّة للإيذان بأولويّة الثانية منها بالإهلاك لضَعف قوّتها، كما أنّ وصف الثانية بإخراجه عليه السلام للإيذان بأولويّتها به لقوّة جنايتها، وعلى طريقته قولُ النابغة:

كُلَيبٌ لَعمري كان أكثرَ ناصرًا   وأيسَرَ جُرمًا مِنك ضُرِّج بالدّمِ[١]

وقوله تعالى: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ بيان لعدم خلاصهم مِن العذاب بواسطة الأعوان

---

[١] ديوان النابغة الجعدي، ص ١٦٦.

والأنصار إثرَ بيان عدم خلاصهم منه بأنفسهم. و"الفاء" لترتيب ذِكر ما بالغير على ذكر ما بالذات، وهو حكاية حال ماضية.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ١٤﴾

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ تقرير لتباين حالَي فريقي المؤمنين والكافرين، وكونِ الأوّلين في أعلى علّيّين، والآخرين في أسفل سافلين، وبيانٌ لِعلّة ما لكلٍّ منهما مِن الحال. و"الهمزة" للإنكار، و"الفاء" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، وقد قُرئ بدونها.[1]

و﴿مَن﴾ عبارة عن المؤمنين المتمسّكين بأدلّة الدين. وجعلُها عبارةً عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم[2] أو عنه وعن المؤمنين[3] لا يساعده النظم الكريم، على أنّ الموازنة بينه عليه السلام وبينهم ممّا يأباه منصبه الجليل.

والتقدير: أليس الأمر كما ذُكِر؟ فمَن كان مستقِرًّا على حجّة ظاهرة وبرهانٍ نَيِّرٍ مِن مالكِ أمره / ومربّيه، وهو القرآن الكريم وسائرُ المعجزات والحججِ [٩٨ظ]
العقليّة ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ مِن الشرك وسائر المعاصي مع كونه في نفسه أقبحَ القبائح.

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ﴾ بسبب ذلك التزيين ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ الزائغةَ، وانهمكوا في فنون الضلالات مِن غير أن يكون لهم شبهةٌ تُوهم صحّة ما هم عليه، فضلًا عن حجّة تدلّ عليه. وجمع الضميرَين الأخيرَين باعتبار معنى ﴿مَن﴾، كما أنّ إفراد الأوّلين باعتبار لفظها.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ١٥﴾

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٩.

[2] س: عليه السلام. | قاله الزمخشري في الكشّاف، ٣٢٠/٤.

[3] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ١٢١/٥.

﴿مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ استئناف مَسوق لشرح محاسن الجنّة الموعودة آنِفًا للمؤمنين، وبيانِ كيفيّة أنهارها التي أشيرَ إلى جريانها مِن تحتها. وعُبّر عنهم بالمتّقين إيذانًا بأنّ الإيمان والعمل الصالح مِن باب التقوى الذي هو عبارة عن فعل الواجبات بأسرها، وتركِ السيّئات عن آخرها.

و"مَثَلُها" وصفُها العجيب الشأنِ. وهو مبتدأ محذوف الخبرِ، فقدَّره النضر بن شُميل:[١] "مَثَلُ الجنّة ما تسمعون".[٢] وقوله تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾... إلخ مفسِّر له، وقدّره سيبويه: "فيما يُتلى عليكم مَثَلُ الجنّة".[٣] والأوّل هو الأنسب بصَدر النظم الكريم. وقيل: "المَثَل" زائدة كزيادة "الاسم" في قول مَن قال:

إلى الحول ثمّ اسمُ السلام عليكما[٤]

و﴿ٱلْجَنَّةِ﴾ مبتدأ، خبره ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾... إلخ.

﴿مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ أي: غيرِ متغيّرِ الطعم والرائحة. وقُرئ: "غَيْرِ أَسِنٍ".[٥]

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ بأن صار قارِصًا[٦] ولا حازِرًا[٧] كألبان الدنيا. ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ لذيذةٍ ليس فيها كراهةُ طعم وريح، ولا غائلةُ سُكر وخمار، وإنّما هي تلذّذ مَحض. و﴿لَّذَّةٍ﴾ إمّا تأنيث "لَذّ" بمعنى "لَذيذ"، أو مصدر نُعِت به مبالغةً. وقُرئ: "لَذَّةٌ" بالرفع[٨] على أنّها صفة ﴿أَنْهَٰرٌ﴾، وبالنصب[٩] على العلّة،

---

١ هو النَّضر بن شُمَيل بن خَرَشة بن زيد المازني البصري، أبو الحسن (ت. ٢٠٣هـ/٨١٩م)، العلّامة، الحافظ، النحوي. أحد الأعلام بمعرفة أيّام العرب ورواية الحديث وفقه اللغة. ولد بمَرو مِن بلاد خُراسان، وانتقل إلى البصرة مع أبيه -وأصله منها- فأقام زمنًا، وعاد إلى مَرو فوَلي قضاءها. واتّصل بالمأمون العبّاسي فأكرمه وقرّبه. وتُوفّي بمَرو. مِن كتبه **الصفات**، **والسلاح**، **والمعاني**، **وغريب الحديث**، **والأنواء**. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٣٢٨/٩؛ **والأعلام** للزركلي، ٣٣/٨.

٢ **المحرّر الوجيز** لابن عطيّة، ١١٤/٥؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٤٠/١٧.

٣ انظر: **الكتاب** لسيبويه، ١٤٣/١.

٤ تمامه:

ومَن يَبكِ حَولًا كامِلًا فقدِ اعتذَرْ

وهو للَبيد بن ربيعة العامري في ديوانه، ص ٢١٤.

٥ قرأ بها ابن كثير. **النشر** لابن الجزري، ٣٧٤/٢.

٦ القارِص: اللبَن الذي يَحذي اللسان. **الصحاح** للجوهري، «قرص».

٧ الحازِر: اللبَن الحامِض، وقد حَزَرَ اللبَن، أي: حَمِض. **الصحاح** للجوهري، «حرز».

٨ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٣٩؛ **والبحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٦٧/٩.

٩ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٣٩؛ **والبحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٦٧/٩.

أي: لأجل لذّة الشاربين. ﴿وَأَنْهَٰرٞ مِّنْ عَسَلٖ مُّصَفّٗى﴾ لا يخالِطه الشمع / وفضلاتُ [٩٩و] النحل وغيرها.

وفي هذا تمثيل لِما يجري مَجرى الأشربة في الجنّة بأنواع ما يُستطاب منها ويُستلذّ في الدنيا بالتخلية عمّا ينغِّصها وينقِّصها، والتحليةِ بما يوجب غَزارتها ودَوامها.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا﴾ مع ما ذكر مِن فنون الأنهار ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: صِنفٌ مِن كلّ الثمرات، ﴿وَمَغْفِرَةٞ﴾ أي: ولهم مغفرة عظيمة لا يُقادَر قدرُها.

وقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ متعلّق بمحذوف هو صفة لـ﴿مَغْفِرَةٞ﴾، مؤكِّدةٌ[١] لِما أفاده التنكير مِن الفخامة الذاتيّة بالفخامة الإضافيّة، أي: كائنةٌ مِن ربّهم.

وقوله تعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: أمَن هو خالد في هذه الجنّة حسبما جرى به الوعد كمَن هو خالد في النار، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوٗى لَّهُمْ﴾؟[٢] وقيل: هو خبر لـ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ على أنّ في الكلام حذفًا، تقديرُه: أَمَثَلُ الجنّة كمَثَل جزاء مَن هو خالد في النار؟ أو أَمَثَلُ أهل الجنّة كمَثَل مَن هو خالد في النار؟ فعُرِّي عن حرف الإنكار وحُذف ما حُذف تصويرًا لمكابرة مَن يسوّي بين المتمسِّك بالبيّنة وبين التابع للهوى بمكابَرة مَن سوّى بين الجنّة الموصوفة بما فُصّل مِن الصفات الجليلة وبين النار.

﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا﴾ مكانَ تلك الأشربة ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ مِن فَرط الحرارة. قيل: إذا دنا منهم شَوى وجوهَهم، وانمازَت فَروةُ رءوسهم، فإذا شربوه قَطّع أمعاءهم.[٣]

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ١٦﴾

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ هم المنافقون، وإفراد الضمير باعتبار لفظة ﴿مَن﴾، كما أنّ جمعه فيما سيأتي باعتبار معناها. كانوا يحضرون مجلس

---

١ س: مؤكّد.

٢ محمد، ٤٧/١٢.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٩/١٣٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٢٢.

رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيسمعون كلامه ولا يَعُونه ولا يُراعونه حقّ رعايته تهاونًا منهم.

[٩٩ظ] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ / مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ مِن الصحابة رضي الله عنهم ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ أي: ما الذي قال الساعةَ؟ على طريقة الاستهزاء، وإن كان بصورة الاستعلام. و﴿ءَانِفًا﴾ مِن قولهم: "أَنْفُ الشيءِ" لِما تقدّم منه، مستعارٌ مِن الجارحة، ومنه "استَأنَفَ الشيءَ" و"ائْتَنَفَ"، وهو ظرف بمعنى "وقتًا مُؤْتَنَفًا"، أو حال مِن الضمير في ﴿قَالَ﴾. وقُرِئ: "أَنِفًا".[١]

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر ﴿ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ لعدم توجّهها نحو الخير أصلًا، ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الباطلةَ، فلذلك فعلوا ما فعلوا ممّا لا خيرَ فيه.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ﴾ إلى طريق الحقّ ﴿زَادَهُمْ﴾ أي: الله تعالى ﴿هُدًى﴾ بالتوفيق والإلهام، ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ أعانَهم على تقواهم، أو أعطاهم جزاءها، أو بيّنَ لهم ما يتّقون.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ أي: القيامةَ. وقوله تعالى: ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي: تُباغِتَهم بغتةً، وهي المفاجأة؛ بدل اشتمال مِن الساعة. والمعنى: أنّهم لا يتذكّرون بذكر أحوال الأمم الخالية، ولا بالإخبار بإتيان الساعة وما فيها مِن عظائم الأهوال، وما ينتظرون للتذكّر إلّا إتيانَ نفسِ الساعة بغتةً. وقُرِئ: "بَغَتّةً" بفتح "الغين".[٢]

---

[١] قرأ بها البزّي عن ابن كثير بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٧٤/٢.

[٢] أي: وتشديد "التاء". قراءة شاذّة، مرويّة عن الجعفي وهارون عن أبي عمرو. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٩؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٦٨/٩.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ تعليل لمفاجأتها، لا لإتيانها مطلقًا، على معنى أنّه لم يبقَ مِن الأمور الموجِبة للتذكّر أمر مترقّب ينتظرونه سوى إتيان نفس الساعة؛ إذ قد جاء أشراطُها، فلم يرفعوا لها رأسًا، ولم يعدّوها مِن مبادي إتيانها، فيكون إتيانُها بطريق المفاجأة لا محالةَ. و"الأشراط" جمع "شَرَط" بالتحريك، وهي العلامة، والمراد بها مَبعثه صلّى الله عليه وسلّم[1] وانشقاقُ القمر ونحوُهما.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ حكمٌ بخطئهم وفساد رأيهم في تأخير التذكّر إلى إتيانها ببيان استحالة نفع التذكّر حينئذ، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ / وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر، ٨٩/٢٣]، أي: وكيف لهم ذكراهم إذا [١٠٠و] جاءتهم، على أنّ ﴿أَنَّىٰ﴾ خبر مقدَّم، و﴿ذِكْرَىٰهُمْ﴾ مبتدأ، و﴿إِذَا جَآءَتْهُمْ﴾ اعتراض وُسِط بينهما رمزًا إلى غاية سرعة مجيئها. وإطلاق المجيء عن قيد البغتة لِما أنّ مدار استحالة نفع التذكّر كونه عند مَجيئه مطلَقًا لا مقيّدًا بقيد البغتة. وقُرئ: "إنْ تأْتِهِمْ"،[2] على أنّه شرط مستأنف، جزاؤه: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ﴾... إلخ. والمعنى: إن تأتِهم الساعة بغتةً لأنّه قد ظهَر أماراتها فكيف لهم تذكّرهم واتّعاظهم إذا جاءتهم؟

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: إذا علمت أنّ مدار السعادة هو التوحيد والطاعة، ومناطَ الشقاوة هو الإشراك والعصيان، فاثبُت على ما أنت عليه مِن العلم بالوحدانيّة والعملِ بموجَبه.

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ وهو الذي ربّما يصدر عنه عليه السلام مِن ترك الأَولى، عُبّر عنه بالذنب نظرًا إلى منصبه الجليل، كيف لا، وحسناتُ الأبرار سيّئات المقرّبين، وإرشادًا له عليه السلام إلى التواضع وهَضمِ النفس واستقصارِ العمل.

---

١ س: عليه السلام.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جعفر الرواسي عن أهل مكّة. انظر: **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٣٩؛ **والبحر المحيط** لأبي حيّان، ٩/٤٦٨.

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: لذنوبهم بالدعاء لهم وترغيبِهم فيما يستدعي غفرانَهم. وفي إعادة صلة الاستغفار تنبيه على اختلاف متعلَّقَيه جنسًا. وفي حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مُقامه إشعار بعَراقتهم في الذنب، وفرطِ افتقارهم إلى الاستغفار.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في الدنيا، فإنّها مراحلُ لا بدَّ مِن قطعها لا محالةَ، ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ في العُقبى، فإنّها مَوطن إقامتكم، فلا يأمرُكم إلّا بما هو خير لكم فيهما، فبادِروا إلى الامتثال بما أمَركم به، فإنّه المهمّ لكم في المَقامين. وقيل: يعلم جميع أحوالكم، فلا يخفى عليه شيء منها.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٠﴾

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ حِرصًا منهم على الجهاد: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي: هلّا نُزّلت سورة نُؤمر فيها بالجهاد. ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ بطريق الأمر به، أي: سورة مبيَّنة، لا تشابهَ ولا احتمالَ فيها لوجهٍ آخَر سوى وجوب القتال. عن قتادة: «كلّ / سورة فيها ذِكرُ القتال فهي محكَمة لم تُنسخ».[1] [١٠٠ظ]
وقُرئ: "فَإِذَا نَزَلَتْ سُورَةٌ".[2] وقُرئ: "وَذَكَرَ" على إسناد الفعل إلى ضميره تعالى ونصبِ ﴿ٱلْقِتَالُ﴾.[3]

﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: ضعفٌ في الدين، وقيل: نفاقٌ، وهو الأظهر الأوفق لسياق النظم الكريم. ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: تشخَص أبصارهم جُبنًا وهلَعًا كدأب مَن أصابته غَشية الموت.

﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: فويل لهم. وهو "أَفْعَلَ" مِن "الوَلْي"، وهو القُرب. وقيل: مِن "آلَ". ومعناه الدعاء عليهم بأن يليَهم المكروه، أو يئُولَ إليه أمرهم. وقيل: هو مشتَقّ مِن "الويل"، وأصله "أَوْيَلُ" فقُلبت "العين" إلى ما بعد "اللام"، فوزنه "أَفْلَعُ".

---

١ جامع البيان للطبري، ٢١٠/٢١؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٥/٩.
٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٢٤/٤.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ وابن عمير. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٧٠/٩.

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۝٢١ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ۝٢٢﴾

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ كلام مستأنَف، أي: أمرُهم طاعةٌ... إلخ، أو طاعةٌ وقولٌ معروف خيرٌ لهم، أو حكايةٌ لقولهم، ويؤيّده قراءة أبيّ: "يَقُولُونَ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ"،[1] أي: أمرُنا ذلك.

﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أسنَد العزمَ -وهو الجِدّ- إلى الأمر -وهو لأصحابه- مجازًا، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ[2] مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان، ١٧/٣١]. وعامِل الظرف محذوف، أي: خالَفوا وتخلّفوا. وقيل: ناقضوا. وقيل: كرِهوا. وقيل: هو قوله تعالى: ﴿فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ﴾ على طريقة قولك: "إذا حضَرَني طعام فلو جئتَني لَأطعمتك"، أي: فلو صدَقوه تعالى فيما قالوا مِن الكلام المنبئ عن الحرص على الجهاد بالجري على موجَبه ﴿لَكَانَ﴾ أي: الصدقُ ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾. وفيه دلالة على اشتراك الكلّ فيما حُكي عنهم مِن قوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾.[3] وقيل: فلو صدَقوه في الإيمان، وواطأت قلوبُهم في ذلك ألسنتَهم.

وأيًا ما كان فالمراد بهم الذين في قلوبهم مرض، وهم المخاطَبون بقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾... إلخ بطريق الالتفات لتأكيد التوبيخ وتشديدِ التقريع، أي: هل يُتوقَّع منكم ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أمورَ الناس وتأمَّرتم عليهم ﴿أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾ تناحُرًا على المُلْك وتَهالكًا على الدنيا، فإنّ مَن شاهَد أحوالَكم الدالّة على الضعف في الدين والحِرص على الدنيا حين أُمِرتم بالجهاد الذي هو عبارة عن إحرازِ كلِّ خير وصلاح، ودفعِ كلِّ شرّ وفساد، / وأنتم مأمورون، شأنُكم الطاعة والقولُ المعروف؛ يَتوقَّع منكم إذا أُطلِقت [١٠١و]
أعِنّتكم وصِرتم آمِرين ما[4] ذُكر مِن الإفساد وقَطع الأرحام.

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٧١/٩.
[2] م: ذاك.
[3] محمّد، ٢٠/٤٧.
[4] س: بما. | وفي هامش م: مفعول "يَتوقّع". «منه».

وقيل:[١] إن أعرضتم عن الإسلام أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهليّة مِن الإفساد في الأرض بالتغاوُر والتناهُب وقَطع الأرحام بمُقاتلة بعضِ الأقارب بعضًا ووَأْدِ البنات. وفيه أنّ الواقع في حيّز الشرط في مِثل هذا المقام لا بدَّ أن يكون محذوريّته باعتبار ما يستتبعه مِن المفاسد، لا باعتبار ذاته، ولا ريبَ في أنّ الإعراض عن الإسلام رأسُ كلّ شرّ وفسادٍ، فحقُّه أن يُجعَل عمدةً في التوبيخ، لا وسيلةً للتوبيخ بما دونه مِن المفاسد.

وقُرئ: "وُلِّيتُمْ" على البناء للمفعول،[٢] أي: جُعِلتم وُلاةً. وقُرئ: "تُوُلِّيتُمْ"،[٣] أي: تَولّاكم وُلاة جَورٍ خرجتم معهم وساعدتموهم في الإفساد وقطيعة الرحم. وقُرئ: "وَتَقَطَّعُوا"[٤] مِن "التَّقَطّع" بحذف إحدى التاءين، فانتصابُ ﴿أَرْحَامَكُمْ﴾ حينئذ على نزع الجارّ، أي: في أرحامكم. وقُرئ: "وَتَقْطَعُوا"[٥] مِن "القَطْع".

وإلحاق الضمير بـ"عسى" لغة أهل الحجاز، وأمّا بنو تميم فيقولون: "عسى أن تفعل" و"عسى أن تفعلوا".

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المخاطَبين بطريق الالتفات إيذانًا بأنّ ذِكر هَناتهم أوجَبَ إسقاطَهم عن رتبة الخطاب، وحكايةَ أحوالهم الفظيعة لغيرهم، وهو مبتدأ خبره: ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أبعدَهم مِن رحمته، ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن استماع الحقّ لتَصامّهم عنه بسوء اختيارهم، ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ لِتَعاميهم عمّا يشاهدونه مِن الآيات المنصوبة في الأنفُس والآفاق.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: ألا يلاحظونه ولا يتصفّحونه وما فيه مِن المواعظ والزواجر حتّى لا يَقعوا فيما وقعوا فيه مِن المُوبِقات، ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾

---

١ قاله الواحدي في التفسير الوسيط، ٤/١٢٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن مغفّل عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٠؛ والمحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٥/١١٨.

٣ قرأ بها رُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٤.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٠.

٥ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٤.

فلا يكاد يصِلُ إليها ذِكرٌ أصلًا. و﴿أَمْ﴾ منقطعة، وما فيها مِن معنى "بل" للانتقال مِن التوبيخ بعدم التدبّر إلى التوبيخ بكون قلوبهم مقفَلةً، لا تقبل التدبّر والتفكّر، / و"الهمزةِ"[١] للتقرير. [١٠١ظ]

وتنكير "القلوب" إمّا لتهويل حالها وتفظيعِ شأنها بإبهام أمرها في القساوة والجهالة، كأنّه قيل: على قلوب مُنكَرة، لا يُعرَف حالها، ولا يُقادَر قدرُها في القَسوة، وإمّا لأنّ المراد بها قلوب بعض منهم، وهم المنافقون. وإضافة "الأقفال" إليها للدلالة على أنّها أقفال مخصوصة بها مناسِبةٌ لها غيرُ مجانِسة لسائر الأقفال المعهودة. وقُرئ: "أَقْفُلُهَا"،[٢] و"إِقْفَالُهَا"[٣] على المصدر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم﴾ أي: رَجَعوا إلى ما كانوا عليه مِن الكفر، وهم المنافقون الذين وُصِفوا فيما سلف بمَرض القلوب وغيره مِن قبائح الأفعال والأحوال، فإنّهم قد كفروا به عليه السلام ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ بالدلائل الظاهرة والمعجزات القاهرة. وقيل: هم اليهود. وقيل: أهل الكتابَين جميعًا كفروا به عليه السلام بعدَ ما وجدوا نَعْته عليه السلام في كتابهم، وعرَفوا أنّه المنعوت بذلك.

وقوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ جملة مِن مبتدأ وخبر، وقعَت خبرًا لـ﴿إِنَّ﴾، أي: سهّل لهم ركوبَ العظائم، مِن "السَّوَل"، وهو الاسترخاء. وقيل: مِن "السُّول" المخفَّفِ مِن "السُّؤْل" لاستمرار القلب، فمعنى "سَوَّل له أمرًا" حينئذ: أوقعه في أمنيّته، فإنّ السُّؤل الأمنيّة. وقُرئ: "سُوِّلَ"[٤] مبنيًا للمفعول على حذف المضاف، أي: كيدُ الشيطان.

---

١ السياق: وما فيها مِن معنى "بل"... و"الهمزةِ"...

٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٧٣/٩.

٣ قراءة شاذّة، غيرَ منسوبة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٧٣/٩.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٠.

﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ ومدَّ لهم في الأمانيّ والآمال. وقيل: أمهلهم الله تعالى، ولم يعاجِلهم بالعقوبة. وقُرئ: "أُمْلِي لَهُمْ"[١] على صيغة المتكلِّم، فالمعنى: أنّ الشيطان يُغويهم، وأنا أُنظِرهم، فـ"الواو" للحال أو للاستئناف. وقُرئ: "أُمْلِيَ لَهُمْ"[٢] على البناء للمفعول، أي: أُمهِلوا ومُدّ في عمرهم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن ارتدادهم، لا إلى الإملاء كما نُقل عن الواحدي،[٣] ولا إلى التسويل كما قيل،[٤] لأنّ شيئًا منهما ليس مسبَّبًا عن القول الآتي، وهو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنّهم ﴿قَالُواْ﴾ يعني
[١٠٢و] المنافقين المذكورين، لا اليهودَ / الكافرين به عليه السلام بعد ما وجدوا نَعته عليه السلام في التوراة كما قيل،[٥] فإنّ كُفرهم به عليه السلام ليس بسبب هذا القول، ولو فُرض صدورُه عنهم، سواء كان المَقول لهم المنافقين أو المشركين على رأي القائل؛ بل مِن حين بِعثتِه[٦] عليه السلام.

﴿لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ أي: لليهود الكارهين لنزول القرآن على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مع علمهم بأنّه مِن عند الله تعالى حسَدًا وطمَعًا في نزوله عليهم، لا للمشركين كما قيل،[٧] فإنّ قوله تعالى: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ عبارة قطعًا عمّا حُكي عنهم بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ [الحشر، ١١/٥٩]، وهم بنو[٨] قُرَيظة والنضير الذين كانوا يوالونهم ويوادّونهم، وأرادوا بـ"البعض" الذي أشاروا إلى عدم إطاعتهم فيه

---

١ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧٤/٢.
٢ قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٧٤/٢.
٣ انظر: التفسير الوسيط للواحدي، ١٢٨/٤.
٤ قاله ابن عادل في اللباب، ٤٦١/١٧.
٥ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٣٧/٩؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٢٦/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٣/٥.
٦ س: بعثت.
٧ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٣/٥؛ واللباب لابن عادل، ٤٦١/١٧.
٨ م: بنوا.

إظهارَ كفرهم وإعلانَ أمرهم بالفعل قبل قتالهم وإخراجهم مِن ديارهم، فإنّهم كانوا يأبَون ذلك قبل مَساس الحاجة الضروريّة الداعية إليه، لِما كان لهم في إظهار الإيمان مِن المنافع الدنيويّة.

وإنّما كانوا يقولون لهم ما يقولون سرًّا، كما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ﴾ أي: إخفاءَهم لِما يقولونه لليهود. وقُرئ: "أَسْرَارَهُمْ"،[1] أي: جميعَ أسرارهم التي مِن جملتها قولهم هذا. والجملة اعتراض مقرِّر لِما قبله متضمِّن للإفشاء في الدنيا والتعذيب في الآخرة.

﴿فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ٢٧﴾

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها. و﴿كَيۡفَ﴾ منصوب بفِعل محذوف هو العامل في الظرف، كأنّه قيل: يفعلون في حياتهم ما يفعلون مِن الحِيَل، فكيف يفعلون إذا توفّتهم الملائكة؟ وقيل: مرفوع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، أي: فكيف حالهم أو حيلتُهم إذا توفّتهم... إلخ؟ وقُرئ: "تَوَفَّاهُمْ"[2] على أنّه / إمّا ماضٍ، أو مضارعٌ قد حُذِف إحدى تاءَيه. [١٠٢ظ]

﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ حال مِن فاعل ﴿تَوَفَّتۡهُمُ﴾، أو مِن مفعوله، وهو تصوير لتوفّيهم على أهوَل الوجوه وأفظَعها. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «لا يَتوفّى أحد على معصية إلّا يضرب الملائكة وجهه ودبره».[3]

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٢٨﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ التوفّي الهائل ﴿بِأَنَّهُمُ﴾ أي: بسبب أنّهم ﴿ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ﴾ مِن الكفر والمعاصي ﴿وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ أي: ما يرضاه مِن الإيمان والطاعة حيث كفروا بعد الإيمان، وخرجوا عن الطاعة بما صنعوا مِن المعاملة مع اليهود،

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٧٤/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٠.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٣٢٧/٤. وذكر نحوه السمعاني في تفسيره، ١٨٢/٥، مِن غير نسبة إلى ابن عبّاس رضي الله عنهما.

﴿فَأَحْبَطَ﴾ لأجل ذلك ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ التي عملوها حالَ إيمانهم مِن الطاعات، أو بعد ذلك مِن أعمال البرّ التي لو عملوها حال الإيمان لانتفعوا بها.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم المنافقون الذين فُصِلت أحوالهم الشنيعة، وُصِفوا بوصفهم السابق لكونه مَدارًا لِما نُعِي عليهم بقوله تعالى: ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾، فـ﴿أَمْ﴾ منقطعة، و﴿أَن﴾ مخفَّفة مِن "أنّ"، وضمير الشأن الذي هو اسمها محذوف، و﴿لَن﴾ بما في حيّزها خبرُها.[1] و"الأضغان" جمع "ضِغْن"، وهو الحقد، أي: بل أَحسِبَ الذين في قلوبهم حقد وعداوة للمؤمنين أنّه لن يخرج الله أحقادَهم، ولن يبرِزَها لرسوله صلّى الله عليه وسلّم وللمؤمنين، فيُبقي أمورهم مستورةً؟ والمعنى أنّ ذلك ممّا لا يكاد يدخل تحت الاحتمال.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾

﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ إراءتَهم ﴿لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ لعرَّفناكهم بدلائلَ تعرفهم بأعيانهم معرفةً مُتاخِمة للرؤية. والالتفات إلى نون العظَمة لإبراز العناية بالإراءة، ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ بعلامتهم التي نَسِمُهم بها. وعن أنس رضي الله عنه: «ما خفِي على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد هذه الآية شيء مِن المنافقين، كان يعرفهم بسيماهم، ولقد كنّا في بعض الغزوات، وفيها تسعة مِن المنافقين يشكوهم الناس، فناموا ذات ليلة، وأصبحوا وعلى وجه كلّ واحد منهم مكتوب: "هذا منافق"».[2]

[١٠٣و] و"اللام" لام الجواب، كُرّرت في المعطوف للتأكيد، و"الفاء" / لترتيب المعرفة على الإراءة، وأمّا ما في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ فلجواب قسم محذوف. و﴿لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ نَحوه وأسلوبه، أو إمالتُه إلى جهة تعريضٍ وتَورِية، ومنه قيل للمخطئ: "لاحِن"، لعدله بالكلام عن سَمْت الصواب.

---

[1] س - خبرها.

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ٩/٣٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٢٧.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ فيجازيكم بحسب قصدكم، وهذا وعد للمؤمنين، وإيذان بأنّ حالهم بخلاف حال المنافقين.

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ٣١﴾

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ﴾[١] بالأمر بالجهاد ونحوه مِن التكاليف الشاقّة ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ[٢] ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على مشاقّ الجهاد عِلمًا فعليًا يتعلّق به الجزاء، ﴿وَنَبۡلُوَاْ[٣] أَخۡبَارَكُمۡ﴾ ما يُخبَر به عن أعمالكم فيظهر حَسَنها وقبيحها. وقُرئ: "وَيَبلُو" بـ"الياء".[٤] وقُرئ: "نَبلُو" بسكون "الواو"،[٥] على "ونحن نَبلُو".

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـًٔا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٣٢﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ﴾ الناسَ ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾ وعادَوه ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ بما شاهدوا نعته عليه السلام في التوراة، وبما ظهر على يديه مِن المعجزات، ونزل عليه مِن الآيات، وهم قريظة والنضير، أو المطعِمون يوم بدر.

﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ﴾ بكفرهم وصدّهم ﴿شَيۡـًٔا﴾ مِن الأشياء، أو شيئًا مِن الضرر، أو لن يضرّوا رسول الله تعالى[٦] بمُشاقّته شيئًا، وقد حُذفَ المضاف لتعظيمه وتفظيع مُشاقّته.

﴿وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي: مكائدَهم التي نصبوها في إبطال دينه تعالى ومُشاقّة رسوله عليه السلام، فلا يَصلون بها إلى ما كانوا يَبغون مِن الغوائل، ولا تثمر لهم إلّا القتلَ والجلاءَ عن أوطانهم.

---

١ م س ي: وليبلونكم. | وهي بالياء رواية شعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٧٥/٢.

٢ م س ي: يعلم. | وهي بالياء رواية شعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٧٥/٢.

٣ م س ي: ونبلو.

٤ قرأ بها شعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٧٥/٢.

٥ قرأ بها رُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧٥/٢.

٦ س – تعالى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۝٣٤ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٥﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ بما أبطل به هؤلاء أعمالَهم مِن الكفر والنفاق والعُجب والرياء والمَنّ والأذى ونحوها. وليس فيه دليل على إحباط الطاعات بالكبائر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾
[١٠٣ظ] حكمٌ يَعمّ / كلَّ مَن مات على الكفر، وإن صحّ نزوله في أصحاب القليب.[1]

﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾ أي: لا تضعُفوا ﴿وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ أي: ولا تدعوا الكفّار إلى الصلح خوَرًا، فإنّ ذلك إعطاءُ الدنيّة. ويجوز أن يكون منصوبًا بإضمار "أن" على جواب النهي. وقُرئ: "وَلَا تَدَّعُوا" مِن "ادّعَى القوم"، بمعنى "تَداعَوا"، نحو: "ارتَمَوا الصيدَ" و"تَرامَوه"، ومنه "تراءَوا الهلالَ"، فإنّ صيغة التفاعل قد يُراد بها صدور الفعل عن المتعدِّد مِن غير اعتبار وقوعه عليه، ومنه قوله تعالى:[2] ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [النبأ، ١/٧٨] على أحد الوجهين. و"الفاء" لترتيب النهي على ما سبق مِن الأمر بالطاعة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ جملة حاليّة مقرِّرة لمعنى النهي، مؤكِّدة لوجوب الانتهاء، وكذا قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ فإنّ كونَهم الأغلبين وكونَه عزّ وعلا ناصِرَهم مِن أقوى موجِبات الاجتناب عمّا يوهم الذلّ والضراعة، وكذا توفيته تعالى لأجور الأعمال حسبما يُعرِب عنه قوله تعالى: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي: ولن يُضَيِّعَها، مِن "وَتَرْتُ الرجلَ" إذا قتلتَ له قتيلًا مِن ولدٍ أو أخٍ أو حميمٍ فأفْردته منه، مِن "الوتر" الذي هو الفرد.

عُبّر عن ترك الإثابة في مقابلة الأعمال بـ"الوتر" الذي هو إضاعة شيءٍ معتدٍّ به مِن الأنفس والأموال -مع أنّ الأعمال غير موجِبة للثواب على قاعدة

---

[1] القَلِيب: البئر، والمراد هنا: قَلِيب بَدر. وأصحاب القَلِيب: هم الكفّار الذين قُتلوا يومَ بدر، ورأسُهم أبو جهل بن هشام. انظر: فتح الباري لابن حجر، ٢٧١/١.

[2] م - تعالى.

أهل السنّة- إبرازًا لغاية اللطف بتصوير الثواب بصورة الحقّ المستَحَق، وتنزيلِ ترك الإثابة منزلةَ إضاعة أعظم الحقوق وإتلافها، وقد مرّ في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ [آل عمران، ٣/١٩٥].

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾﴾

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ لا ثباتَ لها، ولا اعتدادَ بها، ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ أي: ثوابَ إيمانكم وتقواكم مِن الباقيات الصالحات التي يتنافس فيها المتنافسون.

﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ بحيث يخِلّ أداؤها بمعاشكم، وإنّما اقتصر على نَزْرٍ يسير منها هو ربع العشر تؤدّونها إلى فقرائكم.

﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾

﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا﴾ أي: أموالَكم ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ أي: يَجْهَدْكم بطلب الكلّ، فإنّ الإحفاء والإلحاف المبالغةُ وبلوغ / الغاية، يقال: "أحفى شاربَه"، أي: استأصله، [١٠٤و]
﴿تَبْخَلُوا۟﴾ فلا تُعطوا، ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾ أي: أحقادَكم. وضمير ﴿يُخْرِجْ﴾ لله تعالى، ويعضده القراءة بنون العظَمة،[١] أو للبخل؛ لأنّه سبب الأضغان. وقُرئ: "يَخْرُجْ" مِن الخروج بـ"الياء"[٢] و"التاء"[٣] مسندًا إلى "الأضغان".

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن يعقوب. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٧٧/٩.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الوارث عن أبي عمرو. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٧٧/٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما ومجاهد وابن سيرين وابن محيصن وأيوب بن المتوكّل واليماني. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤١؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٧٧/٩.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: أنتم أيّها المخاطَبون هؤلاء الموصوفون. وقوله تعالى: ﴿تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ استئناف مقرِّر لذلك، أو صلة لـ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ على أنّه بمعنى "الذين"، أي: ها أنتم الذين تُدعَون، ففيه توبيخ عظيم، وتحقير مِن شأنهم. والإنفاق في سبيل الله يعمّ نفقة الغزو والزكاة وغيرهما.

﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ أي: ناسٌ يبخلون، وهو في حيّز الدليل على الشرطيّة السابقة.

﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ فإنّ كلًّا مِن نفع الإنفاق وضرر البخل عائد إليه. و"البخل" يستعمل بـ"عن" و"على"، لتضمّنه معنى الإمساك والتعدّي.

﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ﴾ دون مَن عداه ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ فما يأمركم به فهو لاحتياجكم إلى ما فيه مِن المنافع، فإن امتثلتم فلكم، وإن تولّيتم فعليكم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ﴾ عطفٌ على ﴿إِن تُؤْمِنُواْ﴾،[1] أي: وإن تُعرضوا عن الإيمان والتقوى ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يخلُقْ مكانكم قومًا آخرين، ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ في التولّي عن الإيمان والتقوى؛ بل يكونوا راغبين فيهما. قيل: هم الأنصار. وقيل: الملائكة. وقيل: أهل فارس، لِما رُوي أنّه عليه السلام سُئل عن القوم، وكان سلمان إلى جنبه، فضرب على فخذه فقال: «هذا وقومه والذي نفسي بيده لو كان الإيمان مَنوطًا بالثريّا لتناوله رجال مِن فارس».[2] وقيل: كِندة والنخع. وقيل: العجَم. وقيل: الروم.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة محمّد كان حقًّا على الله عزّ وجلّ أن يسقيه مِن أنهار الجنّة».[3]

والحمد لله ربّ العالمين.

---

١ محمّد، ٣٦/٤٧.

٢ سنن الترمذي، ٣٨٤/٥ (٣٢٦١)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٩/٩.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨/٩؛ التفسير الوسيط للواحدي، ١١٨/٤. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سُورَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ

وتُسمَّى: سورة القتال، وهي مدنيَّةٌ عند الأكثرين ولم يذكروا استثناء، وعن ابن عباس وقتادة أنها مدنيَّةٌ إلا قولَه تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ [الآية: ١٣] إلى آخره، فإنه ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار التفتَ إليها وقال: «أنتِ أحبُّ بلاد الله تعالى إلى الله، وأنت أحبُّ بلادِ الله تعالى إليَّ، ولولا أنَّ أهلك أخرجوني منكِ لم أَخرجْ منكِ»، فأنزل الله تعالى ذلك[1]، فيكون مكيًّا بناءً على أن ما نزل في طريق المدينة قبل أن يبلغها النبيُّ ﷺ - أعني ما نزل في سفر الهجرة - من المكي اصطلاحًا كما يؤخذ من أثرٍ أخرجه عثمان بن سعيد الدارمي بسنده إلى يحيى بن سلام[2].

وعِدَّةُ آيها أربعون في البصري وثمان وثلاثون في الكوفي وتسع - بالتاء الفوقية - وثلاثون فيما عداهما، والخلافُ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [الآية: ٤] وقوله تعالى: ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [الآية: ١٥] ولا يخفى قوةُ ارتباط أَوَّلها بآخرِ السورة قبلَها واتصاله وتلاحُمه بحيث لو سقطت من البين البسملة لكانا متصلًا واحدًا لا تنافُرَ فيه كالآية الواحدة آخذًا بعضُه بعنق بعض. وكان ﷺ على ما أخرج الطبراني في «الأوسط» عن ابن عمر رضي الله عنهما يقرؤها في صلاة المغرب[3].

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/١٩٨. وأخرجه بنحوه دون ذكر الآية أحمد (١٨٧١٥)، والترمذي (٣٩٢٥) من حديث عبد الله بن عدي رضي الله عنه، وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح. وينظر ما سيأتي ص١٤٤ من هذا الجزء.

(٢) حيث قال: ما نزل بمكة وما نزل في طريق المدينة قبل أن يبلغ النبي ﷺ المدينة فهو من المكي، وما نزل على النبي ﷺ في أسفاره بعد ما قدم المدينة فهو من المدني. ذكره السيوطي في الإتقان ١/٢٦ وورد في مطبوعه: عثمان بن سعد الرازي، بدل: عثمان بن سعيد الدارمي.

(٣) المعجم الأوسط (١٢٣٩)، وأخرجه أيضاً ابن حبان (١٨٣٥). قال الهيثمي في المجمع ٢/١١٨: رجاله رجال الصحيح.

وأخرج ابن مردويه عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنه قال: نزلت سورة محمد آية فينا وآية في بني أمية[١]. ولا أظنُّ صحةَ الخبر. نعم لكفار بني أُمية الحظُّ الأوفر من عمومات الآيات التي في الكفار كما أنَّ لأهل البيت ﷺ المُعلَّى والرقيب من عُمومات الآيات التي في المؤمنين، وأكثرُ من هذا لا يُقال سوى أني أقول: لعن الله تعالى من قطع الأرحامَ وآذى الآل.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: أعرضوا عن الإسلام وسلوك طريقه، أو: منعوا غيرَهم عن ذلك، على أن صدَّ لازمٌ أو مُتعدٍّ، قال في «الكشف»: والأول أظهرُ، لأنَّ الصدَّ عن سبيل الله هو الإعراضُ عمَّا أتى به محمد ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ١٠٨] فيطابق قولَه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ [الآية: ٢] وكثيرٌ من الآثار تُؤيِّد الثاني.

وفسَّر الضحاك «سبيل الله» ببيت الله عز وجل، وقال: صدُّهم عنه مَنْعُهم قاصديه. وليس بذلك.

والآية عامَّةٌ لكلِّ من اتَّصف بعنوان الصِّلة. وقال ابن عباس: هم ـ أي: الذين كفروا وصدُّوا على الوجه الثاني في «صدوا» ـ المطعمون يومَ بدر الكبرى. وكأنه عنَى من يدخل في العموم دخولًا أوليًا، فإن أولئك كانوا صادِّين بأموالهم وأنفسهم، فصدُّهم أعظمُ من صدِّ غيرهم ممن كفر وصدَّ عن السبيل. وأولُ من أطعم منهم ـ على ما نُقل عن سيرة ابن سَيِّد الناس[٢] ـ أبو جهل عليه اللعنة؛ نحرَ لكفار قريش حين خرجوا من مكة عشرًا من الإبل، ثم صفوان بن أمية نحر تسعًا بِعُسْفان، ثم سهل بن عمرو نحر بِقُدَيْد عشرًا، ثم شيبة بن ربيعة وقد ضلُّوا الطريق نحر تسعًا، ثم عُتبة بن ربيعة نحر عشرًا، ثم مِقْيس الجُمحي بالأبواء نحر تسعًا، ثم

(١) الدر المنثور ٦/ ٤٦.
(٢) عيون الأثر ١/ ٢٤٩.

العباس نحر عشرًا، والحارث بن عامر نحر تسعًا، وأبو البَخْتري على ماء بدر نحر عشرًا، ومِقْيَس تسعًا؛ ثم شغلتهم الحرب فأكلوا من أزوادهم.

وقيل: كانوا ستَّة نفر: نبيه ومنبِّه ابنا الحجاج، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل والحارث ابنا هشام، وضمَّ مقاتلٌ إليهم ستَّةً أُخرى وهم: عامر بن نوفل، وحكيم بن حزام، وزمعة بن الأسود، والعباس بن عبد المطلب، وصفوان بن أمية، وأبو سفيان بن حرب، أَطعم كلٌّ واحد منهم يومًا الأحابيش والجنود يستظهرون بهم على حرب رسول الله ﷺ. ولا يُنافي عدُّ أبي سفيان ـ إنْ صحَّت الرواية ـ من أولئك كونَه مع العِير، لأنَّ المرادَ بيوم بدر زمنُ وقعتها، فيشمل مَنْ أطعم في الطريق وفي مُدَّتها حتى انقضت.

وقال مقاتل: هم اثنا عشر رجلًا من أهل الشِّرك كانوا يصدُّون الناس عن الإسلام ويأمرونهم بالكفر.

وقيل: هم شياطين من أهل الكتاب صدُّوا من أراد منهم أو من غيرهم عن الدخول في الإسلام.

والموصول مبتدأ خبرُه قوله تعالى: ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝﴾ أي: أبطلها وأحبطها وجعلها ضائعةً لا أثرَ لها ولا نَفْعَ أصلًا، لا بمعنى أنه سبحانه أبطلها وأحبطها بعد أن لم تكن كذلك، بل بمعنى أنه عز وجل حَكَم ببطلانها وضياعها، وأُريد بها ما كانوا يعملونه من أعمال البرِّ كصلةِ الأرحام وقِرى الأضياف وفكِّ الأسارى وغيرها من المكارم.

وجوِّز أن يكون المعنى: جعلها ضلالًا، أي: غير هدى، حيث لم يُوفِّقهم سبحانه لأنْ يقصدوا بها وجه سبحانه، أو جعلها ضالَّة، أي: غير مُهتديةٍ، على الإسناد المجازي.

ومن قال: الآية في المُطْعِمين وأضرابهم قال: المعنى: أبطل جل وعلا ما عَمِلوه من الكيد لرسول الله ﷺ كالإنفاق الذي أنفقوه في سفرهم إلى محاربته عليه الصلاة والسلام وغيره بنصر رسوله ﷺ وإظهار دينه على الدين كلِّه، ولعله أوفقُ بما بعدَه، وكذا بما قيل: إن الآية نزلت ببدر.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال ابن عباس ـ فيما أخرجه عنه جماعةٌ منهم الحاكم وصحَّحه ـ: هم أهلُ المدينة الأنصار، وفسَّر ﷺ (الَّذِينَ كَفَرُوا) بأهل مكة قريش[١]. وقال مقاتل: هم ناسٌ من قريش، وقيل: مؤمنو أهل الكتاب. وقيل: أعمُّ من المذكورين وغيرهم، فإن الموصول من صيغ العموم ولا داعي للتخصيص.

﴿وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ من القرآن، وخُصَّ بالذكر الإيمان بذلك مع اندراجه فيما قبله تنويهًا بشأنه وتنبيهًا على سمو مكانه من بين سائر ما يجب الإيمانُ به وأنه الأصل في الكلِّ، ولذلك أُكِّد بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ وهو جملةٌ معترضةٌ بين المبتدأ والخبر مُفيدة لحصر الحَقِّية فيه على طريقة الحصر في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ [البقرة: ٢] وقولك: حاتم الجواد، فيرادُ بالحقِّ ضدُّ الباطل.

وجُوِّز أن يكونَ الحصرُ على ظاهرِه، والحقُّ: الثابتُ، وحقِّيَّة ما نزل عليه عليه الصلاة والسلام لكونه ناسخًا لا يُنسخ، وهذا يقتضي الاعتناءَ به ومنه جاء التأكيد.

وأيًّاما كان فقوله تعالى: «من ربهم» حال من ضمير «الحقِّ».

وقرأ زيد بن عليٍّ وابن مقسم: «نَزَّل» مبنيًّا للفاعل، والأعمش: «أُنزِلَ» معدًّى بالهمزة مبنيًّا للمفعول. وقُرئ: «أَنزل» بالهمز مبنيًّا للفاعل، «ونَزَلَ» بالتخفيف[٢].

﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: سترها بالإيمان والعمل الصالح، والمراد: أزالها ولم يُؤاخِذْهم بها ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾ أي: حالهم في الدين والدنيا بالتوفيق والتأييد، وتفسير البال بالحال مرويٌّ عن قتادة، وعنه تفسيره بالشأن، وهو الحال أيضًا، أو ما لَه خطر، وعليه قول الراغب: البالُ: الحال التي يكترثُ بها، ولذلك يقال: ما باليتُ بكذا بالةً، أي: ما اكترثتُ به[٣]. ومنه قوله ﷺ: «كلُّ أمرٍ ذي بالٍ»

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٤٦، والمستدرك ٢/ ٥٥٧، وأخرجه أيضاً الطبري ٢١/ ١٨٠-١٨١.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٧٣.
(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم (بال).

الحديث[1]. ويكون بمعنى الخاطر القلبي، ويُتَجَّوز به عن القلب كما قال الشهاب[2].

وفي «البحر»: حقيقة البال: الفكر والموضع الذي فيه نظرُ الإنسان، وهو القلب، ومَن صلح قلبه صلحتْ حالُه، فكأن اللفظَ مُشيرٌ إلى صلاح عقيدتهم، وغير ذلك من الحال تابعٌ له[3]. وحُكي عن السفاقسي تفسيره هنا بالفكر، وكأنه لنحو ما أُشير إليه. وهو كما في «البحر» أيضًا مما لا يُثَنَّى ولا يُجمع، وشذَّ قولُهم في جمعه: بالات.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما مرَّ من الإضلال والتكفير والإصلاح، وهو مبتدأٌ خبرُه قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي: ذلك كائنٌ بسبب اتباع الأولين الباطل واتِّباع الآخرين الحقَّ.

والمراد بالحقِّ والباطل معناهما المشهور. وأخرج ابن المنذر وغيره عن مجاهد تفسير «الباطل» بالشيطان. وفي «البحر»: قال مجاهد: «الباطل»: الشيطان وكلُّ ما يَأْمُر به، و«الحقّ»: هو الرسولُ والشرع، وقيل: «الباطلُ» ما لا ينتفع به[4].

وجوَّز الزمخشري[5] كون «ذلك» خبرَ مبتدأ محذوف، و«بأن» إلخ في محلِّ نصب على الحال، والتقدير: الأمرُ ذلك ـ أي: كما ذُكر ـ مُلتبسًا بهذا السبب، والعامل في الحال إما معنى الإشارة، وإما نحو: أثبته وأحقه، فإن الجملةَ تدلُّ على ذلك لأنه مضمونُ كلِّ خبر. وتعقَّبه أبو حيان[6] بأن فيه ارتكابًا للحذف من غير داعٍ له.

---

(١) أخرجه أحمد (٨٧١٢)، وأبو داود (٤٨٤٠)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٤٩٤) من حديث أبي هريرة ﷺ، وتتمته عند أحمد «... لا يُفتح بذكر الله، فهو أبتر»، وعند أبي داود: «... لا يُبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم». وسلف ١/ ١٨٧.

(٢) حاشية الشهاب ٨/ ٤٠.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٧٣.

(٤) المصدر السابق.

(٥) الكشاف ٣/ ٥٣٠.

(٦) البحر المحيط ٨/ ٧٣.

والجارُّ والمجرور أعني «من ربهم» في موضع الحال على كلِّ حال. والكلامُ ـ أعني قوله تعالى: «ذلك بأن» إلى قوله سبحانه: «من ربهم» ـ تصريحٌ بما أشعر به الكلام السابق من السببية لما فيه من البناء على الموصول، ويُسمِّيه علماء البيان: التفسير، ونظيره ما أنشده الزمخشري لنفسه:

به فُجعَ الفرسانُ فوق خيولهم كما فُجعت تحت الستور العَواتِقُ
تساقط من أيديهم البيضُ حَيْرةً وزعزع عن أجيادهنَّ المخانق[1]

فإنَّ فيه تفسيرًا على طريق اللفِّ والنَّشر كما في الآية، وهو من محاسن الكلام.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثْلَ ذلك الضرب البديع ﴿يَضۡرِبُ ٱللَّهُ﴾ أي: يُبيِّن ﴿لِلنَّاسِ﴾ أي: لأَجْلهم ﴿أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾ أي: أحوالَ الفريقين المؤمنين والكافرين وأوصافَهما الجاريةَ في الغرابة مجرى الأمثال، وهي اتِّباع المؤمنين الحقَّ، وفوزُهم وفلاحُهم، واتِّباع الكافرين الباطلَ وخيبتهم وخُسرانُهم. وجوِّز أن يراد بِضَرْب الأمثال التمثيل والتشبيه بأن جعل سبحانه اتباع الباطل مثلًا لعمل الكفار، والإضلال مثلًا لخيبتهم، واتباع الحقِّ مثلًا لعمل المؤمنين، وتكفير السيئات مثلًا لفوزهم، والإشارةُ بذلك لما تضمَّنه الكلام السابق. وجوز كون ضمير «أمثالهم» للناس.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لترتيب ما في حيِّزها من الأمر على ما قبلها، فإنَّ ضلالَ أعمال الكَفَرة وخَيْبتهم، وصلاحَ أحوالِ المؤمنين وفلاحهم، مما يُوجب أن يترتَّب على كلٍّ من الجانبين ما يليقُ به من الأحكام، أي: إذا كان الأمر كذلك فإذا لقيتموهم في المحارب ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾. وقال الزمخشري: «لقيتم» من اللقاء وهو الحرب. و«ضَرْبَ» نصب على المصدرية لفعل محذوف، والأصل: اضربوا الرقابَ ضربًا، فحذف الفعل وقُدِّم المصدر وأُنيب منابه مضافًا إلى المفعول[2]. وحَذْفُ الفعل الناصب في مثل ذلك

(١) ذكرهما الشهاب في حاشيته ٨/ ٤١.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٠.

مما أُضيف إلى معموله واجبٌ، وهو أحدُ مواضعَ يجب فيها الحذفُ ذُكِرتْ في مطوَّلات كتب النحو، وليس منها نحو: ضربًا زيدًا، على ما نصَّ عليه ابن عصفور.

وذكر غيرُ واحد أن فيما ذكر اختصارًا وتأكيدًا، ولا كلام في الاختصار، وأما التأكيد فظاهرُ القول به أن المصدر بعد حذف عامله مؤكِّد، وقال الحمصي في «حواشي التصريح»[1]: إن المصدر في ذلك مؤكِّد في الأصل، وأما الآن فلا، لأنه صار بمنزلة الفعل الذي سدَّ هو مسدَّه فلا يكون مؤكِّدًا، بل كلُّ مصدر صار بدلًا من اللفظ بالفعل لا يكون مؤكِّدًا ولا مُبيِّنًا لنوع ولا عدد.

و«ضربَ الرقاب» مجازٌ مرسل عن القتل، وعبَّر به عنه إشعارًا بأنه ينبغي أن يكون بضرب الرقبة حيث أمكن، وتصويرًا له بأشنع صورة لأن ضربَ الرقبة فيه إطارةُ الرأس الذي هو أشرفُ أعضاء البدن ومَجْمع حواسِّه، وبقاء البدن مُلقى على هيئةٍ مُنكرة، والعياذ بالله تعالى، وذكر أنَّ في التعبير المذكور تشجيعَ المؤمنين، وأنهم منهم بحيث يتمكَّنون من القتل بضرب أعناقهم في الحرب.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾ أي: أوقعتم القتلَ بهم بشدَّة وكثرة، على أنَّ ذلك مستعارٌ من ثِخَنِ المائعات لمنعه عن الحركة، والمراد: حتى إذا أكثرتُم قتلَهم وتمكَّنتم من أَخْذِ من لم يقتل ﴿فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ أي: فَأْسِرُوهم واحفظوهم، فالشدُّ وكذا ما بعدُ في حقِّ من أُسِرَ منهم بعد إثخانهم لا للمثخَن إذْ هو بالمعنى السابق لا يُشَدُّ ولا يُمَنُّ عليه ولا يُفدَى، لأنه قد قُتل.

أو المعنى: حتى إذا أثقلتموهم بالجراح ونحوه بحيث لا يستطيعون النهوضَ فَأْسِرُوهم واحفظوهم؛ فالشدُّ وكذا ما بعدُ في حقِّ المُثخن لأنه بهذا المعنى هو الذي لم يصل إلى حدِّ القتل لكن ثَقُلَ عن الحركة فصار كالشيء الثخين الذي لم يَسِلْ ولم يستمرّ في ذهابه، والإثخان عليه مجازٌ أيضًا.

---

(١) كتاب التصريح بمضمون التوضيح للشيخ خالد الأزهري، وكتاب التوضيح هو كتاب أوضح المسالك لابن هشام النحوي. والحمصي: هو الشيخ ياسين العليمي، توفي سنة (١٠٦١هـ)، له حاشية على كتاب التصريح. خلاصة الأثر ٤/ ٤٩١، وكشف الظنون ١/ ١٥٤.

و«الوَثاق» في الأصل مصدرٌ كالخَلاص، وأُريد به هنا ما يُوثَق به. وقرئ: «الوِثاق» بالكسر[1]، وهو اسمٌ لذلك، ومجيء فَعال اسمَ آلة كالحزام والرِّكاب نادرٌ على خلاف القياس، وظاهرُ كلام البعض أن كلًّا من المفتوح والمكسور اسمٌ لِمَا يُوثَق به، ولعل المرادَ بيانُ المراد هنا.

﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ أي: فإما تمنُّون منًّا وإما تفدون فداءً، والكلام تفصيلٌ لعاقبةِ مضمون ما قبله من شدِّ الوثاق، وحذفُ الفعل الناصب للمصدر في مثل ذلك واجبٌ أيضًا، ومنه قوله:

لأجهدنَّ فإمَّا دَرْءَ واقعةٍ تُخْشَى وإما بلوغَ السُّؤْل والأملِ[2]

وجوَّز أبو البقاء[3] كونَ كلٍّ من «مَنًّا» و«فداء» مفعولًا به لمحذوف، أي: أَوْلُوهم منًّا، أو: اقبلوا منهم فداءً، وليس ـ كما قال أبو حيان[4] ـ إعرابَ نحويٍّ.

وقرأ ابن كثير في رواية شِبل: «وإما فَدًى» بالفتح والقصر[5] كعصا. وزعم أبو حاتم أنه لا يجوز قصره لأنه مصدر فاديته، قال الشهاب: ولا عبرةَ به فإن فيه أربعَ لغات: الفتحُ والكسر مع المدِّ والقصر، ولغة خامسة البناء مع الكسر كما حكاه الثقات[6]. انتهى.

وفي «الكشف» ـ نقلًا عن الصحاح ـ: الفداء إذا كُسر أوله يُمَدُّ ويُقصَر، وإذا فُتح فهو مقصور[7]. ومن العرب من يكسر الهمزة، أي: يبنيه على الكسر إذا جاور لامَ الجرِّ خاصَّة لأنه اسمُ فعل بمعنى الدعاء، وأنشد الأصمعي بيت النابغة:

---

(١) حاشية الشهاب ٨/ ٤١.
(٢) ذكره أبو حيان في البحر ٨/ ٧٥، وقال في الدرر اللوامع ٣/ ٧٥: لم أعثر على قائله.
(٣) إملاء ما منَّ به الرحمن ٤/ ٣٢٤.
(٤) البحر المحيط ٨/ ٧٥.
(٥) البحر المحيط ٨/ ٧٥، وهي غير المشهورة عن ابن كثير، وذكرها القرطبي في تفسيره ١٩/ ٢٤٤، دون نسبة.
(٦) حاشية الشهاب ٨/ ٤١.
(٧) الصحاح (فدى).

مــهــلًا فــداءٍ لــك. . . . .[1]

وهذا الكسر مع التنوين كما صرّح به في «البحر»[2].

وظاهرُ الآية ـ على ما ذكره السيوطي في أحكام القرآن العظيم ـ امتناع القتل بعد الأسر، وبه قال الحسن[3]. وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه أنه قال: أُتي الحجَّاج بأُسارى، فدفع إلى ابن عمر رضي الله عنهما رجلًا يقتله، فقال ابن عمر: ليس بهذا أُمرنا إنما قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾[4].

وفي حُكم الأسارى خلافٌ، فذهب الأكثرون إلى أن الإمام بالخِيار إنْ شاء قتلهم إنْ لم يُسلموا؛ لأنه ﷺ قَتَلَ صبرًا عُقبة بنَ أبي مُعيط وطعيمة بنَ عدي والنضر بنَ الحارث التي قالت فيه أخته أبياتًا منها تُخاطب النبيَّ ﷺ:

مــا كــان ضــرَّكَ لــو مــنــنــتَ وربــمَّــا مَنَّ الفتى وهو المَغيظ المُحْنَقُ[5]

ولأنَّ في قتلهم حَسْمَ مادة فسادهم بالكلية، وليس لواحدٍ من الغُزاة أن يقتل أسيرًا بنفسه، فإنْ فعل بلا مُلجئ كخوف شرِّ الأسير، كان للإمام أنْ يُعزِّره إذا وقع على خلاف مقصوده ولكن لا يضمن شيئًا. وإن شاء استرقَّهم لأنَّ فيه دَفْعَ شرِّهم مع وفور المصلحة لأهل الإسلام، وإن شاء تركهم ذِمَّةً أحرارًا للمسلمين كما فعل عمر رضي الله عنه ذلك في أهل السواد، إلا أسارى مشركي العرب والمرتدِّين، فإنهم لا تُقبل منهم جزية، ولا يجوز استرقاقهم، بل الحكم فيهم إما الإسلام أو السيف، وإن أسلم الأُسارى بعد الأسر لا يقتلهم لاندفاع شرِّهم بالإسلام، ولكن يجوز استرقاقُهم ـ فإن الإسلام لا يُنافي الرقَّ ـ جزاءً على الكفر الأصلي، وقد وُجد بعد انعقاد سببِ الملك، وهو الاستيلاءُ على الحربي غير المشرك من العرب، بخلاف

---

(١) ديوان النابغة الذبياني ص٣٦، والبيت بتمامه:

مــهــلاً فــداءٍ لــك الأقــوامُ كــلُّــهــم ومــا أُثــمِّــر مــن مــال ومــن ولــدِ

(٢) البحر المحيط ٨/ ٧٥.

(٣) الإكليل في استنباط التنزيل ص٢٣٨.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٤٦، وتفسير الطبري ٢١/ ١٨٥.

(٥) السيرة النبوية ١/ ٦٤٤ و٢/ ٤٢، والبيت سلف ٦/ ٢٨.

ما لو أسلموا من قبل الأخذِ، فإنهم يكونون أحرارًا لأنه إسلامٌ قبل انعقاد سبب المِلك فيهم.

ولا يُفادى بالأسارى في إحدى الروايتين عن الإمام أبي حنيفة ﷺ لما في ذلك من معونةِ الكفر؛ لأنه يعود الأسير الكافر حربًا علينا، ودفعُ شرِّ حرابته خيرٌ من استنقاذ المسلم؛ لأنه إذا بقي في أيديهم كان ابتلاءً في حقِّه فقط، والضررُ بدفع أسيرهم إليهم يعود على جماعة المسلمين.

والروايةُ الأُخرى عنه أنه يُفادَى، وهو قول محمد وأبي يوسف والإمام الشافعي ومالك وأحمد، إلا بالنساء، فإنه لا يجوز المُفاداة بهنَّ عندهم. ومنع أحمد المفاداة بصبيانهم، وهذه رواية «السير الكبير». قيل: وهو أظهرُ الروايتين عن الإمام أبي حنيفة. وقال أبو يوسف: تجوزُ المُفاداة بالأسارى قبلَ القِسمة لا بعدَها. وعند محمد تجوز بكلِّ حال.

ووجه ما ذكره الأئمَّة من جواز المفاداة أنَّ تخليصَ المسلم أولى من قَتْلِ الكافر للانتفاع به، ولأنَّ حرمته عظيمة، وما ذُكر من الضرر الذي يعود إلينا بدَفْعه إليهم يدفعه ظاهرًا المسلمُ الذي يتخلَّص منهم، لأنه ضررُ شخصٍ واحد، فيقوم بدفعه واحدٌ مثلُه ظاهرًا، فيتكافأان وتبقى فضيلةُ تخليصِ المسلم وتمكينه من عبادة الله تعالى، فإن فيها زيادةَ ترجيح.

ثم إنه قد ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ؛ أخرج مسلم وأبو داود والترمذي وعبد بن حُميد وابن جرير عن عمران بن حُصين أن رسول الله ﷺ فدى رجلين من المسلمين برجل من المشركين[1].

ويُحتجُّ لمحمد بما أخرجه مسلم أيضًا عن إياس بن سَلَمة عن أبيه سَلَمة قال: خرجنا مع أبي بكر ﷺ أمَّره علينا رسول الله ﷺ، إلى أن قال: فلقيني رسول الله ﷺ من الغد في السوق فقال: «يا سلمة هَبْ لي المرأة» يعني التي نفَّله أبو بكر إياها،

---

(١) صحيح مسلم (١٦٤١)، وسنن أبي داود (٣٣١٦)، وسنن الترمذي (٢٧١٤)، وهو عند أحمد (١٩٨٦٣).

فقلت: يا رسولَ الله، لقد أعجبتني وما كشفتُ لها ثوبًا، ثم لقيني رسول الله ﷺ من الغد في السوق فقال: «يا سلمة هَبْ لي المرأةَ لله أبوك» فقلت: هي لك يا رسولَ الله، فوالله ما كشفتُ لها ثوبًا، فبعث بها رسولُ الله ﷺ ففدى بها ناسًا من المسلمين أُسِروا بمكة[(١)].

ولا يُفادى بالأسير إذا أسلم وهو بأيدينا لأنه لا يُفيد، إلا إذا طابت نفسه وهو مأمونٌ على إسلامه فيجوز؛ لأنه يُفيد تخليصَ مسلم من غير إضرار بمسلم آخر.

وأما المفاداة بمال فلا تجوز في المشهور من مذهب الحنفية لِمَا بيّن في المفاداة بالمسلمين من رَدِّهم حربًا علينا. وفي «السير الكبير»: أنه لا بأسَ به إذا كان بالمسلمين حاجةٌ، قيل: استدلالًا بأسارى بدر؛ فإنه لا شكَّ في احتياج المسلمين بل في شدَّة حاجتهم إذْ ذاك، فليكن محملُ المفاداة الكائنة في بدر بالمال.

وأما المنُّ على الأسارى وهو أن يُطلقهم إلى دار الحرب من غير شيء فلا يجوز عند أبي حنيفة ومالك وأحمد، وأجازه الإمام الشافعي لأنه ﷺ مَنَّ على جماعة من أسرى بدر منهم أبو العاص بن الربيع[(٢)] على ما ذكره ابن إسحاق بسنده، وأبو داود من طريقه إلى عائشة: لما بَعَثَ أهلُ مكة في فِداء أسراهم بعثت بنتُ رسول الله ﷺ في فداءِ أبي العاص بمال وبعثَتْ فيه بقلادة كانت خديجةُ أدخلتها بها على أبي العاص حين بنائه عليها، فلما رأى النبيُّ ﷺ ذلك رقَّ لها رِقَّة شديدة، وقال لأصحابه: «إنْ رأيتُم أن تُطلقوا لها أسيرَها وتردُّوا لها الذي لها» ففعلوا ذلك مُغتبطِين به. ورواه الحاكم وصحَّحه وزاد: وكان النبيُّ ﷺ قد أخذ عليه أن يُخلّي زينب إليه، ففعل[(٣)].

---

(١) صحيح مسلم (١٧٥٥).
(٢) في الأصل و(م): ابن أبي الربيع، والصواب المثبت. ينظر تجريد أسماء الصحابة للذهبي ص١٨١.
(٣) السيرة النبوية ١/ ٦٥٢، وسنن أبي داود (٢٦٩٢)، والمستدرك ٣/ ٢٣.

ومَنَّ ﷺ على ثُمامة بن أُثَال بن النعمان الحنفي سيِّد أهل اليمامة، ثم أسلم وحَسُنَ إسلامه، وحديثه في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة(١).

ويكفي ما ثبت في «صحيح البخاري» من قوله عليه الصلاة والسلام: «لو كان المُطعِم بن عدي حيًّا ثم كلَّمني في هؤلاء النَّتْنَى - يعني أسارى بدر - لتركتُهم له»(٢)، فإنه ﷺ أخبر وهو الصادقُ المصدوق بأنه يُطلقهم لو سأله المُطعم، والإطلاق على ذلك التقدير لا يثبتُ إلا وهو جائزٌ شرعًا لمكان العصمة، وكونُه لم يَقَعْ لعدم وقوعِ ما عُلِّق عليه لا ينفي جوازه شرعًا.

واستدلَّ أيضًا بالآية التي نحن فيها فإنَّ الله تعالى خيَّر فيها بين المنِّ والفداء، والظاهر أنَّ المرادَ بالمنّ الإطلاقُ مجانًا؛ وكونُ المرادِ المنَّ عليهم بترك القتل وإبقاءهم مستَرقِّين أو تخليتهم لقبول الجزية وكونهم من أهل الذِّمة خلافُ الظاهر، وبعضُ النفوس تجد طعمَ الألاء(٣) أحلى من هذا المنّ.

وأجاب بعضُ الحنفية بأن الآيةَ منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ من سورة براءة [الآية: ٥] فإنه يقتضي عدمَ جواز المنّ وكذا عدمَ جواز الفِداء، وهي آخرُ سورة نزلَتْ في هذا الشأن، وزعم أن ما وقع من المنِّ والفِداء إنما كان في قضية بدر، وهي سابقةٌ عليها وإن كان شيء من ذلك بعد بدر فهو أيضًا قبل السورة.

والقول بالنَّسْخ جاء عن ابن عباس وقتادة والضحاك ومجاهد في روايات ذكرها الجلال السيوطي في «الدر المنثور»(٤). وقال العلامة ابن الهُمام(٥): قد يقال إنَّ ذلك - يعني ما في سورة براءة - في حقِّ غيرِ الأسارى بدليل جوازِ الاسترقاق فيهم فيعلم أنَّ القتلَ المأمورَ به في حقِّ غيرهم. وما ذكره في جواز الاسترقاق ليس على

---

(١) صحيح مسلم (١٧٦٤).
(٢) صحيح البخاري (٣١٣٩) من حديث جبير بن مطعم بن عدي، وهو عند أحمد (١٦٧٣٣).
(٣) الألاء كسحاب ويقصر: شجر مرٌّ. القاموس (ألو).
(٤) ٦/ ٤٦.
(٥) في فتح القدير ٤/ ٣٠٨.

إطلاقه، إذ لا يجوز كما علمتَ استرقاقُ مشركي العرب.

﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي: آلاتها وأثقالها من السلاح وغيره، قال الأعشى:

وأعددت للحربِ أوزارها رماحًا طوالًا وخيلًا ذكورا
ومِن نَسْجِ داود موضونةً تساق إلى الحرب عِيرًا فعيرا[1]

وهي في الأصل: الأحمال، فاستُعيرت لما ذكر استعارةً تصريحية، ويجوز أن يكونَ في «الحرب» استعارة مكنية بأن تُشبَّه بإنسان يحمل حملًا على رأسِهِ أو ظهره، ويثبت لها ما أثبت تخييلًا، وكلامُ «الكشاف»[2] أَمْيَلُ إليه.

وقيل: هي أحمالُ المحارِب، أُضيفت للحرب تجوّزًا في النسبة الإضافية وتغليبًا لها على الكُراع[3]، وإسناد الوضع للحرب مجازي أيضًا. وليس بذاك.

وعدَّ بعضُ الأماثل الكلامَ تمثيلًا، والمراد: حتى تنقضي الحربُ، وقال: يجوز أن يكون إرادة ذلك من باب المجاز المتفرّع على الكناية، كما في قوله:

فألقَتْ عصاها واستقرَّ بها النوى[4]

فإنه كنَى به عن انقضاء السفر والإقامة.

وقيل: الأوزار جمع وِزْر بمعنى إثْم، وهو هنا الشِّرك والمعاصي، «وتضع» بمعنى تترك، مجازًا، وإسناده للحرب مجاز، أو بتقدير مضاف، والمعنى: حتى يضعَ أهلُ الحرب شِرْكَهم ومعاصيهم. وفيه أنه لا يستحسن إضافةُ الأوزار بمعنى الآثام إلى الحرب.

و«حتى» عند الشافعي عليه الرحمة ـ ومن قال نحو قوله ـ غايةٌ للضرب، والمعنى: اضرِبوا أعناقَهم حتى تنقضيَ الحربُ، وليس هذا بدلًا من الأول ولا تأكيدًا له بناءً على ما قرَّروه من أنَّ «حتى» الداخلة على «إذا» الشرطية ابتدائية أو غايةٌ

---

(١) ديوان الأعشى ص١٤٩.
(٢) ٣/ ٥٣١، والكلام من حاشية الشهاب ٨/ ٤١.
(٣) اسم للخيل؛ لأنها تخبط كراعها في الدفع عن نفسها. حاشية الشهاب ٨/ ٤٢.
(٤) سلف ١٠/ ١٠٢، وعجزه: كما قرَّ عينًا بالإياب المسافر.

للشدِّ، أو للمنِّ والفداء معًا، أو للمجموع من قوله تعالى: «فضرب الرقاب» إلخ، بمعنى أنَّ هذه الأحكام جاريةٌ فيهم حتى لا يكون حربٌ مع المشركين بزوال شوكتهم، وقيل: بنزول عيسى عليه السلام، ورُوي ذلك عن سعيد بن جُبير والحسن، وفي الحديث ما يُؤيِّده؛ أخرج أحمد والنسائي وغيرُهما عن سَلَمة بن نُفيل قال: بينما أنا جالسٌ عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجلٌ فقال: يا رسولَ الله، إنَّ الخيلَ قد سُيِّبت ووضع السلاح، وزعم أقوامٌ أن لا قتالَ وأنْ قد وضعت الحربُ أوزارَها، فقال رسول الله ﷺ: «كذبوا، فالآن جاء القتالُ، ولا تزال طائفةٌ يُقاتلون في سبيل الله لا يضرُّهم من خالفهم، يُزيغُ الله تعالى قلوبَ قوم ليرزقهم منهم، وتُقاتلون حتى تقومَ الساعةُ، ولا تزالُ الخيلُ معقودًا في نواصيها الخيرُ حتى تقومَ الساعةُ، ولا تضعُ جنسُ الحربُ أوزارَها حتى يخرجَ يأجوج ومأجوج»[(١)].

وهي عند من يقول: لا مَنَّ ولا فِداء اليوم غايةٌ للمَنِّ والفِداء إنْ حمل «الحرب»[(٢)] على حرب بدر بجعل تعريفه للعهد، والمعنى: يُمَنُّ[(٣)] عليهم ويُفادون حتى تضعَ حربُ بدر أوزارها، وغايةٌ للضرب والشَّدِّ إن حُملت على الجنس، والمعنى أنهم يقتلون ويُؤسرون حتى يضع جنسُ الحرب أوزارها بأن لا يبقى للمشركين شوكةٌ، ولا تُجعل غاية للمنِّ والفِداء مع إرادة الجنس، وفي زعم جوازه والتزام النسخ كلامٌ، فتأمل.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر ذلك، أو افعلوا ذلك، فهو في محلِّ رفع خبر مبتدأ محذوف، أو في محلٍّ نصب مفعول لفعل كذلك، والإشارة إلى ما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ إلخ لا إلى ما تقدَّم من أول السورة إلى هاهنا؛ لأن افعلوا لا يقع على جميع السالف، وعلى الرفع ينفكُّ النظم الجليل إنْ لم يُحمل عليه لأنَّ ما بعدُ كلام فيهم.

---

(١) مسند أحمد (١٦٩٦٥)، وسنن النسائي ٦/ ٢١٤، وأخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٢٥٢٤) واللفظ له. وعند أحمد أن الذي جاء إلى النبي ﷺ وكلَّمه هو سلمة بن نُفيل نفسه.
(٢) قبلها في (م): على، وهو خطأ، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٨/ ٩٣.
(٣) في الأصل و(م): المن، والمثبت من تفسير أبي السعود.

﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ لانتقم منهم ببعض أسبابِ الهلاك من خَسْف أو رَجْفة أو غَرَق أو موت جارف ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ ولكن أمركم سبحانه بالقتال ليبلو المؤمنين بالكافرين بأن يُجاهدوهم فينالوا الثوابَ ويُخلَّد في صحف الدهر ما لهم من الفضل الجسيم، والكافرين بالمؤمنين بأن يُعاجِلَهم عز وجل ببعض انتقامه سبحانه فيتَّعظَ به بعضٌ منهم ويكون سببًا لإسلامه؛ واللام متعلِّقة بالفعل المقدَّر الذي ذكرناه.

﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: استشهدوا. وقرأ الجمهور: «قاتلوا» أي: جاهدوا[١]، والجحدري بخلاف عنه: «قَتَلوا» بفتح القاف والتاء بلا ألف، وزيد بن ثابت والحسن وأبو رجاء وعيسى والجحدري أيضًا: «قُتِّلوا» بالبناء للمفعول وشدِّ التاء[٢].

﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾ فلن يُضيِّعها سبحانه، وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه: «يُضَلَّ» مبنيًّا للمفعول «أعمالُهم» بالرفع على النيابة عن الفاعل، وقرئ: «يَضِلّ» بفتح الياء من ضَلَّ «أعمالُهم» بالرفع على الفاعلية[٣]. والآية قال قتادة ـ كما أخرجه عنه ابن جرير وابن أبي حاتم ـ: ذكر لنا أنها نزلَتْ في يوم أُحد ورسول الله ﷺ في الشِّعب وقد فَشَتْ فيهم الجِراحات والقتل وقد نادى المشركون يومئذ: اعلُ هُبل. ونادى المسلمون: اللهُ أعلى وأجلّ. فنادى المشركون: يومٌ بيوم بدر، وإنَّ الحرب سِجال، لنا عُزَّى ولا عُزَّى لكم. فقال رسولُ الله ﷺ: «اللهُ مولانا ولا مَوْلى لكم، إنَّ القَتْلى مُختلفة؛ أما قتلانا فأحياءٌ مرزوقون، وأما قتلاكم ففي النار يُعذَّبون»[٤]. ومنه يعلم وجه قراءة: «قُتِّلوا» بصيغة التفعيل.

﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ سَيُوصلهم إلى ثواب تلك الأعمال من النعيم المُقيم والفضل العظيم، وهذا كالبيان لقوله سبحانه: «فلن يضل أعمالهم». أو سيُثبِّتُ جلَّ شأنه في

---

(١) السبعة ص٦٠٠، والتيسير ص٢٠٠، وقرأ أبو عمرو وحفص ويعقوب: «قُتِلوا».
(٢) القراءات الشاذة ص١٤٠، وتفسير القرطبي ٩/ ٢٥٠.
(٣) القراءات الشاذة ص١٤٠، والبحر المحيط ٨/ ٧٥.
(٤) الدر المنثور ٦/ ٤٨، وتفسير الطبري ٢١/ ١٩٠-١٩١، وبعض ألفاظه في صحيح البخاري (٣٠٣٩) من حديث البراء بن عازب ﷺ.

الدنيا هدايتهم، والمراد الوعد بأن يحفظهم سبحانه ويصونهم عمَّا يُورث الضلال وحَبْط الأعمال، وهو كالتعليل لذلك، ويجوز أن يكون كالبيان له أيضًا.

﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝﴾ أي: شأنهم، قال الطبرسي: المراد إصلاحُ ذلك في العُقبى[1]. فلا يتكرَّر مع ما تقدَّم، لأنَّ المرادَ به إصلاحُ شأنهم في الدين والدنيا فلا تغفُل.

﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝﴾ في موضع الحال بتقدير «قد» أَوْ بدونه، أو استئناف كما قال أبو البقاء[2]. والتعريف في الآخرة؛ أخرج عبد بن حُميد وابن جرير عن مجاهد أنه قال: يُهدى أهل الجنة إلى بيوتهم ومساكنهم وحيث قسم الله تعالى لهم منها لا يُخطؤون، كأنهم ساكنوها منذ خُلقوا لا يستدِلُّون عليها أحدًا[3]. وفي الحديث: «لأحدُكم بمنزله في الجنة أعرفُ منه بمنزله في الدنيا»[4] وذلك بإلهام منه عز وجل.

وأخرج ابنُ أبي حاتم عن مقاتل أنه قال: بلغنا أن المَلَك الذي كان وُكِّل بحفظ عملِ الشخص في الدنيا يمشي بين يديه في الجنة ويتبعه الشخصُ حتى يأتيَ أقصى منزل هو له فَيُعرِّفه كلَّ شيء أعطاه الله تعالى في الجنة، فإذا انتهى إلى أقصى منزله في الجنة دخل إلى منزله وأزواجه وانصرف المَلَكُ عنه[5].

وورد في بعض الآثار أن حسناتِه تكون دليلًا له إلى منزله فيها.

وقيل: إنه تعالى رسم على كلِّ منزل اسمَ صاحبه، وهو نوعٌ من التعريف.

وقيل: تعريفها تحديدها، يقال: عرف الدار وأرَّفها، أي: حدَّدها، أي: حدَّدها لهم بحيث يكون لكلٍّ جنةٌ مُفرزة.

---

(١) مجمع البيان ٢٦/ ٣١.
(٢) إملاء ما منَّ به الرحمن ٤/ ٣٢٥.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٤٨، وتفسير الطبري ٢١/ ١٩٢.
(٤) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١١٠٩٥)، والبخاري (٢٤٤٠) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.
(٥) الدر المنثور ٦/ ٤٨، وذكره عنه أيضاً ابنُ كثير في تفسيره عند تفسير هذه الآية.

وقيل: أي: شرَّفها لهم ورفعها وعلَّاها، على أنَّ «عرَّفها» من الأعراف التي هي الجبال وما أشبهها.

وعن ابن عباس في رواية عطاء ـ ورُوي عن مُؤرج ـ أي: طيَّبها لهم، على أنه من العَرْف، وهو الريحُ الطيبة هاهنا، ومنه: طعام مُعَرَّف، أي: مُطَيَّب، وعَرَّفت القِدْرَ طيَّبتها بالمِلح والتابل.

وعن الجُبَّائي أن التعريف في الدنيا، وهو بذكر أوصافها، والمراد أنه تعالى لم يَزَلْ يمدحها لهم حتى عشقوها فاجتهدوا فيما يُوصلهم إليها:

والأذن تعشقُ قبلَ العين أحيانا(١)

وعلى هذا المرادِ قيل:

أشتاقه من قبل رؤيته كما ... تُهْوَى الجنانُ بطيِّب الأخبار

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: دينه ورسولَه ﷺ لا على أن الكلام على تقدير مضاف بل على أن نصرة الله فيه تجوُّزٌ في النسبة، فنصرته سبحانه نصرة رسوله ودينه إذ هو جل شأنه وعلا المعين الناصر وغيره سبحانه المعان المنصور. ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ على أعدائكم ويفتح لكم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ في مواطن الحرب ومواقفها، أو على محجَّة الإسلام، والمراد: يقويكم أو يوفِّقكم للدوام على الطاعة. وقرأ المفضل عن عاصم: «ويُثْبِتْ» مخفَّفًا(٢).

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ من تَعَسَ الرجل بفتح العين تعسًا، أي: سقط على وجهه، وضدُّه انتعش، أي: قام من سقوطه، وقال شمر وابن شميل وأبو الهيثم وغيرهم: تَعِسَ بكسر العين، ويقال: تعسًا له ونُكسًا، على أن الأول ـ كما قال ابن السِّكيت ـ بمعنى السقوط على الوجه، والثاني بمعنى السقوط على الرأس، وقال الحمصي في حواشيه على «التصريح»: تعس تعسًا، أي: لا انتعش من عثرته، ونُكسًا بضمِّ النون وقد تُفتح إما في لغة قليلة وإما إتباعًا لِتَعْسًا، والنُّكس بالضَّمِّ:

---

(١) قائله بشار بن برد، وهو في ديوانه ٢/ ٥٣٣، وصدره: يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٧٦، وهي غير المشهورة عن عاصم.

عَوْدُ المرض بعد النَّقه؛ ويُراد بذلك الدعاء، وكَثُرَ في الدعاء على العاثر: تعسًا له، وفي الدعاء له: لَعًا له، أي: انتعاشًا وإقامة، وأنشدوا قول الأعشى يصف ناقة:

كَلَّفتُ مجهولةً نفسي وشايَعَني هـمِّي عـلـيـهـا إذا مـا آلُـهـا لَـمـعـا

بـذات لَـوثٍ عَـفَـرْنـاةٍ إذا عَـثَـرتْ فالتَّعْسُ أولى لها من أنْ أقولَ لعا[1]

وقال ثعلب وابن السكيت أيضًا: التعسُ: الهلاك، ومنه قول مُجمِّع بن هلال:

تـقـول وقـد أفـرَدْتُـهـا مـن حَـلِـيـلـهـا تَعَسْتَ كما أَتْعَسْتَني يا مُجَمِّع[2]

وفي «القاموس»: التعس: الهلاك، والعِثار، والسقوط، والشَّرُّ، والبعد، والانحطاط، والفعل كَمَنَعَ وسَمِعَ، أو إذا خاطبت قلت: تَعَسْتَ، كَمَنَعَ، وإذا حكيتَ قلت: تَعِسَ، كَسَمِعَ، ويقال: تعسه الله تعالى، وأتعسه، ورجل تاعسٌ وتَعِسٌ[3].

وانتصابه على المصدر بفعل من لفظه يجب إضماره، لأنه للدعاء كسقيًا ورعيًا، فيجري مجرى الأمثال إذا قصد به ذلك، والجارُّ والمجرور بعده متعلِّقٌ بمقدَّر للتبيين عند كثير، أي: أعني له، مثلًا، فنحو: تعسًا له، جملتان. وذهب الكوفيون إلى أنه كلامٌ واحد، ولابن هشام كلامٌ في هذا الجارِّ مذكور في بحث لام التبيين، فلينظر هناك[4].

واختلفت العبارات في تفسير ما في الآية الكريمة، فقال ابن عباس: أي: بُعدًا لهم. وابن جريج والسدي: أي: حزنًا لهم. والحسن: أي: شتمًا لهم. وابن زيد: أي: شقاء لهم. والضحاك: أي: رغمًا لهم. وحكى النقاش تفسيره بِقُبحًا لهم.

---

(١) ديوان الأعشى ص١٥٣، وحاشية الشهاب ٨/ ٤٣، ورواية الديوان: مجهولها، بدل: مجهولة، وأدنى، بدل: أولى. قال الشهاب: اللوث: القوة. وناقة عفرناة، أي: قوية.

(٢) البيت في درة الغواص ص١١٠، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/ ٧١٧، وخزانة الأدب١٠/ ٤٠٣. والمعنى: قالت لي وقد سبيتها وفرَّقت بينها وبين زوجها: تعست...، وقال المرزوقي: وسمي الزوج حليلاً والمرأة حليلة لأن كل واحد منهما يَحُلُّ مع صاحبه. ووقع في الأصل وبعض المصادر: خليلها.

(٣) القاموس المحيط (تعس).

(٤) مغني اللبيب ص٢٩١-٢٩٢.

وقال غير واحد: أي: عثورًا وانحطاطًا لهم، وما ألطف ذكر ذلك في حقِّهم بعد ذكر تثبيتِ الأقدام في حقِّ المؤمنين.

وفي رواية عن ابن عباس: يريد في الدنيا القتل، وفي الآخرة التردِّي في النار.

وأكثر الأقوال ترجع إلى الدعاء عليهم بالهلاك.

وجوَّز الزمخشري[1] في إعرابه وجهين: الأول: كونه مفعولًا مطلقًا لفعل محذوف، كما تقدَّم. والثاني: مفعولًا به لمحذوف، أي: فقضى تعسًا لهم، وقدَّر على الأول القول، أي: فقال: تعسًا لهم، والذي دعاه لذلك ـ على ما قيل ـ جَعْلُ «الذين» مبتدأً والجملة المقرونة بالفاء خبرًا له، وهي لإنشاء الدعاء، والإنشاءُ لا يقع خبراً بدون تأويل، فإما أن يقدَّر معها قول أو تجعل خبرًا بتقدير قضى، وجَعَل قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٨﴾ عطفًا على ما قدّر.

وفي «الكشف»: المراد مِن قال: تعسًا لهم: أهلكهم الله، لا أن ثَمَّ دعاءً وقولًا، وذلك لأنه لا يُدعى على شخص إلا وهو مستحِقٌّ له، فإذا أخبر تعالى أنه يدعو عليه دلَّ على تحقُّق الهلاك، لاسيما وظاهرُ اللفظ أن الدعاء منه عز وجل، وهذا مجازٌ على مجاز، أعني: أن القول مجاز، وكذلك الدعاء بالتعس، ولم يَجْعل العطف على «تعسًا» لأنه دعاء، و«أضل» إخبار، ولو جُعِل دعاءً أيضًا عطفًا على «تعسًا» على التجوُّز المذكور لكان له وجه. انتهى.

وأنت تعلم أن اعتبارَ ما اعتبره الزمخشري ليس لأجل أمرِ العطف فقط، بل لأجل أمر الخبرية أيضًا، فإنْ قيل بصحة الإخبار بالجملة الإنشائية من غير تأويل استغني عما قاله بالكلية. ودخلت الفاء في خبر الموصول لِتضمُّنه معنى الشرط.

وجوز أن يكون الموصولُ في محلِّ نصب على المفعولية لفعل مقدَّر يُفسِّره الناصب لـ «تعسًا»، أي: أتعس اللهُ الذين كفروا، أو: تعس الله الذين كفروا تعسًا، لما سمعت عن «القاموس»، وقد حكي أيضًا عن أبي عُبيدة، والفاء زائدة في الكلام كما في قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: ٣] ويزيدها العرب في مثل ذلك

---

(١) في الكشاف ٣/ ٥٣٢.

على توهُّم الشرط. وقيل: يقدّر الفعل مضارعًا معطوفًا على قوله تعالى: «يُثبّت» أي: ويُتعس الذين.. إلخ، والفاء للعطف، فالمراد إتعاسٌ بعد إتعاس، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠] أو لأن حقّ المُفسِّر أن يُذكَر عَقِبَ المُفسَّر كالتفصيل بعد الإجمال، وفيه مقال.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذكر من التعس والإضلال ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾ بسبب أنهم ﴿كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من القرآن لما فيه من التوحيد وسائر الأحكام المُخالفة لما أَلِفُوه واشتَهَتْهُ أنفسهم الأمّارة بالسوء، وهذا تخصيصٌ وتصريحٌ بسببية الكُفر بالقرآن للتعس والإضلال إذْ قد عُلم من قوله تعالى: «والذين كفروا» إلخ سببيَّةُ مطْلَق الكفر الداخل فيه الكفر بالقرآن دخولًا أوليًّا لذلك. ﴿فَأَحۡبَطَ﴾ لأجل ذلك ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ ٩﴾ التي لو كانوا عَمِلوها مع الإيمان لَأُثِيبوا عليها. وذَكَر الإحباط مع ذكر الإضلال المراد هو منه إشعارًا بأنه يلزم الكفرَ بالقرآن ولا ينفكُّ عنه بحال.

﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أَقَعدوا في أماكنهم فلم يسيروا فيها ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ من الأمم المُكذِّبة، فإن آثار ديارهم تُنبئ عن أخبارهم.

وقوله تعالى: ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ كأنه قيل: كيف كانت عاقبتهم؟ فقيل: أهلكَ ما يختصُّ بهم من النفس والأهل والمال، يقال: دمَّره: أهلكه، ودمّر عليه: أهلك ما يختصُّ به، فـ: دمَّر عليه، أبلغُ من: دمَّره، وجاءت المبالغة من حذفِ المفعول وجَعْلِه نسيًا منسيًا، والإتيانِ بكلمة الاستعلاء، وهي لتضمُّن التدمير معنى الإيقاع أو الهجوم أو نحوه.

﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: لهؤلاء الكافرين السائرين سِيرتهم ﴿أَمۡثَٰلُهَا ١٠﴾ أمثالُ عاقبتهم أو عقوبتهم لدلالة ما سبق عليها، لكن لا على أن لهؤلاء أمثالَ ما لأولئك وأضعافه، بل مثله، وإنما جُمع باعتبار مُماثلته لعواقبَ متعدِّدة حسب تعدُّد الأُمم المعذَّبة. وقيل: يجوز أن يكون عذابهم أشدَّ من عذاب الأوَّلين، وقد قُتلوا وأسروا بأيدي من كانوا يستخفُّونهم ويستضعفونهم، والقتل بيد المثلِ أشدُّ من الهلاك بسبب عامٍّ. وقيل: المرادُ بالكافرين المتقدِّمون، بطريق وضع الظاهر موضعَ الضمير، كأنه قيل: دمَّر الله تعالى عليهم في الدنيا ولهم في الآخرة أمثالها.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ثبوت أمثال عاقبة أو عقوبة الأمم السالفة لهؤلاء، وقيل: إشارة إلى النصر، وهو كما ترى ﴿بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: ناصرهم على أعدائهم، وقرئ: «وَلِيُّ الذين آمنوا»[1].

﴿وَأَنَّ الْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ⑪﴾ فيدفع ما حلَّ بهم من العقوبة والعذاب، ولا يُناقض هذا قولَه تعالى: ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ الْحَقِّ﴾ [يونس: ٣٠] لأن المولى هناك بمعنى المالك، فلم يتوارد النفي والإثبات على معنى واحد.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ﴾ بيانٌ لحكم ولايته تعالى لهم وثمرتها الأخروية.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ﴾ أي: ينتفعون بمتاع الدنيا أيامًا قلائل ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَٰمُ﴾ الكاف في موضع نصب إما على الحال من ضمير المصدر كما يقول سيبويه، أي: يأكلونه ـ أي: الأكل ـ مُشْبِهًا أكلَ الأنعام، وإما على أنه نعتٌ لمصدر محذوف كما يقول أكثرُ المُعربين، أي: أكلًا مثلَ أكل الأنعام، والمعنى: أن أكلهم مجرَّدٌ من الفكر والنظر، كما تقول للجاهل: تعيش كما تعيش البهيمة، لا تُريد التشبيه في مطلق العيش ولكن في خواصِّه ولوازمه، وحاصله أنهم يأكلون غافلين عن عواقبهم ومنتهى أُمورهم.

وقوله تعالى: ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ⑫﴾ أي: موضع إقامة لهم، حالٌ مُقدَّر من واو «يأكلون». وجوِّز أن يكون استئنافًا، وكأنَّ قوله تعالى: «يتمتعون ويأكلون» في مقابلة قوله سبحانه: «وعملوا الصالحات» لما فيه من الإيماء إلى أنهم عَرَفوا أن نعيمَ الدنيا خيالٌ باطل وظلٌّ زائل، فتركوا الشهواتِ وتفرَّغوا للصالحات، فكان عاقبتهم النعيمَ المُقيم في مقام كريم، وهؤلاء غَفَلوا عن ذلك فرتعوا في دِمْنهم كالبهائم حتى ساقهم الخِذلان إلى مَقَرِّهم من دَرْك النيران. وهذا ما ذكره العلامة الطيبي في بيان التقابل بين الآيتين.

وقال بعضُ الأجِلَّة: في الكلام احتباكٌ، وذلك أنه ذكر الأعمال الصالحة

(١) قرأ بها ابن مسعود رضي الله عنه. تفسير القرطبي ١٩/ ٢٥٦.

ودخولَ الجنة أولًا دليلًا على حذف الأعمال الفاسدة ودخولِ النار ثانيًا، وذكر التمتع والمثوَى ثانيًا دليلًا على حذف التقلُّل والمأوى أولًا. والأول أحسنُ وأدقُّ.

وأَسندَ إدخال الجنة إلى الله تعالى ولم يسلك نحو هذا المَسلك في قوله تعالى: «والنار مثوى لهم» وخُولف بين الجملتين فعلية واسمية للإيذان بسبق الرحمة والإعلام بمصير المؤمنين والوعدِ بأنَّ عاقبتهم أنَّ الله سبحانه يُدخلهم جناتٍ وأن الكافرين مثواهم النار، وهم الآن حاضرون فيها ولا يدرون، وكالبهائم يأكلون.

﴿وَكَأَيِّن﴾ بمعنى «كم» الخبرية، وهي مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ تمييزٌ لها، وقوله سبحانه: ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ﴾ صفة لـ «قريةٍ»، كما أنَّ قوله عز وجل: ﴿الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ صفة لـ «قريتك»، وقد حُذف عنهما المضاف وأجري أحكامه عليهما كما يُفصح عنه الخبر الذي هو قوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ أي: وكم من أهل قرية هم أشدُّ قوة من أهل قريتك الذين أخرجوك أهلكناهم بأنواعِ العذاب. وجُوِّز أن لا يكون هناك حذفٌ، وإنما أُطلق المحلُّ وأُريد الحالُّ مجازًا.

وإسنادُ الإخراج إلى أهل قريته ﷺ وهي مكة المكرمة مجازٌ من باب الإسناد إلى السبب لأنهم عاملوه ﷺ بما عاملوه، فكانوا بذلك سببًا لإخراجه حين أَذِنَ الله تعالى له عليه الصلاة والسلام بالهجرة منها، ونظيرُ ذلك: أَقدمني بلدك حقٌّ لي عليك. وأنت تعلم أنه على ما حقَّقه الأجِلَّة يحتمل أوجهًا ثلاثة: مجازًا في الإسناد إذا كان الإقدام مستعملًا في معناه الذي وُضع له وإن كان موهومًا. ومجازًا في الطرف إذا كان مستعملًا في معنى الحمل على القدوم. واستعارةً بالكناية إن كان الحقُّ مستعملًا في المقدم.

والشيخ يقول في مثل ذلك: إن الفعل المتعدِّي موهومٌ لا فاعلَ له ليصير الإسنادُ إليه حقيقةً، فلا إقدامَ مثلًا في قصد المُتكلِّم، وإنما هو تصويرُ القُدوم بصورة الإقدام، وإسناده إلى الحقِّ المصوَّر بصورة المُقْدِم مبالغةٌ في كونه داعيًا للقدوم، وارتضاه السيالكوتي في حواشي شرح مختصر «التلخيص»، وذبَّ عنه القال والقيل، وتمام الكلام هناك، والكلام في الآية على طرز ذاك.

ووصفُ القرية الأولى بشدة القوة للإيذان بأولوية الثانية منها بالإهلاك لضعف قوتها، كما أن وصفَ الثانية بإخراجه عليه الصلاة والسلام للإيذان بأولويتها به لقوة جنايتها، وعلى طريقته قول النابغة[1]:

كليبٌ لعمري كان أكثرَ ناصرًا وأيسرَ جُرْمًا منك ضُرِّجَ بالدم

وقوله تعالى: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾ بيانٌ لعدم خلاصهم بواسطة الأعوان والأنصار إثرَ بيان عدم خلاصهم منه بأنفسهم، والفاء لترتيب ذكر ما بالغير على ذكر ما بالذات، وهو حكايةُ حال ماضية كما في قوله تعالى: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩] ولا نُسلِّم أنَّ اسمَ الفاعل إذا لم يعمل حقيقةٌ في الماضي.

والآية تسليةٌ له ﷺ، فقد أخرج عبد بن حُميد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس أن النبيَّ ﷺ لما خرج من مكةَ إلى الغار التفتَ إلى مكة وقال: «أنت أحبُّ بلادِ الله تعالى إلى الله وأنتِ أحبُّ بلادِ الله تعالى إليَّ، ولولا أنَّ أهلك أخرجوني منكِ لم أخرجْ منكِ، فأعدى الأعداء مَن عَدَا على الله تعالى في حرمه، أو قَتَلَ غيرَ قاتله، أو قَتَلَ بذُحُولِ أهل الجاهلية» فأنزل الله سبحانه: (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ) إلخ[2]، وقد تقدم ما يتعلَّق بذلك أول السورة فتذكَّر.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ تقريرٌ لتباين حال الفريقين المؤمنين والكافرين؛ وكونِ الأوَّلينَ في أعلى عِلِّيِّين والآخرين في أسفل سافلين، وبيانٌ لعلَّة ما لكلٍّ منهما من الحال، والهمزة لإنكار استوائهما أو لإنكار كون الأمر ليس كما ذُكر، والفاء للعطف على مُقدَّر يقتضيه المقام، وقد قُرئ بدونها[3]، و«مَنْ» عبارة عن

(١) هو النابغة الجعدي، والبيت في ديوانه ص١٤٣.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٤٨، وهو في تفسير الطبري ٢١/ ١٩٨، والمطالب العالية ٣/ ٣٧١ عن أبي يعلى. ولقوله: «أعدى الأعداء من عدا على الله في حرمه، أو قَتَل غيرَ قاتله، أو قَتَل بذُحُول الجاهلية». شاهد من حديث عبد الله بن عمرو، وهو عند أحمد (٦٦٨١). قال ابن الأثير في النهاية (ذحل): الذَّحْل: الوِتْر وطلب المكافأة بجناية جُنيت عليه من قتل أو جرح ونحو ذلك، والذَّحل: العداوة أيضاً. اهـ. وتصحفت العبارة في البحر المحيط ٨/ ٧٨ (والكلام منه): وقيل: بدخول الجاهلية.

(٣) ذكرها أبو حيان في البحر ٨/ ٧٨.

المؤمنين المُتمسّكين بأدلة الدين كما أنها في قوله تعالى: ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ عبارةٌ عن أضدادهم من المشركين.

وأخرج جماعة عن ابن عباس أن مَنْ كان على بيِّنة من ربِّه: هو رسولُ الله ﷺ، ومَنْ زُيِّن له سوءُ عمله هم المشركون. ورُوي عن قتادة نحوه[1]، وإليه ذهب الزمخشري[2]. وتُعقِّب بأنَّ التخصيصَ لا يُساعده النظم الكريم ولا داعيَ إليه، قيل: ومثله كون «مَنْ» الأُولى عبارةً عنه ﷺ وعن المؤمنين، والمعنى: أيستوي الفريقان: أو أليس الأمر كما ذكر، فمن كان ثابتًا على حُجَّة ظاهرة وبرهان نيِّر من مالك أمرِه ومُربِّيه وهو القرآن العظيم وسائر المعجزات والحُجج العقلية كمن زيَّن له الشيطانُ عملَه السيئ من الشِّرك وسائر المعاصي، كإخراجك من قريتك، مع كون ذلك في نفسه أقبحَ القبائح.

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ﴾ في ذلك العمل السيئ، وقيل: بسبب ذلك التزيين ﴿أَهْوَآءَهُم ۝١٤﴾ الزائغة من غير أن يكون لهم شُبهة تُوهم صحَّةَ ما هم عليه فضلًا عن حُجَّةٍ تدلُّ عليها. وجمع الضميرين الأخيرين باعتبار معنى «مَن» كما أنَّ إفراد الأولين باعتبار لفظها.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ إلى آخره، استئنافٌ مسوقٌ لشرح محاسن الجنة الموعودة آنفًا للمؤمنين، وبيانِ كيفية أنهارها التي أُشير إلى جريانها من تحتها، وعبَّر عنهم بالمتَّقين إيذانًا بأنَّ الإيمان والعمل الصالحَ من باب التقوى الذي هو عبارةٌ عن فعل الواجبات وترك السيئات.

والمَثَلُ: الوصفُ العجيبُ الشأن، وهو مبتدأ باتفاق المُعربين، واختُلف في خبره، فقيل: محذوفٌ، فقال النضر بن شُميل: تقديره: ما تسمعون، وقوله عز وجل: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾ إلى آخره مُفسِّر له. وقال سيبويه: تقديره: فيما يُتلى عليكم، أو فيما قَصَصْنا عليك، ويُقدَّر مقدَّمًا، و«فيها أنهار» إلخ بيانٌ لذلك المَثَل. وقدَّره ابنُ

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٤٨، وعزاه لعبد بن حميد وعبد الرزاق وابن المنذر، ولم نقف عليه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٣.

عطية: ظاهرٌ في نفس من وَعَى هذه الأوصافَ[١]. وليس بذاك. ولعلَّ الأنسبَ بصدر النظم الكريم تقدير النَّضْرِ.

وقيل: هو مذكور، فقيل: هو قوله تعالى: «فيها أنهار» إلخ على معنى: مَثَلُ الجنة وصفتُها مضمونُ هذا الكلام، ولا يحتاج مِثْلُ هذا الخبر إلى رابط. وقيل: هذه الجملة هي الخبر إلا أنَّ لفظ «مثل» زائدٌ زيادةَ اسم في قولِ مَن قال:

إلى الحول ثم اسمُ السلامِ عليكما[٢]

فالمبتدأ في الحقيقة هو المضافُ إليه، فكأنه قيل: الجنةُ فيها أنهار.. إلخ. وليس بشيء. وقيل: الخبر قوله تعالى الآتي: «كمن هو خالد في النار» وسيأتي إن شاء الله تعالى بسطُ الكلام فيه.

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه وابن عباس وعبد الله والسُّلمي: «أمثال الجنة» أي: صفاتها، قال ابن جنيٍّ[٣]: وهذا دليل على أن قراءة العامة بالتوحيد معناها الكَثْرة لما في «مثل» من معنى المصدرية، ولذا جاز: مررت برجل مثل رجلين، و: برجلين مثل رجال، وبامرأة مثل رجل. وعن عليّ كرم الله تعالى وجهه أيضًا أنه قرأ: «مِثالُ الجنة»[٤] ومثال الشيء في الأصل نظيره الذي يُقابَل به.

﴿مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ أي: غير مُتغيِّر الطَّعم والريح لطول مُكْث ونحوه، وماضيه: أَسَنَ بالفتح من باب ضَرَبَ ونَصَرَ، وبالكسر من باب عَلِمَ، حكى ذلك الخفاجي عن أهل اللغة[٥]. وفي «البحر»[٦]: أَسَنَ الماءُ: تغيَّر ريحُه، يَأْسِنُ ويَأْسُنُ؛ ذكره

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١١٤.
(٢) قائله لبيد بن ربيعة، وهو في ديوانه ص٧٩، وعجزه: ومن يبك حولًا كاملًا فقد اعتذر. وسلف ١١/ ٤٥٦.
(٣) في المحتسب ٢/ ٢٧٠، والقراءة السابقة فيه وفي القراءات الشاذة ص ١٤٠.
(٤) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١١٤، والقرطبي في تفسيره ١٩/ ٢٥٩.
(٥) حاشية الشهاب ٨/ ٤٥.
(٦) البحر المحيط ٨/ ٧٠.

ثعلب في «الفصيح»، والمصدر: أُسونٌ، وأَسِن بكسر السين يأسَن بفتحها لغة أسنًا، قاله اليزيدي، وأَسِن الرجل بالكسر لا غير إذا دخل البئرَ فأصابته ريحٌ مُنتنة منها فَغُشي عليه أو دار رأسُه، ومنه قول الشاعر:

قـد أتـرك الـقِـرن مُـصْـفَـرًّا أنـامـلـه يميدُ في الرمح[1] ميدَ المائح الأسِن[2]

وقرأ ابن كثير وأهلُ مكة: «أَسِنٍ» على وزن حَذِر[3]، فهو صفةٌ مُشبَّهةٌ أو صيغةُ مبالغة، وقرئ: «يَسِنٍ» بالياء، قال أبو عليٍّ[4]: وذلك على تخفيف الهمزة.

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ لم يحمض ولم يَصِرْ قارصًا ولا حاذرًا كألبان الدنيا، وتَغيُّر الريح لا يُفارق الطَّعم ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي: لذيذة لهم، ليس فيها كراهةُ طَعْم وريح، ولا غائلةُ سُكر وخمار كخمور الدنيا، فإنها لا لَذَّةَ في نفس شُربها، وفيها من المكاره والغوائل ما فيها، وهي صفة مشبَّهة مؤنَّث لَذٍّ، وُصفت بها الخمر لأنها مؤنَّثة وقد تذكَّر، أو مصدر نُعت به بتقدير مضاف، أو بجَعْلِها عينَ اللذة مبالغةً على ما هو المعروف في أمثال ذلك. وقُرئت بالرفع على أنها صفة «أنهار» وبالنصب على أنها مفعولٌ له[5]، أي: كائنة لأجل اللذة لا لشيء آخر من الصّداع وسائر آفاتِ خمورِ الدنيا.

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ مما يُخالفه، فلا يُخالطه الشَّمَع[6] وفضلات النحل وغيرها، ووصفُه بـ «مصفًّى»؛ لأن الغالبَ على العسل التذكير، وهو مما يُذكَّر

---

(١) في الأصل و(م): الريح. والمثبت من المصادر. وجاء في هامش الأصل: رأيت في بعض النسخ: الرمح، بدل الريح.

(٢) البيت لزهير، وهو في شرح ديوانه ص١٢١، وروايته فيه:

يـغـادر الـقـرن مـصـفـرًّا أنـامـلـه يميل في الرمح ميل المائح الأسن

القِرْن: كفؤك في الشجاعة. الصحاح (قرن). قال شارح الديوان: مصفرًّا أنامله: دنا موته فاصفرَّت أنامله، والمائح: الذي ينزل إلى أسفل البئر يملأ الدلو إذا قلَّ ماؤه.

(٣) التيسير ص٢٠١، والنشر ٢/ ٣٧٥.

(٤) الحجة للقراء السبعة ٦/ ١٩١.

(٥) الكشاف ٣/ ٥٣٤، والبحر المحيط ٨/ ٧٩.

(٦) في هامش الأصل: بفتح الميم، والعامة تسكِّنها، وهو إمَّا لحنٌ أو لغة رديئة. قاله الخفاجي.

ويؤنَّث كما نصَّ عليه أبو حيان[١] وغيره، وهذا ـ على ما قيل ـ تمثيلٌ لما يجري مجرى الأشربة في الجنة بأنواع ما يُستطاب منها أو يستلذُّ في الدنيا، بالتخلية عمَّا ينقصها ويُنغِّصها، والتحلية بما يُوجب غَزارتها ودوامها.

وبُدئ بالماء لأنه في الدنيا مما لا يُستغنى عنه، ثم باللبن إذ كان يجري مجرى المطعم لكثير من العرب في كثير من أوقاتهم، ثم بالخمر لأنه إذا حصل الرِّي والمطعوم تشوَّفت النفس إلى ما يُلتذُّ به، ثم بالعسل لأنَّ فيه الشفاءَ في الدنيا مما يعرض من المشروب والمطعوم فهو متأخِّر بالرُّتبة.

وجاء عن ابن عباس أن لبنَ تلك الأنهار لم يُحلَب، وقال سعيد بن جُبير: إنه لم يخرج من بين فَرْث ودم، وإنَّ خمرَها لم تَدُسها الرجالُ بأرجلها، وإن عسلَها لم يخرج من بطون النحل. وأخرج ابنُ جرير عن سعد قال: سألت أبا إسحاق عن قوله تعالى: «مِنْ ماء غير آسن» فقال: سألت عنه الحارث فحدَّثني أنَّ ذلك الماء تسنيم، وقال: بلغني أنه لا تمسُّه يدٌ وأنه يجيء الماء هكذا حتى يدخلَ الفم[٢].

وفي حديثٍ أخرجه ابنُ مردويه عن الكلبي: أن نهر دِجلةَ نهر الخمر في الجنة، وأن عليه إبراهيمَ عليه السلام، ونهر جيحون نهر الماء فيها، ويقال له: نهر الربّ، ونهر الفرات نهر اللبن وأنه لِذُرِّيَّة المؤمنين، ونهر النيل نهر العسل[٣].

وأخرج الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» والبيهقي عن كعب قال: نهرُ النيل نهرُ العسل، ونهرُ دجلة نهر اللبن، ونهر الفرات نهرُ الخمر، ونهر سيحان نهر الماء في الجنة[٤].

وأنت تعلم أن المذكورَ في الآية لكلٍّ «أنهارٌ» بالجمع، والله تعالى أعلم بصحة

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٧٩.
(٢) تفسير الطبري ٢١/ ٢٠٠.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٤٩.
(٤) الدر المنثور ٦/ ٤٩، ومسند الحارث (١٠٤٢ - زوائد)، وأخرجه أيضاً الخطيب في تاريخ بغداد ١/ ٥٥.

هذه الأخبار ونحوها، ثم إنها إنْ صحَّت لا يبعدُ تأويلها، وإن كانت القُدرة الإلهية لا يتعاصاها شيء.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا﴾ مع ما ذكر من فنون الأنهار ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: أنواع من كلّ الثمرات، فالجارُّ والمجرور صفةُ مبتدأ مقدَّر، وقدَّره بعضُهم: زوجان، وكأنه انتزعه من قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢]. وقيل: «مِنْ» زائدةٌ، أي: ولهم فيها كلُّ الثمرات.

﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ مبتدأ خبره محذوفٌ، والجملة عطفٌ على الجملة السابقة، أي: ولهم مغفرة، وجُوِّز أنْ يكون عطفًا على المبتدأ قبلُ بدون قيد فيها؛ لأنَّ المغفرةَ قبل دخول الجنة، أو بالقيد والكلام على حذف مضاف، أي: ونعيمُ مغفرةٍ، أو جعل المغفرة عبارة عن أثرها وهو النعيم، أو مجازًا عن رضوان الله عز وجل.

وقد يقال: المراد بالمغفرة هنا سترُ ذنوبهم وعدمُ ذِكْرها لهم لئلا يستحوا فتتنغَّص لَذَّتُهم، والمغفرة السابقة سترُ الذنوب وعدم المُؤاخذة بها، وحينئذ العطفُ على المبتدأ من غير ارتكاب شيء مما ذكر. وقد رأيتُ نحو هذا بَعْدَ كتابته للطبرسي[1] مقتصرًا عليه، ولعله أَولى مما قالوه.

وتنوين: «مغفرة» للتعظيم أي: مغفرة عظيمة لا يُقادَر قدرها، وقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ متعلِّق بمحذوفٍ صفةٍ لها مؤكِّدةٍ لما أفاده التنكير من الفَخَامة الذاتية بالفَخَامة الإضافية، أي: كائنةٌ من ربِّهم.

وقوله عز وجل: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ خبرٌ لمبتدأ محذوف تقديره: أَمَنْ هو خالد في هذه الجنة حَسْبَما جرى به الوعدُ كمَن هو خالدٌ في النار كما نطق به قوله تعالى: «والنار مثوى لهم». وجُوِّز أن يكون بدلًا من قوله سبحانه: «كمن زين له سوء عمله» وما بينهما اعتراضٌ لبيان ما يمتاز به مَن على بينة في الآخرة تقريرًا لإنكار المساواة، وفيه بُعْدٌ.

---

(١) مجمع البيان ٢٦/ ٣٥.

وذهب جارُ الله إلى أنه خبر «مَثَلُ الجنة» وأن ذاك مرتَّب على الإنكار السابق، أعني قوله تعالى: «أفمن كان» إلخ، والمعنى: أَمَثَلُ الجنة كمَثَل جزاء من هو خالدٌ في النار، فالمضافان محذوفان: الجزاء بقرينةِ مقابلة الجنة، ولفظ المَثَل بقرينة تقدُّمه، ومثله كثير. وفائدة التعرية عن حرف الإنكار أنَّ من اشتبه عليه الأول ـ أعني حال المتمسِّك بالبينة وحال التابع لهواه ـ فالثاني مثلُه عنده[١]، وإذ ذاك لا يستحقُّ الخطاب، ونظيرُ ذلك قولُ حضرمي بن عامر:

أفـــرحُ أنْ أُرْزَأَ الـــكـــرامَ وأنْ أُورَثَ ذودًا شـصـائـصًـا نَـبَـلا[٢]

فإنه كلامُ منكرٍ للفرح برزية الكرام ووراثةِ الذُّود مع تعرِّيه من حرف الإنكار لانطوائه تحت حكم من قال له: أتفرح بموت أخيك وبوراثة إبله؟! وذلك من التسليم الذي يقلُّ تحته كلُّ إنكار.

وجَعل قولَه تعالى: «فيها أنهار» كالتكرير للصلة ـ أي: صلة بعد صلة ـ يتضمَّن تفصيلَها لأنه كالتفصيل للموعود، ولهذا لم يتخلَّل العاطفُ بينهما، وجَوَّز أن يكون في موضع الحال على أنَّ الظرفَ في موضع ذلك، و«أنهار» فاعله، لا على أنه مبتدأ والظرفُ خبرٌ مقدَّم والجملة الاسمية حال لعدم الواو فيها، وقد صرَّحوا بأن الاكتفاء فيها بالضمير غيرُ فصيح، واعتبارها فعليَّة بتقدير متعلَّق الظرف استقرَّ لا يخفى حاله. وقيل: في الحال ضعفٌ من حيث المعنى لمجيئه مجيء الفضلات، وهي أُمُّ الإنكار، وأيضًا هو حالٌ من الجنة لا من ضميرها في الصلة، وفي العامل تكلُّف، ثم الحال غير مقيّدة، وجَعْلُها مؤكِّدةً وقد عُلم كونها كذلك من إخباره تعالى فيه أيضًا تكلُّف. وأن يكون[٣] خبرَ مبتدأ محذوف والجملة استئنافٌ بياني، قال في «الكشف»: وهو الوجه، والتقدير: هي فيها

---

(١) في الكشاف ٣/ ٥٣٣: تعريته من حرف الإنكار فيها زيادة تصويرٍ لمكابرة مَن يسوي بين المتمسك بالبينة والتابع لهواه، وأنه بمنزلة مَن يثبت التسوية بين الجنة التي تجري فيها الأنهار، وبين النار التي يسقى أهلها الحميم.

(٢) سلف ١٨/ ٥١٧.

(٣) أي: وجوَّز (يعني الزمخشري) أن يكون. . . . الكشاف ٣/ ٥٣٤.

أنهارٌ. وكأنه قيل: أنّى يكون صفةُ الجنة وهي كذا وكذا كصفة النار؟ فالاستئنافُ هاهنا بمنزلة قولك: وهي كذا وكذا، اعتراضًا لِمَا في لفظ المثل من الإشعار بالوصف العجيب، وليس خبر الجملة السابقة وهو «كمن هو خالد في النار» مَوْرِدَ السؤال ليعترض بوقوع الاستئناف قبل مُضِيِّه. وأُورد أنه لا حاجة إلى تقدير المبتدأ لأن «فيها أنهار» جملة برأسها. والجواب أن التقدير: مَثَلُها فيها أنهار، فحذف المضاف وأُقيم المضاف إليه مُقامه، فصار مرفوعًا، ثم حُذف، ولهذا قال في السؤال: كأنَّ قائلًا قال: وما مَثَلُها؟ ويجري ما قرّر في قراءة الأمير كرم الله تعالى وجهه ومن معه: «أمثال» بالجمع فيقال: التقدير: أمثالُ الجنة كأمثالِ جزاء من هو خالد في النار، ويُقدَّر المضاف الأول جمعًا للمطابقة. ولعمري لقد أبعد جارُ الله المغزى، وقد استحسن ما ذكره كثيرٌ من المُحقِّقين؛ قال صاحب «الكشف» بعد تقرير جعل «كمن هو خالد» خبرًا لـ «مَثَلُ الجنة»: هذا هو الوجه اللائح المناسبُ للمساق.

وقال ابن المُنَيِّر: في «الانتصاف»[1] بعد نقله: كم ذكر الناسُ في تأويل هذه الآية، فلم أرَ أطلى ولا أحلى من هذه النُّكت التي ذكرها، ، لا يعوزها إلا التنبيه على أنَّ في الكلام محذوفًا ليتعادل، والتقدير: مثلُ ساكن الجنة كمن هو خالد في النار، ومن هذا النمط قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩] إلخ. وما قدَّرناه لتحصيل التعادل أَولى وإنْ كان فيه كثرةُ حذف، فتأمَّل ذاك والله تعالى يتولّى هداك.

والضمير المفرد ـ أعني «هو» ـ راجعٌ إلى «مَنْ» باعتبار لفظها كما أن ضمير الجمع في قوله سبحانه: ﴿وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا﴾ راجعٌ إليها باعتبار معناها، والمراد: وسُقوا ماءً حارًّا مكانَ تلك الأشربة، وفيه تهكُّمٌ بهم.

﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ۝١٥﴾ من فَرْطِ الحرارة، رُوي أنه إذا أُدنيَ منهم شوى وجوهَهم وامتازَتْ فروةُ رؤوسهم، فإذا شربوه قطَّع أمعاءهم، وهي جمع: معى

---

(١) ٣/ ٥٣٣ (بهامش الكشاف).

بالفتح والكسر[١]: ما ينتقل الطعام إليه بعد المعدة، ويقال له: عفاج[٢]، وهو مذكَّر وقد يُؤنَّث.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ هم المنافقون، وإفراد الضمير باعتبار اللفظ كما أنَّ جمعه بعدُ باعتبار المعنى، قال ابن جُريج: كانوا يحضرون مجلسَ رسول الله ﷺ فيسمعون كلامَه ولا يَعُونه ولا يُراعونه حقَّ رعايته تَهاونًا منهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: لأُولي العلم من الصحابة ﷺ. وقيل: هم الواعون لكلامه عليه الصلاة والسلام الراعون له حقَّ رعايته من الصحابة ﷺ: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ أي: ما الذي قال قُبيل هذا الوقت، ومقصودهم من ذلك الاستهزاء وإنْ كان بصورة الاستعلام، وجُوِّز أن يكون مرادُهم حقيقةَ الاستعلام، إذ لم يُلقوا له آذانهم تهاونًا به ولذلك ذُمُّوا.. والأول أولى. قيل: قالوا ذلك لابن مسعود. وعن ابن عباس: أنا منهم، وقد سُميت فيمن سُئل[٣]، وأراد ﷺ أنه من الذين أُوتوا العلم بنصِّ القرآن، وما أحسن ما عبَّر عن ذلك.

و«آنفًا» اسمُ فاعل على غير القياس، أو بتجريد فعله من الزوائد لأنه لم يُسمع له فعلٌ ثلاثي، بل استأنف وائتنف، وذكر الزجَّاج[٤] أنه من استأنفتُ الشيء: إذا ابتدأته، وكأنَّ أصل معنى هذا: أخذت أنفه، أي: مبدأه. وأصلُ الأنف الجارحةُ المعروفة، ثم يُسمَّى به طرفُ الشيء ومُقدَّمه وأشرفه، وذكر غيرُ واحد أنَّ «آنفًا» من ذلك؛ قالوا: إنه اسمٌ للساعة التي قبلَ ساعتك التي أنت فيها، من الآنف بمعنى المتقدِّم، وقد استُعير من الجارحة لتقدُّمها على الوقت الحاضر، وقيل: هو بمعنى زمان الحال.

---

(١) يعني بفتح وكسر الميم، والعين تُفتح مع كسر الميم وتسكن مع فتحها. القاموس المحيط (معي).

(٢) كذا في الأصل و(م): عفاج، والصواب: أعفاج، وهو جمع عَفْج، وبالكسر والتحريك وككَتِف.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ٢٠٤.

(٤) معاني القرآن وإعرابه ٥/ ١٠.

وهو على ما ذهب إليه الزمخشري[1] نصبٌ على الظرفية، ولا يُنافي كونه اسم فاعل كما في بادئ، فإنه اسمُ فاعل غُلِّب على معنى الظرفية في الاستعمال. وقال أبو حيان[2]: الصحيح أنه ليس بظرف، ولا نعلم أحدًا من النحاة عدَّه في الظروف، وأوجبَ نَصْبَه على الحال من فاعل «قال»، أي: ماذا قال مبتدئًا، أي: ما القول الذي ائتنفه الآن قبل انفصالنا عنه، وإلى ذلك يُشير كلامُ الراغب[3].

وقرأ ابنُ كثير: «أَنِفًا» على وزن فَعِل[4].

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر ﴿الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فَعدِمَ توجُّههم[5] نحو الخير ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ فتوجَّهوا نحو كلِّ ما لا خيرَ فيه، فلذلك كان منهم ما كان.

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾ إلى طريق الحقِّ ﴿زَادَهُمْ﴾ أي: الله عز وجل ﴿هُدًى﴾ بالتوفيق والإلهام، والموصول يحتمل الرفعَ على الابتداء والنصبَ بفعلٍ محذوف يُفسِّره المذكور، و«هدى» مفعولٌ ثانٍ، لأنَّ: زاد، قد يتعدَّى لمفعولين، ويحتمل أن يكون تمييزًا، والأول هو الظاهر، وتنوينه للتعظيم، أي: هدى عظيمًا.

﴿وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾ أي: أعطاهم تقواهم إيَّاه جل شأنه، بأنْ خَلَقها فيهم بناءً على ما يقوله الأشاعرة في أفعال العباد، أو بأنْ خلقَ فيهم قُدرةً عليها مؤثِّرةً في فِعْلها بإذنه سبحانه على ما نسبه الكوراني إلى الأشعري، وسائرُ المحقِّقين في أفعال العباد من أنها بقدرةٍ خَلَقها الله تعالى فيهم مُؤثِّرة بإذنه تعالى، وقول بعضهم: بأن جعلهم جلَّ شأنه مُتَّقين له سبحانه، يمكن تطبيقُه على كلٍّ من القولين.

وقال البيضاوي[6]: أي: بيَّن لهم ما يتَّقون، أو: أعانهم على تقواهم، أو:

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٣٤.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٧٩.
(٣) مفردات ألفاظ القرآن (أنف).
(٤) وهي غير المشهورة عنه. ذكرها أبو حيان في البحر ٨/ ٧٩.
(٥) في تفسير أبي السعود ٨/ ٩٦: لعدم توجههم.
(٦) في تفسيره مع حاشية الشهاب ٨/ ٤٦.

أعطاهم جزاءَها، فالإيتاء عنده مجازٌ عن البيان أو الإعانة، أو هو على حقيقته والتقوى مجازٌ عن جَزائها لأنها سببه، أو فيه مضافٌ مقدَّر، وليس في شيء من ذلك ما يأباه مذهبُ أهلِ الحقِّ. وذكر الزمخشري[1] الثاني والثالثَ من ذلك، واختار الطيبي الأول من هذين الاثنين، وقال: هو أوفقُ لتأليف النظم الكريم لأنَّ أغلبَ آيات هذه السورة الكريمة رُوعي فيها التقابلُ، فقوبل «أولئك الذين طبع الله على قلوبهم» بقوله سبحانه: «والذين اهتدوا زادهم هدى» لأن الطَّبْع يحصل من تزايد الرين وترادف ما يزيد في الكفر، وقوله تعالى: «واتبعوا أهواءهم» بقوله جل وعلا: «وآتاهم تقواهم» فيحمل على كمال التقوى، وهو أن يتنزَّه العارف عمَّا يشغل سِرَّه عن الحقِّ، ويتبتَّل إليه سبحانه بشراشره، وهو التقوى الحقيقية المعنية بقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] فإن المزيدَ على مَزيد الهدى مَزيدٌ لا مَزيدَ عليه، وفي الترفُّع عن متابعة الهوى النزوعُ إلى المولى والعزوبُ عن شهوات الحياة الدنيا، ثم في إسناد إيتاء التقوى إليه تعالى وإسناد متابعة الهوى إليهم إيماءٌ إلى معنى قوله تعالى حكاية: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] وتلويحٌ إلى أن متابعة الهوى مرض روحاني وملازمة التقوى دواءٌ إلهي. انتهى.

وما ذكره من التقابل جارٍ فيما ذكرناه أيضًا، وكذا يجري التقابل على تفسير إيتاء التقوى ببيان ما يتَّقون لإشعار الكلام عليه بأن ما هم فيه ليس من ارتكاب الهوى والتشهِّي، بل هو أمرٌ حقٌّ مبنيٌّ على أساس قوي، وتفسير ذلك بإعطاء جزاء التقوى مَرويٌّ عن سعيد بن جبير وذهب إليه الجُبَّائي، والكلامُ عليه أفيدُ وأبعدُ عن التأكيد من غير حاجة إلى حمل التقوى على أعلى مراتبها، وأمر التقابل هيِّنٌ، فإنه قد يقال: إن قوله تعالى: «اهتدوا» في مقابلة «اتبعوا أهواءهم» وقوله سبحانه: «زادهم هدى» في مقابلة «طبع الله على قلوبهم»، فليتدبَّر.

وقيل: فاعل «زادهم» ضمير قوله ﷺ المفهوم من قوله تعالى: «ومنهم من يستمع إليك» وقولِه سبحانه: «ماذا قال آنفًا»، وكذا فاعل «آتاهم» أي: أعانهم أو بيَّن لهم، والإسنادُ مجازيٌّ. ولا يخفى أنه خلافُ الظاهر، وأيضًا إذا كان قوله

(١) الكشاف ٣/ ٥٣٤.

تعالى: «زادهم هدى» في مقابلة قوله سبحانه: «طبع الله على قلوبهم» فالأولى أن يتَّحدَ فاعلُه مع فاعله ويجري نحو ذلك على ما قاله الطيبي لئلا يلزم التفكيك.

وجُوِّز أن يكون ضميرًا عائدًا على قول المنافقين فإن ذلك مما يَعجَبُ منه المؤمن فيحمد الله تعالى على إيمانه، ويَزيد بصيرة في دينه. وهو بعيدٌ جدًا، بل لا يكاد يُلتفَتُ إليه.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ أي: القيامة، وقوله تعالى: ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ - أي: تُباغتهم بغتة، وهي المفاجأة - بدلُ اشتمالٍ من «الساعة»، أي: لا يتذكَّرون بأحوال الأمم الخالية ولا بالأخبار بإتيان الساعة وما فيها من عظائم الأحوال، فما ينتظرون للتذكر إلا إتيان الساعة نفسها.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ - أي: علاماتها وأماراتها، كما في قول أبي الأسود الدُّؤلي:

فإنْ كنتَ قد أزمعتَ بالصَّرم بيننا فقد جَعَلَتْ أشراطُ أوَّلِهِ تبدو[١]

وهي جمع شَرَط بالتحريك - تعليل لمفاجأتها، على معنى أنه لم يَبْقَ من الأمور المُوجبة للتذكُّر أمرٌ مترقَّب ينتظرونه سوى إتيان نفس الساعة؛ إذ قد جاء أشراطُها فلم يرفعوا لها رأسًا ولم يعدُّوها من مبادئ إتيانها، فيكون إتيانها بطريق المفاجأة لا محالة، كذا في «إرشاد العقل السليم»[٢].

وظاهر كلام «الكشاف»[٣] أنه تعليلٌ للإتيان مطلقًا، أي: ما ينتظرون إلا إتيان الساعة لأنه قد جاء أشراطُها، وبعد مجيئها لا بدَّ من وقوع الساعة، وتعليلُ المقيَّد دون قيدِه لا يخلو عن بُعد، قيل: ويُقرِّبه هنا أنَّ انتظارَهم ليس إلا لإتيان الساعة، وتقييده بـ «بغتة» ليس إلا لبيان الواقع.

وقال بعض المحققين: هو تعليلٌ لانتظار الساعة؛ لأن ظهورَ أمارات الشيء

---

(١) الأغاني ١٢/ ٣٣٤، والكشاف ٣/ ٥٣٥، والصرم: الهجران. اللسان (صرم).
(٢) وهو تفسير أبي السعود ٨/ ٩٧.
(٣) ٣/ ٥٣٥.

سببٌ لانتظاره، وفي جعله تعليلًا للمفاجأة خَفاءٌ لأنها لا تناسب مجيء الأشراط إلا بتأويل، وأنت تعلم أن البدلَ هو المقصودُ فالانتظار لإتيان الساعة بغتةً، فالتعليل المذكور تعليلٌ للمقيَّد دون قيده أيضًا، فكان ما في «الإرشاد» متعيِّنٌ وإن كان فيه نوعُ تأويل.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾ على ما أفاده بعضُ الأجلة تعجيبٌ من نفع الذكرى عند مجيء الساعة وإنكارٌ لعدم تشمُّرهم لها ولانتظارهم إياها هُزءاً وجحودًا، وفي «الإرشاد»[1]: وقوله تعالى: «فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم» حكمٌ بخطئهم وفسادِ رأيهم في تأخير التذكُّر إلى إتيانها ببيان استحالة نفع التذكُّر حينئذٍ كقوله سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣] أي: فكيف لهم ذِكراهم؟ على أنَّ «أنى» خبرٌ مقدَّم، و«ذكراهم» مبتدأ، و«إذا جاءتهم» اعتراضٌ وُسِّط بينهما رمزًا إلى غاية سُرعة مجيئها، وإطلاقُ المجيء عن قيد البغتة لما أنَّ مدارَ استحالة نفع التذكُّر كونُه عند مجيئها مطلقًا لا مقيدًا بقيد البغتة.

وقيل: «أنى» خبرٌ مقدَّم لمبتدأ محذوف، أي: فأنى لهم الخَلاص إذا جاءتهم الذِّكرى بما يُخبَرون به فينكرونه منوطةً بالعذاب. ولا يخفى حاله.

وقرأ أبو جعفر الرُّؤاسي عن أهل مكة: «إنْ تَأْتِهم»[2] على أنه شرطٌ مستأنفٌ، جزاؤه: «فأنى لهم» إلخ، أي: إنْ تأتهم الساعةُ بغتةً إذْ قد جاء أشراطُها فأنَّى تنفعهم الذِّكرى وقتَ مجيئها، و«إن» هنا بمعنى «إذا»، لأن إتيانَ الساعة متيقَّن، ولعلَّ الإتيان بها للتعريض بهم، وأنهم في رَيْبٍ منها، أو لأنها لِعدم تعيين زمانها أشبهت المشكوكَ فيه، وإذا جاءتهم باعتبار الواقع فلا تعارضَ بينهما كما يُتوهم في النظرة الحمقاء.

وفي «الكشف»: «إذا» على هذه القراءة لمجرَّد الظرفية لئلا يلزم التمانع بين: «إذا جاءتهم» و«إن تأتهم»، وفي الإتيان بـ «إنْ» مع الجزم بالوقوع تقويةُ أمرِ التوبيخ والإنكار كما لا يخفى. انتهى. وعلى ما ذكرنا لا يحتاج إلى جعل «إذا» لمجرَّد الظرفية.

---

(١) تفسير أبي السعود ٨/ ٩٧.
(٢) المحتسب ٢/ ٢٧٠، وتفسير القرطبي ١٩/ ٢٦٦.

وقرأ الجعفي وهارون عن أبي عمرو: «بَغَتَّةً» بفتح الغين وشدِّ التاء[١]. قال صاحب «اللوامح»: وهي صفةٌ وانتصابها على الحال، ولا نظير لها في المصادر ولا في الصفات، بل في الأسماء نحو الجَرَبَّة ـ وهي القطيع من حُمر الوحش، وقد يُسمَّى الأقوياء من الناس إذا كانوا جماعةً متساوين: جَرَبَّة ـ والشَّرَبَّة، وهي اسمُ موضع، وكذا قال أبو العباس بن الحاج من أصحاب أبي علي الشلوبين في كتابه: «المصادر».

وقال الزمخشري[٢]: وما أخوفني أن تكون غلطة من الراوي عن أبي عمرو، وأن يكون الصوابُ: «بَغْتة» بفتح الغين من غير تشديد كقراءة الحسن فيما تقدَّم.

وتعقَّبه أبو حيان[٣] بأن هذا على عادته في تغليط الرواة.

والظاهر أن المرادَ بأشراط الساعة هنا علاماتُها التي كانت واقعةً إذ ذاك، وأُخبروا أنها علاماتٌ لها كبعثة نبينا ﷺ، فقد أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن أنس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «بُعثت أنا والساعة كهاتين» وأشار بالسبابة والوسطى[٤]. وأراد عليه الصلاة والسلام مَزيد القُرب بين مبعثه والساعة، فإن السبابة تقربُ من الوسطى طولًا فينا، وهكذا فيه ﷺ، وزعمُ بعضِهم أنَّ أمر الطول والقِصَر في وسطاه وسبابته عليه الصلاة والسلام على عَكْس ما فينا خطأٌ لا يُلتفت إليه إلا أنْ يكون أراد ذلك في أصابع رجليه الشريفة ﷺ.

وأخرج أحمد عن بُريدة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «بُعثت أنا والساعة جميعًا وإن كادتْ لتسبقني»[٥]، وهذا أبلغُ في إفادة القُرب، وعدُّوا منها انشقاقَ القمر الذي وقع له ﷺ، والدخانَ الذي وقع لأهل مكة.

---

(١) المحتسب ٢/ ٢٧١، والبحر ٨/ ٨٠.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٥.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٨٠.
(٤) مسند أحمد (١٢٢٤٥)، وصحيح البخاري (٦٥٠٤)، وصحيح مسلم (٢٩٥١): (١٣٥)، وسنن الترمذي (٢٢١٤)، وفي الباب عن عدد من الصحابة. تنظر في حاشية مسند أحمد.
(٥) مسند أحمد (٢٢٩٤٧).

وأما أشراطُها مطلقًا فكثيرةٌ أُلِّفت فيها كتبٌ مختصرة ومطولة، وهي تنقسم إلى:

مضيقة لا تبقى الدنيا بعد وقوعها إلا أيسرَ يسير، كخروج المهدي ﷺ على ما يقول أهلُ السنة دون ما يقوله الشيعة القائلون بالرجعة، فإن الدنيا عندهم بعد ظهوره تبقى مدةً معتدًّا بها، وكنزولِ عيسى عليه السلام، وخروجِ الدجَّال، وطلوعِ الشمس من مغربها، وخروج الدابَّة، وغير ذلك.

وغير مضيقة: وهي أكثرُ الأشراط، ككون الحُفاة الرُّعاة رؤوسَ الناس، وتطاولهم في البنيان، وفُشُوِّ الغِيبة، وأكل الربا، وشُرب الخمر، وتعظيم ربِّ المال، وقلَّة الكرام، وكَثْرة اللِّئام، وتباهي الناس في المساجد واتِّخاذها طرقًا، وسوء الجوار، وقطيعة الأرحام، وقلَّة العلم، وأنْ يُوسَّد الأمرُ إلى غير أهله، وأنْ يكون أسعدُ الناس بالدنيا لُكَعَ بن لكع، إلى ما يطول ذِكْرُه.

ومن وقف على الكتب المُؤلَّفة في هذا الشأن واطَّلع على أحوال الأزمان رأى أنَّ أكثرَ هذه العلاماتِ قد بَرزتْ للعِيان، وامتلأت منها البلدان، ومع هذا كلِّه أمرُ الساعة مجهول ورداءُ الخَفاء عليه مَسدول، وقُصارى ما ينبغي أن يقال: إن ما بقي من عمر الدنيا أقلُّ قليل بالنسبة إلى ما مضى.

وفي بعض الآثار أنه عليه الصلاة والسلام خطب أصحابه بعد العصر حين كادت الشمس تغرب ولم يبقَ منها إلا شِفٌّ[1] ـ أي: شيء ـ فقال: «والذي نفسُ محمد بيده، ما مَثَلُ ما مضَى من الدنيا فيما بقي منها إلا مثلُ ما مضى من يومِكم هذا فيما بقي منه، وما بقي منه إلا اليسير»، ولا ينبغي أن يقال: إن الألف الثانية بعد الهجرة، وهي الألف التي نحن فيها هي ألفٌ مخضرمة، أي: نصفُها من الدنيا ونصفُها الآخر من الآخرة.

---

(١) في الأصل و(م): أسف. والمثبت من مصادر التخريج والنهاية لابن الأثير (شفف). والخبر أخرجه البزار كما ذكر ابن كثير عند تفسير الآية الأولى من سورة القمر، والطبري في تاريخه ١/ ١١-١٢، والضياء في المختارة ٧/ ١٢١ من حديث أنس ﷺ. وورد عند الطبري: شقّ، بدل: شفّ.

وقال الجلال السيوطي في رسالة سمَّاها: «الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف»[(١)]: الذي دلَّت عليه الآثارُ أن مدَّة هذه الأمة تزيدُ على ألف سنة، ولا تبلغ الزيادة عليها ألف سنة. وبنى الأمر على ما ورد من أن مدَّة الدنيا سبعةُ آلافِ سنة، وأن النبيَّ ﷺ بُعث في آخر الألف السادسة، وأنَّ الدجال يخرجُ على رأس مئة، وينزل عيسى عليه السلام فيقتله، ثم يمكثُ في الأرض أربعين سنة، وأن الناسَ يمكُثون بعد طلوع الشمس من مغربها مئة وعشرين سنة، وأن بين النفختين أربعين سنة، وذكر الأحاديث والأخبار في ذلك.

وفي «بهجة الناظرين وآيات المستدلين»[(٢)]: قد احتجَّ كثيرٌ من العلماء على تعيين قُرب زمانها بأحاديثَ لا تخلو عن نَظَر، فمنهم من قال: بقي منها كذا، ومنهم من قال: يخرجُ الدجَّال على رأس كذا، وتطلعُ الشمسُ على رأس كذا، وأفرد الحافظ السيوطي رسالةً لذلك كلِّه، وقال: تقوم الساعةُ في نحو الألف والخمس مئة. وكلُّ ذلك مردودٌ، وليس للمتكلِّمين في ذلك إلا ظنٌّ وحسبان لا يقوم عليه من الوحي برهان. انتهى، ونقله السفاريني في «البحور الزاخرة في علوم الآخرة».

وذكر السيوطي عِدَّةَ أخبار في كون مدَّة الدنيا سبعة آلاف سنة، أولها ما أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنما الشفاعة يومَ القيامة لمن عَمِلَ الكبائرَ من أُمتي ثم ماتوا عليها، فهم في الباب الأول من جهنم» وساق بقيةَ الحديث، وفيه: «وأطولهم مُكثًا فيه من يمكثُ فيها مثلَ الدنيا منذ خلقت إلى يوم أُفنيت، وذلك سبعةُ آلاف سنة» الحديث[(٣)]، وتعقَّبه السفاريني بقوله: ذكر الحافظ ابنُ رجب في كتابه «صفة النار» أنَّ هذا الحديث

---

(١) وهي ضمن كتاب الحاوي للفتاوي ٢/ ١٦٨، وينظر ما سلف عند تفسير الآية (١٨٧) من سورة الأعراف.

(٢) لمؤلفه مرعي بن يوسف بن أبي بكر الكرمي ـ نسبة إلى طور كرم ـ أحد أكابر علماء الحنابلة انتقل إلى القاهرة، وتوفي فيها سنة (١٠٣٣هـ). خلاصة الأثر ٤/ ٣٥٨.

(٣) نوادر الأصول ص١٣٩.

خرَّجه ابنُ أبي حاتم وغيره، وخرَّجه الإسماعيلي مطولًا، وقال الدارقطني في كتاب «المختلف»: هو حديث منكرٌ، وذكر علله[1].

ومما ذكره السيوطي في ذلك ما نَقَل هو ضَعْفَ إسنادِ رَفْعِه.

وقد يَرِدُ عليه بأنه قد مضى من زمن البعثة إلى يومنا هذا ألفٌ ومئتان وثمانٍ وستون سنة، وإذا ضُمَّ إليها ما ذكره من سِني مُكْثِ عيسى عليه السلام وبقاء الدنيا بعد طلوع الشمس من مغربها وما بين النفختين، وهي مئتا سنة، تصير ألفًا وأربعَ مئة وثمانٍ وسبعين، فيبقى من المدة التي ذكرها اثنتان وعشرون سنة، وإلى الآن لم تطلع الشمسُ من مَغْربها، ولا خرج الدجال الذي خروجه قبل طلوعها من مغربها بعدة سنين، ولا ظهرَ المهديُّ الذي ظهوره قبل الدجَّال بسبع سنين، ولا وقعت الأشراطُ التي قبلَ ظُهور المهدي، ولا يكاد يقال: إنه يظهر بعد خمس عشرة سنة ويظهر الدجال بعدَها بسبع سنين على رأس المئة الثالثة من الألف الثانية؛ لأن قبل ذلك مقدِّمات تكون في سنين كثيرة.

فالحقُّ أنه لا يعلم ما بقي من مدة الدنيا إلا اللهُ عز وجل، وأنه ـ وإنْ طال ـ أقصرُ قصير، وما متاع الحياة الدنيا إلا قليل، وكذا فيما أرى مبدأ خَلْقها لا يعلمه إلا الله تعالى، وما يذكرونه في المبدأ لو صحَّ فإنما هو في مبدأ خَلْق الخليفة آدم عليه السلام لا مبدأ خلق السماء والأرض والجبال ونحوها.

وحكى الشيخ محيي الدين قُدِّس سرُّه عن إدريس عليه السلام ـ وقد اجتمع معه اجتماعًا روحانيًا وسأله عن العالم ـ أنه قال: نحن معاشرَ الأنبياء نعلم أن العالم حادثٌ، ولا نعلم متى حدث.

والفلاسفة على المشهور يزعُمون أنَّ من العالم ما هو قديمٌ بالشخص وما هو قديمٌ بالنوع، مع قولهم بالحدوث الذاتي ولا يدَّثر عندهم.

وذهب الملا صدر الشيرازي أنهم لا يقولون إلا بقدمِ العقول المجرَّدة دون

---

(١) التخويف من النار لابن رجب ص١٨٩.

عالم الأجسام مطلقًا، بل هم قائلون بحدوثها ودثورها، وأطال الكلام على ذلك في الأسفار، وأتى بنصوص أَجِلَّتهم كأرسطو وغيره.

وحكى البعضُ عنهم أنه خلقَ هذا العالم الذي نحن فيه وهو عالم الكون والفساد والطالع السنبلة، ويدثر عند مُضي ثمانية وسبعين ألف سنة، وذلك عند مُضي مدة سلطان كلٍّ من البروج الاثني عشر ووصول الأمرِ إلى برج الميزان، وزعموا أن مدةَ سلطان الحَمَل اثنا عشر ألف سنة، ومدة سلطان الثور أقلُّ بألف، وهكذا إلى الحوت.

ونقل البكري عن هرمس أنه زعم أنه لم يكن في سلطان الحمل والثور والجوزاء على الأرض حيوان، فلما كان سلطانُ السرطان(١) تكوَّنت دوابُّ الماء وهوامُّ الأرض، فلما كان سلطانُ الأسد تكوَّنت الدوابُّ ذواتُ الأربع، فلما كان سلطانُ السنبلة تولَّد الإنسانان الأولان آدمانوس وحوانوس، وزعم بعضُهم أن مدةَ العالم مقدار قطع الكواكب الثابتة لدرج الفلك التي هي ثلاث مئة وستون درجة، وقطعها لكلٍّ درجة على قول كثير منهم في مئة سنة، فتكون مدته ستًّا وثلاثين ألف سنة، وكلُّ ذلك خبطٌ لا دليلَ عليه.

ومن أعجب ما رأيتُ ما زعمه بعضُ الإسلاميين من أن الساعة تقومُ بعد ألف وأربع مئة وسبع سنين أخذًا من قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ وقوله سبحانه: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف:١٨٧] بناء على أن عدة حروف «بغتة» بالجُمَّل الكبير ألفٌ وأربع مئة وسبع، ويُوشك أن يقول قائلٌ: هي ألفٌ وثمان مئة واثنان، وبحسب تاء التأنيث: أربع مئة لا خمسة، فإنه رأي بعض أهل الحساب كما في فتاوى خير الدين الرَّملي، ويجيء آخر ويقول: هي أكثرُ من ذلك أيضًا، ويعتبر بسط الحروف على نحو ما قالوا في اسم محمد ﷺ إنه مُتضمِّن عدَّة المرسلين عليه السلام، وأنت تعلم أن مثلَ ذلك مما لا ينبغي لعاقل أن يُعوِّل عليه، أو يلتفتَ إليه، والحزم الجزمُ بأنه لا يعلم ذلك إلا اللطيف الخبير.

---

(١) في الأصل و(م): الأسد، والمثبت مما سلف عند تفسير الآية (١٨٧) من سورة الأعراف.

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ مسبَّبٌ عن مجموع القصة من مُفتتح السورة لا عن قوله تعالى: «فهل ينظرون»، كأنه قيل: إذا علمتَ أن الأمرَ كما ذكر من سعادةِ هؤلاء وشقاوةِ هؤلاء فاثْبُتْ على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية، فهو من مُوجبات السعادة، وفسّر الأمر بالعلم بالثَّبات عليه لأنَّ علمَه ﷺ بالتوحيد لا يجوز أن يترتَّب على ما ذكره سبحانه من الأحوال، فإنه عليه الصلاة والسلام مُوحِّد عن علم حال ما يُوحى إليه، ولأن المعنى: فتمسَّكْ بما أنت فيه من مُوجبات السعادة لا بطلب السعادة.

وقال بعضُ الأفاضل: إنَّ الثَّبات أيضًا حاصلٌ له عليه الصلاة والسلام، فأَمْرُه بذلك ﷺ تذكيرٌ له بما أنعم الله تعالى عليه توطئةً لما بعدَه. وتُعُقِّب بأنَّ المرادَ بالثَّبات الاستمرارُ، وهو بالنظر إلى الأزمنة الآتية، وذلك وإنْ كان مما لابدَّ من حُصوله له عليه الصلاة والسلام لمكان العِصمة، لكن المعصوم يُؤمَر ويُنهى، فيأتي بالمأمور ويترك المنهي، ولا بدَّ للعصمة.

والأمر في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ قيل: على معنى الثَّبات أيضًا، وجعل الاستغفار كنايةً عمَّا يلزمه من التواضع وهَضْمِ النفس والاعتراف بالتقصير لأنه ﷺ معصومٌ أو مغفورٌ لا مصرٌّ ذاهلٌ عن الاستغفار.

وقيل: التحقيق أنه توطئة لما بعده من الاستغفار للمؤمنين والمؤمنات.

ولعلَّ الأولى إبقاؤه على الحقيقة من دون جعله توطئةً، والنبيُّ ﷺ كان يُكثر الاستغفار، أخرج أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي وابن حبان عن الأغرِّ المُزَني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه لَيُغان على قلبي، وإني لأستغفرُ اللهَ كلَّ يوم مئة مرة»[1]، وأخرج النسائي وابن ماجه وغيرهما عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أصبحتُ غداةً قطُّ إلا استغفرتُ اللهَ فيها مئةَ مرة»[2]، وأخرج

---

(١) مسند أحمد (١٧٨٤٨)، وصحيح مسلم (٢٧٠٢)، وسنن أبي داود (١٥١٥)، وعمل اليوم والليلة للنسائي (٤٤٣)، وصحيح ابن حبان (٩٣١).

(٢) سنن النسائي الكبرى (١٠٢٠٢)، وسنن ابن ماجه (٣٨١٦)، ولفظ ابن ماجه: «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة». وهو في مسند أحمد (١٩٦٧٢).

أبو داود والترمذي ـ وصحَّحه ـ والنسائي وابن ماجه وجماعة عن ابن عمرَ رضي الله عنهما قال: إنَّا كنَّا لنعدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس يقول: «ربِّ اغفِرْ لي وتُبْ عليَّ، إنك أنت التوابُ الرحيم» مئة مرة. وفي لفظ: «التوَّاب الغفور»[1] إلى غير ذلك من الأخبار الصحيحة.

والذنبُ بالنسبة إليه عليه الصلاة والسلام تركُ ما هو الأَوْلى بمنصبه الجليل، ورُبَّ شيء حسنة من شخص سيئة من آخر، كما قيل: حسناتُ الأبرار سيئاتُ المُقرَّبين؛ وقد ذكروا أنَّ لنبينا ﷺ في كلِّ لحظة عروجًا إلى مقامٍ أعلى مما كان فيه، فيكون ما عَرَجَ منه في نَظَره الشريف ذنبًا بالنسبة إلى ما عَرَجَ إليه فيستغفر منه، وحملوا على ذلك قولَه عليه الصلاة والسلام: «إنه لَيُغان على قلبي» الحديثَ، وفيه أقوالٌ أُخَر.

وقوله تعالى: «وللمؤمنين» على حذف مُضاف بقرينة ما قبلُ، أي: ولذنوبِ المؤمنين. وأُعيد الجارُّ؛ لأن ذنوبَهم جنسٌ آخرُ غير ذَنْبه عليه الصلاة والسلام، فإنها معاصٍ كبائر وصغائر، وذَنْبه ﷺ تركُ الأَولى بالنسبة إلى منصبه الجليل، ولا يبعدُ أن يكونَ بالنسبة إليهم من أجلِّ حسناتهم.

قيل: وفي حذف المُضاف وتعليق الاستغفار بذواتهم إشعارٌ بفرط احتياجهم إليه، فكأنَّ ذواتهم عينُ الذنوب، وكذا فيه إشعارٌ بكثرتها.

وجوَّز بعضُهم كونَ الاستغفار للمؤمنين بمعنى طلب المغفرة لهم وطلب سببها كأمرهم بالتقوى، وفيه الجمع بين الحقيقة والمجاز مع أنَّ في صحته كلامًا، فالظاهر إبقاء اللفظِ على حقيقته.

وفي تقديم الأمر بالتوحيد إيذانٌ بمزيد شَرَف التوحيد، فإنه أساسُ الطاعات ونبراس العبادات. وفي الكلمة الطيبة أبحاثٌ شريفة ولطائفُ مُنيفة لا بأس بذكر بعضها وإنْ تقدَّم شيء من ذلك، فنقول: المشهورُ أنَّ «إلا» للاستثناء، والاسم

---

(١) سنن أبي داود (١٥١٦)، وسنن الترمذي (٣٤٣٤)، وسنن النسائي الكبرى (١٠٢١٩)، وسنن ابن ماجه (٣٨١٤)، وأخرجه أحمد (٤٧٢٦).

الجليل بدلٌ من محلِّ اسم «لا» النافية للجنس، وخبر «لا» محذوف، واستُشكل الإبدال من جهتين: أُولاهما أنه بدلُ بعض، وليس معه ضميرٌ يعود على المُبدل منه، وهو شرطٌ فيه. وأُجيب بمنع كونه شرطًا مطلقًا، بل هو شرطٌ حيث لا تُفهم البعضية بقرينةٍ، وهاهنا قد فُهمت بقرينة الاستثناء. ثانيتهما: أن بين المُبدَل منه والبدل مخالفةً، فإنَّ الأولَ منفيٌّ والثاني مُوجب.

وأجاب السيرافي بأنه بدلٌ عن الأول في عمل العامل، والتخالفُ نفيًا وإيجابًا لا يمنع البدلية؛ لأن مذهب البدل أن يجعل الأول كأنه لم يذكر، والثاني في موضعه، وقد تتخالف الصفةُ والموصوف في ذلك نحو: مررتُ برجل لا كريم ولا لبيب، على أنه لو قيل: إنَّ البدلَ في الاستثناء قِسمٌ على حياله مُغايرٌ لغيره من الأبدال، لكان له وجه.

واستُشكل أمرُ الخبر بأنه إنْ قُدِّر «مُمكنٌ» يلزم عدمُ إثباتِ الوجود بالفعل للواحد الحقيقي تعالى شأنه، أو «موجودٌ» يلزم عدمُ تنزيههِ تعالى عن إمكان الشَّركة، وتقدير خاصّ مناسبٍ لا قرينةَ عليه، قيل: ولصعوبة هذا الإشكال ذهب صاحب «الكشاف» وأتباعُه إلى أن الكلمة «لا» غيرُ محتاجة إلى خبر، وجَعَلَ «إلا الله» مبتدأ و«لا إله» خبره، والأصل: اللهُ إلهٌ، أي: معبودٌ بحقٍّ، لكنْ لمَّا أُريد قصرُ الصفة على الموصوف قُدِّم الخبر وقُرن المبتدأ بـ «إلا»، إذ المقصورُ عليه هو الذي يلي «إلا»، والمقصور هو الواقع في سياق النفي، والمبتدأ إذا اقترن بـ «إلا» وجب تقديمُ خبره.

وتُعقِّب بأنه مع ما فيه من التمحُّل يلزم منه بناءُ الخبر مع «لا»، وهي لا يُبنى معها إلا المبتدأ، وأيضًا لو كان الأمر كذلك لم يكن لنصبِ الاسم الواقع بعدَها وجهٌ، وقد جوَّزه جماعة.

وقال بعضُ الأفاضل: إن «لا إله إلا الله» على هذا المذهب قضيةٌ معدولة الطرفين بمنزلة: غير الحي لا عالم، بمعنى: الحي عالم، ولا يدفع الاعتراض كما لا يخفى.

وقال بعضهم: إن الخبر هو «إلا الله» أعني «إلا» مع الاسم الجليل. وأُورد عليه أن الجنسَ مُغاير لكلٍّ من أفرادِه فكيف يصدقُ حينئذ سلبُ مغايرة فردٍ عنه، اللهم إلا أن يقال: إنَّ ذلك بناءً على تضمين معنى «من»، وأن المفهوم منه أنه انتفى من هذا الجنس غير هذا الفرد، والوجه ـ كما قيل ـ أن يقال: إن المُغايرةَ المنفيَّة هي المغايرةُ في الوجود لا المغايرةُ في المفهوم حتى لا يصدق، ولا شكَّ أن المرادَ من الجنس المنفيِّ بـ «لا» هذه هو المفهوم من غير اعتبار حصوله في الأفراد كلِّها أو بعضها، فيكون محمولًا لا بمعنى اعتبار عدم حصوله فيها أصلًا حتى لا يصح حملُه؛ إذْ لا يلزم من عدمِ اعتبار شيء اعتبارُ عَدَمِهِ، ومتى تحقَّق الحمل تحقَّق عدمُ المُغايرة في الوجود، فتدبَّره.

وقال بعضهم: لا خبر لـ «لا» هذه أصلًا على ما قاله بنو تميم فيها. وأُورد عليه أنه يلزم حينئذ انتفاء الحكم والعقد، وهو باطلٌ قطعًا ضرورةَ اقتضاء التوحيد ذلك.

ولا يبعد أن يقال: إنَّ القولَ بعدم احتياج «لا» إلى الخبر لا يُخرج المركَّب منها ومن اسمها عن العقد، وذلك لأن معنى المركب نحو: لا رجل، على هذا التقدير انتفى هذا الجنسُ، فإذا قلنا: لا رجلَ إلا حاتمٌ، كان معناه: انتفى هذا الجنس في غير هذا الفرد. ويَخدِشُه أنَّ تركُّب الكلام من الحرف والاسم مما ليس إليه سبيل، وربما يدفعُ بما قيل في النداء مثل: يا زيد، من أنه قائمٌ مقام: ادعوه، والشريف العلَّامة قُدِّس سرُّه صرَّح في بيان ما نقل عن بني تميم من عدم إثبات خبر «لا» هذه بأنه يحتمل أن يكونَ بناءً على أن المفهوم من التركيب كما ذُكر آنفًا انتفاءُ هذا الجنس.

ثم إن كلمةَ «إلا» على هذا التقدير بمعنى «غير»، ولا مجال لكونها للاستثناء، لا لما يُتوهَّم من التناقض بناءً على أن سَلْبَ الجنس عن كلِّ فردٍ فرد يُنافي إثباته لواحد من أفراده، فإنه مدفوعٌ بنحو ما اختاره نجم الأئمة[1] في دفع التناقض المتوهَّم في مثل: ما قام القومُ إلا زيدًا، لوجوب شمول القوم المنفيِّ عنهم الفعلُ

---

(١) هو رضي الدين الأسْترابادي، كما جاء عند تفسير الآية (١٣٣) من سورة النساء.

لزيد المثبت هو له فيما يتبادر، بأن يقال: إن الجنسَ الخارج عنه هذا الفرد منتفٍ في ضمن كلِّ ما عداه، ولا لِمَا قد يُتوهَّم من عدم تناول الجنس المنفي لما هو بعد «إلا» وهو شرطُ الاستثناء لِمَا عرفت من الفرق بين الجنس بدون اعتبار حصوله في الأفراد وبينه مع اعتبار عدمِ حصوله فيها = بل لأنها لو كانت للاستثناء لما أفاد الكلامُ التوحيدَ؛ لأنه يكون حاصله حينئذ أن هذا الجنس على تقدير عدمِ دخول هذا الفرد فيه منتفٍ، فيفهم منه عدمُ انتفائه في أفراد غير خارج عنها ذلك الفرد، فأين التوحيد، فالواجب حملُها على معنى «غير» وجعلها تابعةً لمحلِّ اسم «لا» بدلًا عنه، أو صفة كما في قوله:

وكلُّ أخٍ مُفارقُه أخوه لعَمْرُ أبيكَ إلا الفرقدان[1]

كذا رأيته في بعض نسخٍ قديمة، وذكره بعضُ شيوخ مشايخنا العلامة الطبقجلي[2] في رسالته «شرح الكلمة الطيبة» ولم يتعقَّبه بشيء، وعندي أن ما ذكر في نفي كون «إلا» للاستثناء على ذلك التقدير لا يخلو عن نظر.

ثم إنه قيل: إذا كان مضمون المركَّب على ذلك التقدير أنَّ هذا الجنس مُنتفٍ فيما عدا هذا الفرد كانت القضية شخصيةً، ولها لازمٌ هو قضية كلية، أعني قولنا: كلّ ما يُعتبر فردًا له سوى هذا الفرد فهو مُنتفٍ، ولا استبعاد في شيء من ذلك.

وذهب الكثيرُ إلى تقدير الخبر: موجودٌ، وأجاب عن الإشكال بأنه يلزم نفي الإمكان العامّ من جانب الوجود عن الآلهة غير الله تعالى، وذلك مبنيٌّ على مقدمة قطعيةٍ معلومةٍ للعقلاء هي أن المعبودَ بالحقِّ لا يكون إلا واجبَ الوجود، فيصير المعنى: لا معبودَ بحقٍّ موجودٌ إلا اللهُ، وإذْ ليس موجودًا ليس مُمكنًا لأنه لو كان ممكنًا لكان واجبًا بناءً على المقدّمة القطعية فيكون موجودًا، وقد أفادت الكلمة الطيبة أنه ليس بموجود فليس بممكن؛ لأن نفي اللازم يدلُّ على نفي الملزوم.

واعترض بأنَّ المقدمة القطعية وإنْ كانت صحيحةً في نفس الأمر لكنها غير

---

(١) البيت نسب لعمرو بن معدي كرب، وسلف ٣/ ٣٧٠.

(٢) هو محمد سعيد بن محمد أمين البغدادي الحنفي، توفي سنة (١٢٧٣هـ). هدية العارفين ٦/ ٣٧٤.

مسلَّمة عند المشركين؛ لأنهم يعبدون الأصنام ويعتقدونها آلهةً مع اعترافهم بأنها ممكنةٌ محتاجةٌ إلى الصانع ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] فيمكن أنْ يعترفَ المكلَّف بالكلمة الطيبة ويعتقد أنَّ نفي الوجود لا يستلزم نفي الإمكان، فيمكن عنده وجودُ آلهة غير الله تعالى، فلا يكون التلفُّظ بالكلمة نصًّا على إيمانه. ولو كانت المقدِّمة المذكورة مسلَّمةً عند الكلِّ لأمكن أن يقدَّر الخبرُ من أول الأمر: موجود بالذات، أي: لا إلهَ موجودٌ بالذات إلا الله، وإذا لم يكن غيره تعالى موجودًا بالذات لم يكن مستحقًّا للعبادة لأن المستحقَّ لها لا يكون إلا واجبًا لذاته.

وقد قُرِّر الجوابُ بوجهين آخرين:

الأول: أنَّ لا إله موجودٌ، قضيةٌ سالبة حملية لا بدَّ لها من جهة، وهي الإمكان العامُّ، فيكون المعنى أن الجانبَ المخالفَ للسلب ـ وهو إثباتُ الوجود ـ ليس ضروريًّا للآلهة إلا الله تعالى، فإنه موجودٌ بالإمكان العامِّ، أي: جانب السلب ليس ضروريًّا له تعالى، فيكون الوجود ضروريًّا له سبحانه تحقيقًا للتناقض بين المستثنى والمستثنى منه.

الثاني: أنَّ لا إله موجودٌ بالإمكان العامِّ، سالبة كلية مُمكنة عامة، فيكون المتحصِّل بالاستثناء الذي هو نقيض مُوجبة جزئية ضرورية، أي: الله موجودٌ بالضرورة.

وأُورد على التقريرين أنهما إنما يتمَّان إذا كان كلٌّ من طرفي المستثنى والمستثنى منه قضيةً مستقلة، وهو ممنوعٌ، والصحيحُ عند أهل العربية أنهما كلامٌ واحد مُقيَّد بالاستثناء فلا يجري فيهما أحكامُ التناقض إلا أن يُؤوَّل بالمعنى اللغوي، وأيضًا جَعلُ الله موجود بالضرورة قضيةً جزئية فيه تساهلٌ.

وقيل: يمكن أن يقال: الخبر المقدَّر هو الموجود مطلقًا سواء كان بالفعل أو بالإمكان على استعمال المشترك في كِلا مَعنييه، أو على تأويله بما يُطلق عليه اسمُ الموجود. وهو كما ترى.

وقيل: يجوز تقديره: ممكن، ونفي الإمكان يستلزم نفي الوجود، لأنَّ الإله واجبُ الوجود، وإمكان اتصاف شيء بوجوبِ الوجود يستلزم اتصافَه بالفعل بالضرورة، فإذا استُفيد من الكلمة الطيبة إمكانه يُستفاد منه وجودُه أيضًا، إذْ كلُّ ما لم يوجد يستحيل أن يكونَ واجبَ الوجود، ويعلم ما فيه مما مرَّ، فلا تغفل.

وقال بعضهم: الخبر المقدَّر: مُستحِقٌّ للعبادة، فالمعنى: لا إله مُستحِقٌّ للعبادة إلا الله، ولا محذورَ فيه. واعتُرض بأنّ هذا كونٌ خاصٌّ، ولا بدَّ في حَذْفه من قرينة ولا قرينة فلا يصحُّ الحذف. وأُجيب بأنها كنارٍ على عَلَم، لأنَّ الإله بمعنى المعبود، فدلَّ على العبادة واستحقاقها، ويُؤيِّده ملاحظة المقام واعتبار حال المخاطَبين؛ لأنَّ هذه الكلمة الطيبة واردةٌ لردِّ اعتقاد المشركين الزاعمين أن الأصنام تستحقُّ العبادة.

واعتُرضَ أيضًا بأنه لا يدلُّ على نفي التعدُّد مطلقًا، أي: لا بالإمكان ولا بالفعل، لجواز وجودِ إله غيره سبحانه لا يستحقُّ العبادة. وأيضًا يمكن أن يقال: المرادُ إما نفي إله مستحقٌّ للعبادة غيره تعالى بالفعل أو بالإمكان، فعلى الأول لا ينفي إمكان إله مستحِقٌّ للعبادة أيضًا غيره عز وجل، وعلى الثاني لا يدلُّ على استحقاقه تعالى للعبادة بالفعل. ورُدَّ بأن وجوب الوجود مبدأ جميع الكمالات، ولذا فرَّعوا عليه كثيرًا منها، فلا ريبَ أنه يوجب استحقاقَ التعظيم والتبجيل، ولا معنى لاستحقاق العبادة إلا ذلك، فإذا لم يستحقَّ غيره تعالى العبادةَ لم يوجد واجب وجود غيره سبحانه، وإلا لاستحقَّ العبادة قطعًا، وإذا لم يوجد لم يكن ممكنًا أيضًا، فثبت أنَّ نفي استحقاق العبادة يستلزم نفي التعدُّد جزمًا.

وتُعقب بأن فيه البناءَ على أنَّ الإله لا يكون إلا واجبَ الوجود، وقد سمعت أنها وإن كانت قطعيةَ الصِّدق وفي نفس الأمر إلا أنها غيرُ مُسلَّمة عند المشركين.

ومن المحقِّقين من قال: إنه لا يلتفت إلى عدم تسليمهم لمكابرتهم ما عسى أن يكون بديهيًّا. نعم ربما يقال: إنَّ الكلمةَ الطيبةَ على ذلك التقدير إنما تدلُّ على نفي المعبود بالفعل بناءً على ما قُرِّر في المنطق أنَّ ذاتَ الموضوع يجب اتصافُه بالعنوان بالفعل. ويجاب بمنع وجوب ذلك، بل يكفي الاتصاف بالإمكان كما صرَّح به

الفارابي، وأما ما نُقل عن الشيخ فمعناه كونه بالفعل بحسب الفرض العقلي لا بحسب نفس الأمر كما تدلُّ عليه عبارته في «الشفاء» و«الإشارات»، فيرجع إلى معنى الإمكان.

والفرقُ بين المذهبين أنَّ في مذهب الشيخ زيادةَ اعتبار ليس في مذهب الفارابي، وهي أن الشيخ اعتبر مع الإمكان بحسب نفس الأمر فرض الاتصاف بالفعل ولم يعتبره الفارابي.

وبالجملة إنَّ الاتصاف بالفعل غير لازم، فكلُّ ما يمكن اتِّصافُه بالمعبودية داخلٌ في الحكم بأنه لا يستحقُّ العبادة، ولما كانت القضيةُ سالبةً صدقت وإن لم يوجد الموضوع.

ولعلَّ التحقيق في هذا المقام أنَّ الكلمةَ الطيبة جاريةٌ بين الناس على متفاهم اللغة والعرف لا على الاصطلاحات المنطقية والتدقيقات الفلسفية، وهي كلامٌ ورد في ردِّ اعتقاد المُشرك الذي اعتقد أنَّ آلهةً غير الله سبحانه تستحقُّ العبادة، فإذا اعترف المُشرك بمضمونه من أنه لا معبودَ مُستحِقٌّ للعبادة إلا الله تعالى عُلم من ظاهر حاله الإيمان، ولهذا اكتفى به الشارع عليه الصلاة والسلام، وأما الكافرُ الذي يعتقد إمكان وجود ذاتٍ تستحقُّ العبادةَ بعدُ فلا تكفي هذه الكلمة الطيبةُ في إيمانه كما لا تكفي في إيمان مَن أنكر النبوة أو المعاد أو نحو ذلك مما يجب الإيمان به، بل لا بدَّ من الاعتراف بالحكم الذي أنكره، ولا محذورَ في ذلك، ولما كان الكفرة الذين يعتقدون أن آلهةً غير الله تعالى تستحقُّ العبادةَ هم المشهورون دون من يعتقد إمكانَ وجودِها بعدُ، اعتُبرت الكلمة عَلَمًا للتوحيد بالنسبة إليهم.

ويعلم من هذا أنه لو قُدِّر الخبر المحذوف من أولِ الأمر: موجودٌ، أمكن دفعُ الإشكال بهذا الطريق، أعني متفاهم اللغة وعُرف الناس من الأوساط، وأما أنَّ نفي الوجود لا يستلزم نفي الإمكان فلا يلزم من الكلمة الطيبة حينئذ نفيُ إمكان آلهة غير الله تعالى، فمما لا يسبق إلى الأفهام، ولا يكاد يوجد كافرٌ يعتقد نفيَ وجودِ إله غيره تعالى مع اعتقاد إمكان وجودِ إله غيره سبحانه بعد ذلك.

ومن الناس مَنْ أيَّد تقديرَ الخبر كذلك بأنَّ الظاهرَ أنَّ «لا» نافية للجنس، ونفي الماهية نفسها بدون اعتبار الوجود واتصافها به كنفي السواد نفسهِ لا نفي وجودِه عنه، بعيدٌ، فكما أن جعل الشيء باعتبار الوجود إذْ لا معنى لجعل الشيء وتصييره نفسه، فكذلك نفيُه ورفعه أيضًا باعتبار رَفْع الوجود عنه.

وتُعقِّب بأن هذا هو الذي يقتضيه النظر الجليل، وأما النظرُ الدقيق فقد يحكم بخلافه لأنَّ نفيَ الماهية باعتبار الوجود ينتهي بالآخرة إلى نفي ماهية ما باعتبار نفسها، وذلك لأنَّ نفي اتصافها بالوجود لا يكون باعتبار اتِّصاف ذلك الاتصاف به إلى ما لا يتناهى، فلا بدَّ من الانتهاء إلى اتصافٍ مُنتفٍ بنفسه لا باعتبار اتصافه بالوجود، دفعًا للتسلسل.

وقيل: الظاهر أن نفي الأعيان كما في الكلمة الطيبة إنما هو باعتبار ذلك، وأما غيرها فتارةً وتارةً، فتدبَّر.

و«إلا» على التقدير المذكور للاستثناء ورفع الاسم الجليل على ما سمعتَ من المشهور. وقيل: هي فيه بمعنى «غير» صفة الاسم لا باعتبار المحلِّ، أي: لا إله غير الله تعالى موجودٌ.

واعترض بأنَّ المقصودَ من الكلام أمران: نفي الألوهية عن غيره تعالى، وإثباتها له سبحانه، وهو إنما يتمُّ إذا كانت «لا» فيه للاستثناء، إذْ يُستفاد النفي والإثبات حينئذ بالمنطوق، أما إن كانت بمعنى «غير» فلا يُفيد بمنطوقه إلا نفي الألوهية عن غيره تعالى، وفي كون إثباتها له تعالى بالمفهوم ويُكتفى به بحثٌ؛ لأنَّ ذلك إنْ كان مفهومَ لقب فلا عبرة عند القائلين بالمفهوم على الصحيح، خلافًا للدقَّاق والصيرفي من الشافعية، وابن خويزمنداد من المالكية، ومنصور بن أحمد من الحنابلة. وإنْ كان مفهومَ صفة فمن البيِّن أنه غيرُ مُجْمَعٍ عليه، بل أبو حنيفة رضي الله عنه لم يقل بشيء من مفاهيم المخالفة أصلًا.

وأنت تعلم أن ما ذكره من إفادة الكلمة الطيبة إثبات الإلهية لله تعالى ونفيها عمَّا سواه عز وجل على تقدير كون «إلا» للاستثناء غيرُ مَجْمَع عليه أيضًا، فإن الاستثناء

من النفي ليس بإثبات عند أبي حنيفة ﷺ، وجعل الإثبات في كلمة التوحيد بعرف الشرع، وفي المُفرَّغ نحو: ما قام إلا زيدٌ، بالعرف العامِّ، وما له وما عليه في كتب الأصول فلا تغفل.

وتمامُ الكلام فيما يتعلَّق بإعراب هذه الكلمة الطيبة في كتب العربية، وقد ذكرنا ذلك في تعليقاتنا على شرح السيوطي للألفية.

وهي عند السادة الصوفية قُدِّست أسرارُهم جامعة لجميع مَراتب التوحيد، ودالَّة عليها إما منطوقًا أو بالاستلزام، ومراتبه أربع: الأُولى: توحيد الألوهية، الثانية: توحيد الأفعال، الثالثة: توحيد الصِّفات، وإن شئت قلت: توحيد الوجوب الذاتي، فإنه يستلزم سائر الصفات الكمالية كما فرَّعها عليه بعضُ المحقِّقين، الرابعة: توحيدُ الذات، وإن شئت قلت: توحيد الوجود الحقيقي، فإنَّ المآل واحدٌ عندهم، وبيانُ ذلك أنَّ: لا إله إلا الله، منطوقُه ـ على ما يتبادر إلى الأذهان، وذهب إليه المُعْظَم ـ قصرُ الألوهية على الله تعالى قصرًا حقيقيًا، أي: إثباتُها له تعالى بالضرورة ونفيها عن كلِّ ما سواه سبحانه كذلك، وهو يستلزم توحيد الأفعال وتوحيدَ الصفات وتوحيد الذات.

أما الأول الذي هو قصر الخالقية فيه تعالى: فلأن مقتضى قصر الألوهية عليه تعالى قصرًا حقيقيًا هو أن الله عز وجل هو الذي يستحقُّ أن يعبدَه كلُّ مخلوق، فهو النافع الضارُّ على الإطلاق، فهو سبحانه وتعالى الخالقُ لكلِّ شيء، فإنَّ كلَّ مَنْ لا يكون خالقًا لكلِّ شيء لا يكون نافعًا ضارًّا على الإطلاق، وكلّ مَنْ لا يكون كذلك لا يستحقُّ أن يعبدَه كلُّ مخلوق؛ لأن العبادةَ هي الطاعةُ والانقيادُ والخضوعُ، ومَنْ لا يملك نفعًا ولا ضرًّا بالنسبة إلى بعض المخلوقين لا يستحقُّ أن يعبدَه ذلك البعضُ ويُطيعَه وينقادَ له، فإنَّ مَنْ لا يقدر على إيصال نفعٍ إلى شخص أو دفعِ ضرٍّ عنه لا يرجوه، ومن لا يقدرُ على إيصال ضرٍّ إليه لا يخافه، وكلُّ من لا يُخاف ولا يُرجى أصلًا لا يستحقُّ أن يُعبدَ؛ وهو ظاهر، لكن الذي يقتضيه قصرُ الألوهية عليه تعالى قصرًا حقيقيًا هو أنَّ الله تعالى هو الذي يستحقُّ أن يعبدَه كلُّ مخلوق فهو النافع الضارُّ على الإطلاق، فهو الخالقُ لكلِّ شيء، وهو المطلوب.

وأما الثاني: فلأن الكلمةَ الطيبةَ تدلُّ على أن الألوهيةَ ثابتةٌ له تعالى ثُبوتًا مستمرًّا ممتنعَ الانفكاك ومُنتفيةٌ عن غيره انتفاء كذلك، وكلُّ ما[1] كان كذلك فهي دالَّةٌ على أنه عز وجل واجبُ الوجود، وأن كلَّ موجود سواه تعالى ممكنُ الوجود؛ وكلّ ما كان كذلك كان وجوبُ الوجود مقصورًا عليه تعالى، وهو مستلزمٌ لسائر صفات الكمال، وهو المطلوب.

أما دلالتها على أنه عز وجل واجبُ الوجود فلأن الألوهية لا تكون إلا لموجودٍ حقيقةً اتفاقًا، وكلُّ ما لا يكون صفةً إلا لموجود إذا دلَّ كلامٌ على أنه ثابتٌ لشيء ثبوتًا ممتنعَ الانفكاك سرمدًا فقد دلَّ على أن الوجودَ ثابتٌ لذلك الشيء ثبوتًا ممتنعَ الانفكاك سرمدًا، ولا يكون كذلك إلا إذا كان موجودًا لذاته، وهو المعنيُّ بواجب الوجود لذاته، وحيث دلَّت على ثبوت الأُلوهية ثبوتًا مستمرًّا ممتنعَ الانفكاك فقد دَلَّت على وجوب وجوده تعالى وهو مستلزمٌ لسائر صفات الكمال، وهو المطلوب.

وأما دلالتها على أن كلَّ موجود سواه فهو ممكنُ الوجود فلأن موجودًا مّا سواه لو كان واجبَ الوجود لذاته لكان مُستحِقًّا أن يُعبد، لكنها قد دلَّت على أنه لا يستحقُّ أن يُعبدَ إلا الله، فقد دلَّت على أنه لا واجبًا وجودُه لذاته إلا الله تعالى، فكلُّ ما سواه فهو ممكنٌ، وهو المطلوب.

أو يقال: إنها قد دلَّت على أنه تعالى هو النافعُ الضارُّ على الإطلاق، فهو الجامع لصفاتِ الجلال والإكرام، فهو سبحانه المُتَّصفُ بصفاتِ الكمال كلِّها، وهو المطلوب.

وأما الثالث: فقد قال حُجَّةُ الإسلام الغزالي في باب الصدق من «الإحياء»[2]: كلُّ ما تقيَّد العبدُ به فهو عبدٌ له، كما قال عيسى عليه السلام: يا عبيدَ الدنيا، وقال نبينا ﷺ: «تَعِسَ عبدُ الدينار، تَعِسَ عبدُ الدِّرهم وعبد الحُلَّة وعبدُ الخَميصة»[3]، سمَّى كلَّ من تقيَّد قلبه بشيء عبدًا له. وقال في باب الزهد منه: مَنْ طلب غيرَ الله

---

(١) في الأصل: وكلما.

(٢) إحياء علوم الدين ٤/ ٢٨٨.

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٨٦).

تعالى فقد عبدَه؛ وكلُّ مطلوب معبودٌ، وكلُّ طالب عبدٌ بالإضافة إلى مَطْلبه[(١)].
وقال في الباب الثالث من كتاب العلم منه: كلُّ مُتَّبِعٍ هواه فقد اتخذ هواه معبودًا؛ قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] وقال ﷺ: «أبغضُ إله عُبد في الأرض عند الله تعالى هو الهوى»[(٢)]. انتهى.

ومن المعلوم أنه ما في الوجود شيء إلا وهو مطلوبٌ لطالب ما، وقد صحَّ بما مرَّ إطلاقُ الإله عليه ولا إله إلا الله، فما في الوجود حقيقة إلا الله.

ومنهم مَنْ قرَّر دلالة الكلمة الطيبة على توحيدِ الذات ونفي وجود أحدٍ سواه عز وجل بوجه آخر، وهو أن «إلا» بمعنى «غير» بدل من الإله المنفي فيكون النفي في الحقيقة متوجهًا إلى الغير، ونفي الغير توحيدٌ حقيقيٌّ عندهم، وإذا تبين لك دلالتها على جميع مراتب التوحيد لاحَ لك أن الشارع لأمرٍ ما جعلها مفتاحَ الإسلام وأساسَ الدين ومهداةَ الأنام، وفي حديث أخرجه أبو نُعيم عن عِياض الأشعري أنه ﷺ قال: «لا إله إلا اللهُ كلمة كريمة، ولها عند الله مكانٌ جمعت وسوّلت، مَن قالها صادقًا مِن قلبه دخل الجنة»[(٣)]. وفي حديث أخرجه ابن النجَّار عن دينار عن أنس أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لا إله إلا الله كلمةٌ عظيمة كريمة على الله تعالى مَنْ قالها مُخلصًا استوجب الجنة»[(٤)]. وأخرج مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «اذهب بنعليَّ هاتين، فمن لقيتَ من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه، فبشِّره بالجنة»[(٥)]، وحديثُ

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/ ٢٢٦.
(٢) إحياء علوم الدين ١/ ٣٣. والحديث أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٣)، والطبراني في الكبير (٧٥٠٢) عن أبي أمامة ﷺ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٨٨: فيه الحسن بن دينار وهو متروك الحديث، وقال ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٣٢٦: هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ، والحسن بن دينار والخصيب - وهو ابن جحدر - كذابان.
(٣) كنز العمال (٢٢٨)، وأخرجه أيضاً ابن قانع في معجم الصحابة ٢/ ٢٧٧، والديلمي في مسند الفردوس (٧٢٨١)، ولم ترد فيهما عبارة: جمعت وسوّلت.
(٤) ذيل تاريخ بغداد لابن النجار ١٧/ ٢٣٤.
(٥) صحيح مسلم (٣١).

البطاقة أشهرُ من أن يُذكر[1]، وكذا الحديث القدسي المرويُّ عن عليّ الرضا عن آبائه عليهم السلام[2]، وجاء: «مَنْ كان آخرُ كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخلَ الجنة»[3] أي: بلا حساب، وإلا فما الفرقُ بين ذلك ومَنْ قالها ولم تكن آخرَ كلامه من الدنيا.

وبالجملة إنَّ فضلها لا يُحصى، وإنها لتُوصِل قائلها إلى المقام الأقصى، وقد أُلِّفت كتبٌ في فضلها وكيفية النُّطق بها وآداب استعمالها فلا نُطيل الكلامَ في ذلك.

بقي هاهنا بحثٌ، وهو أن المسلمين أجمعوا على وجوب معرفة الله تعالى، وإن اختلفوا في كونه شرعيًّا أو عقليًّا، وأما النظر في معرفته تعالى لأجل حصولها بِقُدَرِ الطاقة البشرية فقد قال العلَّامة التفتازاني في «شرح المقاصد»: لا خلافَ بين أهل الإسلام في وجوبه، لأنه أمرٌ مقدورٌ يتوقَّف عليه الواجب المطلق الذي هو المعرفة، وكلُّ مقدور يتوقَّف عليه الواجبُ المُطلَق فهو واجبٌ شرعًا إنْ كان وجوب الواجب المُطلَق شرعيًّا كما هو رأي الأصحاب، وعقلًا إنْ كان عقليًّا كما هو رأي المعتزلة لئلا يلزم تكليف المُحال. أما كون النظر مقدورًا فظاهرٌ، وأما توقُّف المعرفةِ عليه فلأنها ليست بضرورية، بل نظرية، ولا معنى للنظري إلا ما يتوقَّف على النظر ويتحصَّل به[4].

وظاهر كلام السَّيِّد السند في «شرح المواقف»[5] إجماعُ المسلمين كافَّةً على ذلك أيضًا. والحقُّ وقوع الخلاف في وجوب النظر كما يدلُّ عليه كلام ابن الحاجب في «مختصره» والعَضُد في «شرحه» وكلام التاج السُّبكي في «جمع

---

(١) أخرجه أحمد (٦٩٩٤)، والترمذي (٢٦٣٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.
(٢) أخرجه الشهاب في مسنده (١٤٥١) من حديث علي ﷺ بلفظ «يقول الله تعالى: لا إله إلا الله حصني، فمن دخله أمن عذابي»، ويرويه عن علي الرضا أحمد بن علي بن صدقة، قال فيه الذهبي في الميزان ١/ ١٢٠: روى نسخة مكذوبة، اتهمه الدارقطني بوضع الحديث.
(٣) أخرجه أحمد (٢٢٠٣٤) من حديث معاذ بن جبل ﷺ.
(٤) شرح المقاصد ١/ ٢٦٢-٢٦٣.
(٥) ١/ ٢٥١.

الجوامع» والجلال المَحلّي في «شرحه»[(١)]، وقول شيخ الإسلام في حاشيته عليه: محلُّ الخلاف في وجوب النظر في أصول الدين وعدمِ وجوبه في غير معرفة الله تعالى منها، أما النظرُ فيها فواجبٌ إجماعًا كما ذكره السعد التفتازاني كغيره = اعترضه المحقِّق ابنُ قاسم العبَّادي في حاشيته «الآيات البينات» بقوله: إن الظاهرَ أنَّ ما نقله السعد من الإجماع على وجوبِ النظر في معرفة الله تعالى غيرُ مُسلَّم عند الشارح وغيره، ألا ترى إلى تمثيل الشارح لمحلِّ الخلافِ بقوله: كحدوث العالم ووجودِ الباري تعالى وما يجبُ له جلَّ شأنه وما يمتنع عليه سبحانه من الصفات، فإن قوله: ووجود الباري تعالى.. إلخ يتعلَّق بمعرفته عز وجل، إلى آخر ما قال. نعم قال كثيرٌ ـ ورجَّحه الإمام الرازي والآمدي ـ: إنه يجب النظرُ في مسائل الاعتقاد، ومعرفةُ الله تعالى أُسُّها، فيجب فيها بالأولى، وقالوا في ذلك: لأن المطلوبَ اليقين لقوله تعالى لنبيِّه ﷺ: (فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ) وقد عَلِم ذلك، وقال تعالى للناس: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨] ويقاس غير الوحدانية عليها، ولا يتمُّ الاستدلال إلا بضمِّ توقُّف حصول اليقين على النظر. وهؤلاء لم يُجوِّزوا التقليدَ في الأصول، وهو أحدُ أقوال في المسألة، ثانيها قول العنبري: إنه يجوز التقليدُ فيها بالعقد الجازم ولا يجب النظر لها، لأنه عليه الصلاة والسلام كان يكتفي في الإيمان بالعقد الجازم، ويُقاس غيرُ الإيمان عليه.

والمراد أنه عليه الصلاة والسلام كان يكتفي بذلك نظرًا إلى ظاهر الحال، فإن الخبرَ كما صرَّحَ به المحقِّق عيسى الصفوي[(٢)] في شرحه للفوائد الغياثية على ما نقله عنه تلميذُه ابن قاسم العبادي في «الآيات البيِّنات» دالٌّ وضعًا على صورة ذهنية على وجه الإذعان تحكي الحال الواقعية، ولا شكَّ أنَّ لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله من قِسْم الخبر، فهما دالَّان وضعًا على أنَّ قائلهما ولو تحت ظلال السيف معتقدٌ لمضمونهما على وجه الإذعان، وعدم كونه معتقدًا في نفس الأمر احتمالٌ عقليٌّ، والمُطَّلع على ما في القلوب علَّامُ الغيوب.

---

(١) حاشية العطار على شرح الجلال المحلي لجمع الجوامع ٢/ ٤٤٢ وما بعدها.
(٢) المتوفى سنة (٩٥٥هـ). كشف الظنون ٢/ ١٢٩٩.

وثالث الأقوال: أنه يجب التقليدُ بالعقد الجازم ويحرمُ النظرُ لأنه مَظِنَّة الوقوع في الشُّبه والضلال لاختلاف الأذهان بخلاف التقليد، وهذا ليس بشيء أصلًا. والذي أوجب النظرَ من المحقِّقين لم يُرِدْ النظرَ على طريق المتكلِّمين بل صرَّح كما في «الجواب العتيد» للكوراني بأن المعتبر هو النظرُ على طريق العامة، والظاهرُ أنه ليس مَظِنَّة الوقوع فيما ذكر، وهل القائلُ بوجوبه من أولئك جاعلٌ له شرطًا لصحة الإيمان أَمْ لا؟ ففيه خلاف. فيفهم من بعض عبارات «شرح الأربعين» لابن حجر أنه جاعل له كذلك فلا يصحُّ إيمانُ المُقلِّد عنده، بل يُفهم منها أن النظر المُعتَبر عند ذلك هو النظرُ على طريق المُتكلِّمين، وكلامُ الجلال المحلِّي في «شرح جمع الجوامع» صريحٌ في أن القائلين بوجوب النظر غيرَ أبي هاشم ليسوا جاعلين النظرَ شرطًا لصحة الإيمان، ولا زاعمين بطلان إيمان المُقلِّد، بل هو صحيحٌ عندهم مع الإثم بترك النظر الواجب. نعم سيأتي إن شاء الله تعالى نقلُ الإمام حُجَّة الإسلام في كتابه «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة» نقل الاشتراط عن طائفة من المتكلِّمين مع ردِّه. وأما ما نُقل عن الشيخ الأشعري من الاشتراط، وأنه لا يصحُّ إيمانُ المُقلِّد، فكذبٌ عليه كما قاله الأستاذ أبو القاسم القشيري.

وقال التاج السبكي[١]: التحقيق أنه إن كان التقليدُ أخذًا بقول الغير بغير حُجَّة مع احتمال شَكٍّ أو وهم فلا يكفي، وإن كان جزمًا فيكفي، خلافًا لأبي هاشم. والظاهرُ أن القائلَ بكفاية التقليد مع الجزم يمنع القولَ بأن المعرفةَ لا تحصل إلا بالنظر، ويقول: إنها قد تحصلُ بالإلهام أو التعليم أو التصفية، فمن حصل له العقدُ الجازم بما يجب عليه اعتقادُه فقد صحَّ إيمانه من غير إثم لحصول المقصود، ومَنْ لم يحصل له ذلك ابتداءً أو تقليدًا أو ضرورة فالنظر عليه متعين: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ [السجدة: ٢٢] ويكفي دليلًا للصحة اكتفاءُ النبيِّ ﷺ وأصحابه ﷺ مِن عَوامِّ العَجَم كأجلاف العرب وإن أسلمَ أحدُهم تحت ظلِّ السيف بمجرَّد الإقرار بـ: لا إله إلا الله محمد رسول الله، الدالّ بحسب ظاهرِ حالهم على أنهم يعتقدون مضمونَ ذلك ويُذعنون له، ولو كان الاستدلال فرضًا

(١) جمع الجوامع (مع حاشية العطار) ٢/ ٤٤٥.

لأُمروا به بعد النُّطق بالكلمتين، أو عُلِّموا الدليل ولُقِّنوه كما لُقِّنوهما، وكما عُلِّموا سائرَ الواجبات، ولو وَقَعَ ذلك لَنُقِلَ إلينا فإنه من أهمِّ مُهِمَّات الدين، ولم يُنقل أنهم أَمروا أحدًا منهم أَسلمَ بترديد نظر، ولا سألوه عن دليل تصديقه، ولا أرجؤوا أمره حتى ينظر، فلو كان النظرُ واجبًا على الأعيان ولو إجماليًّا على طريق العامَّة لما اكتفى النبيُّ ﷺ من أولئك العوامِّ والأجلافِ بمجرَّد الإقرار، لأنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام وأصحابه لا يُقِرُّون أحدًا على ترك فرض العين من غير عُذر، فلا يكون تاركه آثمًا فضلًا عن أنْ يكونَ بتركه غيرَ صحيح الإيمان، ويشهد لذلك ما قاله ﷺ لأسامةَ بن زيد عند اعتذاره عن قتل مِرداس بن نهيك من أهل فَدَك[1]، وغيره من الأخبار الكثيرة.

وما في «المواقف» و«المقاصد» وشرح المختصر العضدي وغيرها من كتب الكلام والأصول من أن النبيَّ ﷺ وأصحابه كانوا يعلمون أنهم ـ أي: العوامُّ وأجلاف العرب ـ يعلمون الأدلة إجمالًا كما قال الأعرابي: البعرةُ تدلُّ على البعير وأَثَر الأقدام على المسير، أفسماءٌ ذاتُ أبراج وأرض ذات فِجاج لا تدلُّ على اللطيف الخبير؟! أي: فلذلك لم يُلزموهم النظر ولا سألوهم عنه، ولا أرجؤوا أمرهم، وكلُّ ما كان كذلك لم يكن اكتفاؤهم بمجرَّد الإقرار دليلًا على أنَّ النظرَ ليس واجبًا على الأعيان، ولا على أنَّ تاركه غير آثم = دعوى لا دليلَ عليها.

وحكايةُ الأعرابي إنْ كانت مَسوقةً للاستدلال لا تدلُّ، غاية ما في الباب أن ذلك الأعرابي كان عالمًا بدليل إجمالي، ولا يلزم منه أن جميعَ الأجلافِ والعوامِّ كانوا عالمين بالأدلة الإجمالية في عهد النبوَّة وغيره، وإلا لكانت حجةً على أنه لا مقلِّد في الوجود، على أن بعضهم أسندَ ذلك القول إلى قُسِّ بن ساعدة وكان في الفترة، والجلال المحَلِّي ذكره لأعرابي قاله في جواب الأصمعي[2]، وكان في زمن الرشيد، بل قد يقال: إن ظاهرَ كثير من الآيات والأخبار يدلُّ على أن كثيرًا من

(١) وهو قوله ﷺ: «هلا شققت عن قلبه فنظرت إليه». والحديث عند الطبري ٧/ ٣٥٧، وسلف ٦/ ٢٢٦، وأصل الخبر عند مسلم (٩٦).

(٢) شرح جمع الجوامع (مع حاشية العطار) ٢/ ٤٤٤.

المشركين في عهده عليه الصلاة والسلام لم يكونوا عالمين بأدلَّة التوحيد مطلقًا، وذلك كقوله تعالى حكايةً عنهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥-٣٦] وقول بعضهم في بعض الحروب: اعلُ هُبل اعلُ هبل.

وما ذكره المحقِّق العضد في «شرح المختصر» من الدليل على عدمِ جواز التقليد حيث قال: إنَّ الأمة أجمعوا على وجوبِ معرفة الله تعالى، وأنها لا تحصل بالتقليد لثلاثة أوجه: أحدها: أنه يجوز الكذبُ على المُخبِر، فلا يحصل بقوله العلمُ. ثانيها: أنه لو أفاد العلم لأفاده بنحو حدوث العالم من المسائل المختلف فيها، فإذا قلّد واحد في الحدوث والآخر في القِدَم كانا عالمين بهما فيلزم حَقِّيتهما[1]، وأنه مُحال. ثالثها: أن التقليدَ لو حصَّل العلمَ، فالعلم بأنه صدق فيما أخبر به إما أن يكون ضروريًّا أو نظريًّا، لا سبيل إلى الأول بالضرورة فلا بدَّ له من دليل، والمفروض أنه لا دليلَ إذْ لو علم صِدْقه بدليله لم يبقَ تقليدًا = تعقَّبه العلامة الكوراني فقال: فيه بحثٌ، أما في الوجه الأول فلأن من جوَّز التقليدَ مَثَّلَ المُقلِّدَ بمن نشأ على شاهق جبل ولم ينظر في ملكوت السماوات والأرض، وأخبره غيرُه بما يلزمه اعتقاده وصدَّقه بمجرد إخباره من غير تفكُّر وتدبُّر، وهو صريحٌ في أن الكلامَ في مقلِّد أخبره غيرُه بما يلزمه اعتقاده، وما يلزمه اعتقاده لا يكون إلا صدقًا، فإن الكذب لا يلزم أحدًا اعتقاده، وأما من أخبر بالأكاذيب فاعتقدها فهو لم يعتقد إلا أكاذيبَ، والأكاذيب ليست من معرفة الله تعالى في شيء، فكيف يحكم عليه أحدٌ من العقلاء بأنه مؤمن بالله تعالى عارفٌ به مع أنه لم يعتقد إلا الأكاذيب؟ وهو ظاهر.

وأما في الوجه الثاني: فلمثل ما مرَّ، لأنا لا نقول: إنَّ كل تقليدٍ مُفيد للعلم، ولا أنَّ كلَّ مُقلِّد عالمٌ، كيف وليس كلُّ نظر مفيدًا للعلم، ولا كلُّ ناظر مُصيبًا، فإذا لم يكن النظرُ موجبًا للعلم مطلقًا، وإنما الموجبُ النظر الصحيح، فكذلك نقول: ليس كلُّ تقليد مُفيدًا للعلم، وإنما المفيدُ التقليدُ الصحيح، وهو أن يُقلِّد عالمًا

---

(١) في الأصل: حقيقتهما.

بمسائل معرفة الله تعالى صادقًا فيما يخبره به، فإن الكلامَ إنما هو في صحةِ إيمان مثل هذا المُقلِّد لا مطلقًا.

وأما في الثالث: فلأنَّا نختار أنَّ عِلْمه بأنه صدق فيما أخبر به ضروريّ، قولكم: لا سبيلَ إليه بالضرورة، قلنا: ممنوعٌ؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] وقد رُوي مرفوعًا أنه ﷺ سُئل عن شرح الصدر فقال عليه الصلاة والسلام: «نورٌ يقذفه الله في قلب المؤمن فينفسح»[١]، فصرَّح ﷺ بأنه نور لا يحصل من دليل، وإنما يقذفه اللهُ تعالى في قلبه فلا يقدر على دَفْعه من غير فِكْر ولا رَوِيَّة ولا نظر ولا استدلال، وقد صرَّح بعضُ أكابر المُحقِّقين بأن توحيدَ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن علم ضروري وجدوه في نفوسهم لم يَقْدروا على دَفْعه، وبأنَّ من أهل الفترة من وجد كذلك، بل قد صرَّح بأن الإيمان علمٌ ضروري يَجِدُه المؤمن في قلبه لا يقدرُ على دَفْعه، فكم مَنْ آمن بلا دليل ومَنْ لم يُؤمن مع الدليل، وقلَّما يُوثَق بإيمان من آمن عن دليل، فإنه مُعرَّضٌ للشُّبَه القادحة فيه.

وفي الباب المئة والاثنين والسبعين، والمئة والسابع والسبعين، والمئتين والسابع والسبعين من «الفتوحات المكية»[٢] ما يُؤيِّد ذلك.

وقال الإمام حُجَّةُ الإسلام في «فيصل التفرقة»[٣]: مِن أشدِّ الناس غُلوًّا وانحرافًا طائفةٌ من المُتكلِّمين كفَّروا عوامَّ المسلمين وزعموا أن مَن لا يعرف الكلامَ معرفتنا ولم يعرف الأدلَّةَ[٤] الشرعية بأدلتنا التي حرَّرناها فهو كافرٌ، فهؤلاء ضيَّقوا رحمة الله تعالى الواسعةَ على عباده أولًا، وجعلوا الجنة وقفًا على شِرْذمةٍ يسيرة من

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٩/ ٥٤١-٥٤٢ عن أبي جعفر عبد الله بن المسور مرسلًا. وابن مسور هذا قال فيه أحمد: أحاديثه موضوعة، وقال النسائي والدارقطني: متروك. ميزان الاعتدال ٢/ ٥٠٤. وينظر ما سلف عند تفسير الآية (١٢٥) من سورة الأنعام.

(٢) ٢/ ٢٨٨ و٢٩٧ و٥٩٨.

(٣) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ص٣٣-٣٦.

(٤) في فيصل التفرقة: العقائد.

المتكلِّمين، ثم جهلوا ما تواترتْ به السنةُ ثانيًا، إذْ ظهر من عصر رسول الله ﷺ وعصر الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين حُكْمُهم بإسلام طوائفَ من أجلاف العرب كانوا مشغولين بعبادة الوثن، ولم يشتغلوا بتعلم الدلائل، ولو اشتغلوا بها لم يفهموها، ومن ظنَّ أن مدرك الإيمان الكلام والأدلَّة المحررة[١] والتقسيمات المرتَّبة فقد أبعد[٢]، لا بل الإيمان نورٌ يقذفُه الله تعالى في قلب عبده عطيةً وهدايةً من عنده، تارةً بتنبهٍ في الباطن لا يمكن التعبير عنه، وتارةً بسبب رؤيا في المنام، وتارةً بمشاهدةِ حالِ رجلٍ متديِّن وسرايةِ نوره إليه عند صحبته ومُجالسته، وتارةً بقرينة حال، فقد جاء أعرابيٌّ إلى رسول الله ﷺ جاحدًا له منِكرًا، فلما وقع بصرُه على طلعته البهية، وغُرَّته الغريرة السَّنيَّة، فرآها يتلألأ منها نورُ النبوة، قال: واللهِ ما هذا وجه كذَّاب. وسأله أن يعرضَ عليه الإسلام فأسلم[٣]. وجاء آخرُ فقال: أنشدك الله بعثك الله نبيًّا؟ فقال ﷺ: «بلى، إني[٤] واللهِ، اللهُ بعثني نبيًّا» فصدَّقه بيمينه وأسلم[٥]، فهذا وأمثاله أكثرُ من أن يُحصى، ولم يشتغل واحدٌ منهم قطُّ بالكلام وتعلُّم الأدلَّة، بل كانت تبدو أنوار الإيمان أولًا بمثل هذه القرائن في قلوبهم لمعة بيضاء، ثم لا تزال تزداد وضوحًا وإشراقًا بمشاهدة تلك الأحوال العظيمة وبتلاوة القرآن وتصفيةِ القلوب. وليت شعري مَنْ نَقَل عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة إحضارَه أعرابيًّا أسلم وقوَّله الدليل على أنَّ العالم حادثٌ، لأنه لا يخلو عن الأعراض وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، وأنَّ اللهَ تعالى عالم بعلم وقادرٌ بقدرة كلاهما زائدٌ على الذات لا هو ولا غيره، إلى غير ذلك من رسوم

(١) في فيصل التفرقة: المجردة.

(٢) في فيصل التفرقة: أبدع.

(٣) أخرج أحمد (٢٣٧٨٤)، والترمذي (٢٤٨٥) عن عبد الله بن سلام قال: لما قدم النبي ﷺ انجفل الناس عليه، فكنت فيمن انجفل، فلما تبينت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته يقول: «أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلُّوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام».

(٤) في فيصل التفرقة: إي.

(٥) أخرجه أحمد (٢٣٨٠) من حديث ابن عباس ﷺ مطولًا، والذي استحلف النبيَّ ﷺ هو ضمام بن ثعلبة ﷺ.

المُتكلِّمين. ولست أقول: لم تجرِ هذه الألفاظ، بل لم يجرِ أيضًا ما معناه معنى هذه الألفاظِ، بل كان لا تنكشف مَلْحمة إلا عن جماعة من الأجلاف يُسلِمون تحت ظلال السيوف، وجماعةٍ من الأسارى يُسلمون واحدًا واحدًا بعد طول الزمان أو على القُرب، وكانوا إذا نطقوا بكلمة الشهادة علِّموا الصلاةَ والزكاة ورُدُّوا إلى صناعتهم من رعاية الغنم أو غيرها.

نعم لست أُنكر أنه يجوز أن يكونَ ذكر أدلة المُتكلِّمين أحدَ أسباب الإيمان في حقِّ بعض الناس، ولكن ذلك ليس بمقصور عليه، وهو نادرٌ أيضًا.

وساق الكلام إلى أن قال: والحقُّ الصريح أن كلَّ من اعتقد أنَّ ما جاء به الرسول ﷺ واشتمل عليه القرآن حقٌّ اعتقادًا جزمًا فهو مؤمن وإن لم يعرف أدلَّته، فالإيمان المستفاد من الدلائل الكلامية ضعيفٌ جدًّا مُشرف على التزلزل بكلِّ شُبهة، بل الإيمان الراسخ إيمان العوامِّ الحاصل في قلوبهم في الصبا بتواتر السماع والحاصل بعد البلوغ بقرائن لا يمكن العبارة عنها. اهـ، وفيه فوائدُ شتى، ولذا نقلناه بطوله.

ومتى جاز أن يقذفَ الله تعالى في قلب العبد نورَ الإيمان فيؤمن بلا نظر واستدلال، جاز أن يقذفَ سبحانه في قلبه صِدْقَ المُخبِر بحيث لا يقدرُ على دَفْعه، ولا يدري أنه من أين جاء، لاسيما إذا كان المُخبِرُ هو النبيَّ ﷺ، فإن مِن لازِمِ قذفِ نور الإيمان في قلب المؤمن به عليه الصلاة والسلام أن يقذف في قلبه صدقه ﷺ لأن الإيمان لا يتمُّ إلا بذلك، فقد ظهر أن دعوى الضرورة في أنه لا سبيل إلى العلم بصدق المُخبِر فيما أخبر به علمًا ضروريًّا إن لم تكن مُكابرة، فمنعها ليس مُكابرة أيضًا، فإنَّ الدليل قد قام على جواز حصول العلم الضروري بصدقه، بل على وقوعه، فليست تلك الدعوى من المقدمات الضرورية التي يكون منعها مُكابرة غير مسموعة.

وقد اتَّضح من جميع ما ذُكر أنَّ ما قاله السعد في «شرح المقاصد»[1] من أن الحقَّ أن المعرفةَ بدليل إجمالي يرفع الناظر من حَضيض التقليد فرضُ عين لا مَخرج

---

(١) ١/٢٦٦.

عنه لأحد من المُكلَّفين، وبدليل تفصيلي يتمكَّن معه من إزاحة الشُّبه وإلزام المُنكرين وإرشاد المسترشدين فرضُ كفاية لا بدَّ من أن يقومَ به البعضُ = لا يخلو عن نظر على ما قيل. لكن الظاهر عندي أنَّ الحقَّ مع السعد من جهة أن الإيمان بمعنى التصديق مُكلَّف به، وشرط المكلَّف به كونه اختياريًّا، وقد صرَّحوا أن التكليفَ بما ليس باختياري تكليفٌ في الحقيقة بما يتوقَّف عليه من الأمور الاختيارية، وأن التصديقَ نفسه لكونه غير اختياري كان التكليف به في الحقيقة تكليفًا بما يتوقَّف هو عليه من النظر الاختياري، فالإيمان الذي يحصل بقذفه تعالى النور في القلب من غير فكر ولا روية ولا نظر ولا استدلال ليس اختياريًّا بنفسه ولا باعتبار ما يحصل هو منه فكيف يكون مُكلَّفًا به، وما مرادُ السعد ومن وافقه بالمعرفة إلا المعرفة من حيث إنها مُكلَّف بها كما يُشير إليه قوله: لا مَخرج عنه لأحد من المُكلَّفين، وكون ذلك مُكلَّفًا به باعتبار أمر اختياريٍّ غير النظر، كتحصيل الاستعداد لإفاضة النور، وخَلْق العلم الضروري في قلب العبد، غيرُ ظاهر.

نعم لست أنكر أنَّ من المعرفة ما لا يتوقَّف على نظر في دليل إجمالي أو غيره، كمعرفة الأنبياء عليهم السلام على ما سمعت عن بعضهم، وكمعرفة مَنْ شاء الله تعالى من عباده سبحانه غيرهم، ولا أُسمِّي نحو هذه المعرفة تقليدية، وكذا لا أُنكر أن المعرفةَ الحاصلة مِن قَذْف النور فوقَ المعرفةِ الحاصلة من النظر في الدليل، فإنها يُخشى عليها من عواصفِ الشُّبه، وأذهب إلى أن النظرَ في الدليل مطلقًا واجبٌ على من لم يحصل له العقد الجازمُ إلا به، وأما من حصل له ذلك بأي طريق كان دونه فلا يجب عليه وكذا لا يأثمُ بتركه، وحكايةُ الإجماع على إثمه به لا يخفى ما فيها، وتوجيهُ ذلك بأنَّ جزمَ المؤمن حينئذ لا ثقةَ به، إذ لو عَرَضَت له شُبهةٌ فات وبقي متردِّدًا بخلاف الجزم الناشئ عن الاستدلال، فإنه لا يفوتُ بذلك = غيرُ ظاهر؛ لأنه إذا سُلِّم أنَّ مَنْ ثَمَّ جزمُه من غير نظر فقد أتى بواجب الإيمان فلا وجهَ لتأثيمه بترك النظر بناءً على مجرد احتمال عُروض شُبهة مُشوِّشة لجزمه، لأنه إذا سُلِّم أن الواجبَ عليه ليس إلا أن يجزمَ وقد جزمَ فقد أدَّى واجب الوقت وما ترك منه شيئًا، وكلُّ من لم يترك واجبًا معيَّنًا في وقت معيَّن لا معنى

لتأثيمه في ذلك الوقت من جهة ذلك الواجب، وكما يحتمل عقلًا أن تعرضَ له شبهةٌ تُشوّش عليه الجزمَ لعدم الدليل كذلك يحتمل عقلًا أن يحصلَ له الدليل على ما جزم به قبلَ عُروض شُبهة، ولعل هذا الاحتمال أقوى وأقربُ إلى الوقوع.

وإذا أحطت خُبرًا بجميع ما ذكرنا علمت أنَّ الاستدلالَ بقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ على وجوبِ النظرِ فيه نظرٌ؛ لتوقُّفه على صحة قولهم: إن العلم لا يحصل إلا بالنظر وقد سمعتَ ما فيه. ويقوّي ذلك إذا قلنا: إنَّ عِلْمه ﷺ بالوحدانية ضروري، إذ يكون المرادُ الأمرَ بالثَّبات والاستمرار على ما هو ﷺ فيه من اجتناب ما يُخِلُّ بالعلم.

وقد يقال: يجوز أن يكونَ الاستدلالُ نظرًا إلى ظاهر اللفظ من حيث إنه أمرٌ بالعلم بالوحدانية فلا بدَّ أن يكون مقدورًا بنفسه أو باعتبار ما يحصل هو منه، وحيث انتفى كونه مقدورًا بنفسه تعين كونُه مقدورًا باعتبار ما يحصلُ هو منه، والظاهرُ أنه النظر.

وأنت تعلم أنه إن كان التقليدُ سببًا من أسباب العلم أيضًا لم يتمَّ هذا وإن لم يكن سببًا تمَّ، فتأمل.

ثم اعلم أنَّ النظرَ الذي قالوا به في الأصول الاعتقادية أعمُّ من النظر في الأدلة العقلية، والنظر في الأدلة السمعية، فإنَّ منها ما ثبت بالسمع، كالأمور الأُخروية، ومَدْخلُ العقل فيها ليس إلا بأنها أمورٌ مُمكنة أخبر الصادق بوقوعها، وكلُّ مُمكن أخبر الصادقُ بوقوعه واقعٌ، فتلك الأمورُ واقعةٌ. وأما النظرُ في معرفة الله تعالى - أعني التصديقَ بوجوده تعالى وصفاته العلا - فقيل: يتعيَّن أن يكون المرادُ به النظرَ في الأدلة العقلية فقط، ولا يجوز أن يكونَ النظرُ في الأدلة السمعية طريقًا إليها؛ لاستلزامه الدور.

وفي «الجواب العتيد»: الدورُ لازمٌ لكن لا مطلقًا، بل بالنسبة إلى كلِّ مطلوب يتوقَّف العلمُ بصدق الرسول ﷺ على العلم به، وذلك لأنَّ النظرَ في الأدلة السمعية إنما يكون طريقاً إلى المعرفة إذا كانت صادقةً عند الناظر فيها، وصدقُها في علم

الناظر موقوفٌ على علمه بأنَّ هذا الذي يدَّعي أنه رسولُ الله الذي جاء بها صادقٌ[1] في دعواه الرسالةَ، وعلمه بذلك موقوفٌ على العلم بأنَّ اللهَ تعالى قد أظهر المُعجزاتِ على يده تصديقًا له في دعواه، وعِلمه بذلك موقوفٌ على العلم بأن ثَمَّت إلهًا على صفةٍ يمكن بها أن يبعثَ رسولًا، ككونه حيًّا عالمًا مُريدًا قادرًا، وهو من معرفة الإله سبحانه، فلو استنفدنا العلم بوجود الله تعالى وبتلك الصفات من الدلائل السمعية الموقوفةِ على صدقِ الرسول عليه الصلاة والسلام لَزِمَ الدور كما ترى.

نعم إذا قيل: إنَّ المُكلَّف بعد ما آمن بالرسول ﷺ واعتقد اعتقادًا جازمًا بصِدْقه في جميع ما جاء به من عند الله تعالى بأيِّ وجه كان ذلك الجزمُ بالضرورة أو بالنظر أو بالتقليد، فله أن يأخذَ عقيدتَه من القرآن من غير تأويل ولا مَيْل من غير أن ينظرَ في دليل عقليٍّ = كان ذلك كلامًا صحيحًا لا غُبارَ عليه، ولا يلزم منه تحصيلٌ للحاصل بالنسبة إلى ما حصله أولًا من المسائل التي يتوقَّف عليها صدقُ الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأنَّ التحصيلَ الثاني من حيث إن الجائي بدلائلها صادقٌ فيها، والتحصيل الأول كان بالنظر العقلي من غير اعتبار صدقِ الرسول عليه الصلاة والسلام، فاختلفت الحيثية، فليفهم، والله تعالى أعلم.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في الدنيا ﴿وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾﴾ في الآخرة، وخصَّ المتقلَّب بالدنيا والمثوَى بالآخرة، لأنَّ كلَّ أحدٍ متحرِّكٌ في الدنيا دائمًا نحو مَعاده غير قارٍّ، وفي الآخرة مُقيمٌ لا حركةَ له نحوَ دارٍ وراءَها. والمرادُ مِن علمه تعالى بذلك تحذيرُهم من جزائه وعقابه سبحانه، أو الترغيب في امتثال ما يأمرهم جلَّ شأنه به والترهيب عمَّا ينهاهم عز وجل عنه على طريق الكناية.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «مُتَقلَّبكم» تصرفكم في حياتكم الدنيا، و«مثواكم» في قبوركم وآخرتكم. وقال عكرمة: «مُتقلَّبكم» في أصلاب الآباء إلى أرحام الأُمَّهات، و«مثواكم» إقامتُكم في الأرض.

---

(١) في الأصل و(م): صادقًا.

وقال الطبري[1]: وغيره: «مُتقلَّبكم» تصرُّفكم في يقظتكم، و«مثواكم» منامكم.

وقيل: «مُتقلَّبكم» في معايشكم ومتاجركم، و«مثواكم» حيث تستقرُّون من منازلِكم. وقيل: «مُتقلَّبكم» في أعمالكم، و«مثواكم» من الجنة والنار.

واختار أبو حيان[2] عمومَهما في كلِّ متقلَّب وفي كلِّ إقامة. ونحوه ما قيل: المرادُ: يعلم جميعَ أحوالكم، فلا يخفى عليه سبحانه شيء منها.

وقرأ ابن عباس: «مُنْقلبكم» بالنون[3].

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ حرصًا على الجهاد لما فيه من الثواب الجزيل، فالمرادُ بهم المؤمنون الصادقون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي: هلَّا أنزلت سورةٌ يُؤمَر فيها بالجهاد، فـ «لولا» تحضيضية.

وعن ابن مالك أن «لا» زائدة، والتقدير: لو أُنزلت سورة. وليس بشيء.

﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ أي: بطريق الأمر به، والمرادُ بـ «محكمة»: مُبيّنة لا تشابه ولا احتمال فيها لوجهٍ آخر سوى وجوب القتال، وفسَّرها الزمخشري[4] بـ: غير منسوخة الأحكام.

وعن قتادة: كلُّ سورة فيها القتال فهي مُحكمة، وهو أشدُّ القرآن على المنافقين، وهذا أمرٌ استقرأه قتادة من القرآن لا بخصوصية هذه الآية، والمُتحقّق أن آياتِ القتال غيرُ منسوخةٍ، وحكمُها باقٍ إلى يوم القيامة. وقيل: مُحكمة بالحلال والحرام.

وقُرئ: «نَزَلت سورةٌ» بالبناء للفاعل من نَزَل الثلاثي المجرَّد، ورفع «سورةٌ» على الفاعل[5].

---

(١) تفسير الطبري ٢١/ ٢٠٩.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٨٠.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٨٠.

(٤) الكشاف ٣/ ٥٣٥ وفسرها الزمخشري بالتفسير الذي ذكره المصنف قبل.

(٥) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٣٥، والقرطبي في تفسيره ١٩/ ٢٧٠.

وقرأ زيد بن عليٍّ: «نزلت» كذلك إلا أنه نصب «سورةً محكمةً»، وخُرِّج ذلك على كون الفاعل ضميرَ السورة، و«سورةً محكمةً» نُصب على الحال. وقرأ هو وابن عُمير: «وذَكَر» مبنيًّا للفاعل، وهو ضميره تعالى، «القتال» بالنصب على أنه مفعول به[١].

﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: نفاق، وقيل: ضَعْفٌ في الدين ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: نظر المُحتَضر الذي لا يطرفُ بصره، والمراد: تشخصُ أبصارُهم جُبنًا وهَلَعًا، وقيل: يفعلون ذلك من شِدَّة العداوة له عليه الصلاة والسلام، وقيل: مِن خشية الفضيحة، فإنهم إنْ تخلَّفوا عن القتال افتضحوا وبانَ نِفاقُهم. وقال الزمخشري: كانوا يدَّعون الحِرصَ على الجهاد ويتمنَّونه بألسنتهم، ويقولون: لولا أُنزلت سورةٌ في معنى الجهاد، فإذا أُنزلت وأُمروا فيها بما تمنَّوا وحَرَصوا عليه كاعوا وشقَّ عليهم وسُقِطَ في أيديهم كقوله تعالى: (فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ)[٢]. والظاهر ما ذكرناه أولًا من أن القائلين هم الذين أخلصوا في إيمانهم، وإنما عرا المنافقين ما عرا عند نزول أمر المؤمنين بالجهاد لدخولهم فيهم بحسب ظاهرِ حالهم. وقد جوَّز هو أيضًا إرادةَ الخُلَّص من الذين آمنوا، لكن كلامه ظاهرٌ في ترجُّح ما ذكره أولًا عنده، والظاهرُ أن في الكلام عليه إقامةَ الظاهر مقامَ المُضمر.

وجوّز أن يكون المطلوب في قوله تعالى: «لولا أُنزلت سورة» إنزال سورة مُطلقًا حيث كانوا يستأنسون بالوحي ويستوحشون إذا أبطأ، ورُوي نحوه عن ابن جُريج. أخرج ابن المنذر عنه أنه قال في الآية: كان المؤمنون يشتاقون إلى كتاب الله تعالى وإلى بيانِ ما ينزلُ عليهم فيه، فإذا نزلت السورةُ يُذكَر فيها القتال رأيتَ يا محمدُ المنافقين ينظرون إليك.. إلخ[٣].

﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ٢٠﴾ تهديدٌ ووعيدٌ على ما رُوي عن غير واحد، وعن أبي عليٍّ أن

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٨١.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٥-٥٣٦.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٦٣.

«أولى» فيه عَلَمٌ لِعَيْنِ الويل مبني على زِنَةِ أفعل من لفظ الويل على القلب، وأصله أَوْيَل، وهو غير منصرف للعلميَّة والوزن، فالكلام مبتدأ وخبر.

واعتُرض بأن الويل غير متصرف فيه، ومثل يوم أَيْوم مع أنه غير مُنقاس لا يُفرد عن الموصوف ألبتة، وأن القلبَ خلافُ الأصل لا يُرتكب إلا بدليل، وأنَّ علمَ الجنس شيء خارجٌ عن القياس مُشكل التعقُّل خاصَّة فيما نحن فيه.

ثم قيل: إن الاشتقاقَ الواضحَ من الوَلْي بمعنى القُرب، كما في قوله:

يُكلِّفني ليلى وقد شطَّ وَلْيُها وعادتْ عوادٍ بيننا وخطوبُ[1]

يُرشد إلى أنه للتفضيل في الأصل غُلِّب في قُرب الهلاك ودعاء السوء، كأنه قيل: هلاكًا أولى لهم، بمعنى: أهلكهم الله تعالى هلاكًا أقربَ لهم من كلِّ شرٍّ وهلاك، وهذا كما غُلِّب: بُعدًا وسُحقًا، في الهلاك، وهو على هذا منصوبٌ على أنه صفةٌ في الأصل لمصدر محذوفٍ، وقد أُقيم مُقامه والجارُّ متعلِّقٌ به. وفي «الصحاح» عن الأصمعي: أَوْلى له: قَاربه ما يُهلكه، أي: نزل به، وأنشد:

فعادى بين هاديتين منها وأولى أن يزيدَ على الثلاث

أي: قارب أن يزيد. قال ثعلب: ولم يقل أحدٌ في: أولى، أحسنَ مما قاله الأصمعي[2]. وعلى هذا هو فعلٌ مُستتر فيه ضمير الهلاك بقرينة السِّياق.

وقريبٌ منه ما قيل: إنه فعلٌ ماضٍ وفاعله ضميرُه عز وجل واللامُ مَزيدة، أي: أَوْلاهم الله تعالى ما يكرهون، أو غير مَزيدة، أي: أدنى الله عز وجل الهلاك لهم، والظاهر زيادةُ اللام على ما سمعت عن الأصمعي، ومَن فسَّره بقرَّبَ جوَّز الأمرين.

وقيل: هو اسمُ فعل، والمعنى: وَلِيهم شرٌّ بعد شرّ.

وقيل: هو فَعْلى من: آلَ، بمعنى رَجَع، لا أفعل من الوَلْي، فهو في الأصل دعاءٌ عليهم بأنْ يرجع أمرُهم إلى الهلاك، والمراد: أهلكهم اللهُ تعالى، إلا أن التركيبَ مبتدأ وخبر.

---

(١) البيت لعلقمة بن عبدة بن النعمان، وهو في المفضليات ص٣٩١.
(٢) الصحاح (ولي)، والشاهد ذكره أيضاً البغدادي في الخزانة ٩/ ٣٤٥.

وقال الرضي: هو علمٌ للوعيد، مِن: وَلِيه الشرُّ، أي: قربه، والتركيب مبتدأ وخبر أيضًا. واستدلَّ بما حكى أبو زيد من قولهم: أولاة ـ بتاء التأنيث ـ على أنه ليس بأفعل تفضيل ولا أفعل فَعْلى، وأنه علمٌ وليس بفعل، ثم قال: بل هو مِثْلُ: أَرْمل وأَرْملة إذا سُمِّي بهما، ولذا لم ينصرف، وليس اسمَ فعل أيضًا بدليل أَولاة في تأنيثه بالرفع، يعني أنه مُعرب، ولو كان اسمَ فعل كان مبنيًّا مثله. وتُعقِّب: بأنه لا مانع من كون أَولاة لفظًا آخرَ بمعناه، فلا يرد من ذلك على قائلي ما تقدَّم أصلًا. وجاء أَوَّل أَفعل تفضيل وظرفًا كـ : قَبل، وسُمِعَ فيه: أَوَّلة، كما نقله أبو حيان(١).

وقيل: الأحسن كونه أفعل تفضيل بمعنى أَحقُّ وأَحرى، وهو خبرٌ لمبتدأ محذوف يُقدَّر في كلِّ مقام بما يَليق به، والتقدير هاهنا: العقابُ أَولى لهم، ورُوي ذلك عن قتادة، ومال إلى هذا القول ابنُ عطية(٢).

وعلى جميع الأقوال قوله تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ كلامٌ مستقلٌّ محذوفٌ منه أحدُ الجزأين، إما الخبر وتقدِيره: خيرٌ لهم، أو: أمثل، وهو قول مجاهد ومذهب سيبويه(٣) والخليل، وإما المبتدأ، وتقديره: الأمرُ ـ أو: أَمرُنا ـ طاعةٌ، أي: الأمر المرضي لله تعالى طاعةٌ. وقيل: أي: أمرُهم طاعةٌ معروفة وقولٌ معروف، أي: معلومٌ حالُه أنه خديعة. وقيل: هو حكايةُ قولهم قبلَ الأمر بالجهاد، أي: قالوا: أمرُنا طاعةٌ، ويشهد له قراءة أُبيٍّ: «يقولون طاعة وقول معروف»(٤).

وذهب بعضٌ إلى أن «أولى» أفعل تفضيل مبتدأ، و«لهم» صِلته، واللام بمعنى الباء، «وطاعة» خبرٌ، كأنه قيل: فأَولى بهم من النظر إليك نظرَ المَغشيِّ عليه من الموت طاعةٌ وقولٌ معروف، وعليه لا يكون كلاماً مستقلًّا، ولا يُوقَف على «لهم».

ومما لا ينبغي أن يُلتفتَ إليه ما قيل: إن «طاعة» صفة لسورة في قوله تعالى:

---

(١) كما في حاشية الشهاب ٨/ ٤٨.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١١٧.
(٣) الكتاب ١/ ١٤١ و٢/ ١٣٦.
(٤) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٣٦، والقرطبي في تفسيره ١٩/ ٢٧١.

«فإذا أُنزلت سورة» والمرادُ: ذات طاعة، أو: مُطاعة. وتعقَّبه أبو حيان(١) بأنه ليس بشيء لحيلولة الفَصْل الكثير بين الصفة والموصوف.

﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: جدَّ، والجِدُّ ـ أي: الاجتهاد ـ لأصحاب الأمر، إلا أنه أُسند إليه مجازاً، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧] ومنه قول الشاعر:

قـد جَـدَّت الـحـرب بـكـم فـجـدُّوا(٢)

والظاهرُ أن جوابَ «إذا» قوله تعالى: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وهو العاملُ فيها، ولا يضرُّ اقترانُه بالفاء ولا تمنع من عمل ما بعدَها فيما قبلها في مثله كما صرَّحوا به، وهذا نحو: إذا جاء الشتاء فلو جئتني لكسوتك.

وقيل: الجوابُ محذوفٌ تقديرُه: «فإذا عَزَمَ الأمر» كرهوا، أو نحو ذلك، قاله قتادة.

وفي «البحر»(٣): مَنْ حَمَلَ «طاعةٌ وقولٌ معروفٌ» على أنهم يقولون ذلك خديعةً، قدَّر: فإذا عزم الأمر ناقضوا وتعاصَوْا. ولعلَّ مَنْ يجعل القولَ السابقَ للمؤمنين في ظاهر الحال، وهم المنافقون، جوَّز هذا التقدير أيضاً، وقدَّر بعضهم الجوابَ: فاصدُقْ، وهو كما ترى. وأيًّا ما كان، فالمراد: فلو صَدَقوا الله فيما زعموا من الحرص على الجهاد، ولعلَّهم أظهروا الحرصَ عليه كالمؤمنين الصادقين. وقيل: في قولهم: «طاعة وقول معروف»، وقيل: في إيمانهم ﴿لَكَانَ﴾ أي: الصدق ﴿خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ مما ارتكبوه، وهذا مبنيٌّ على ما في زَعْمهم من أنَّ فيه خيراً، وإلا فهو في نفس الأمر لا خيرَ فيه.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ خطابٌ لأولئك الذين في قلوبهم مرضٌ بطريق الالتفات لتأكيدِ

(١) البحر المحيط ٨/ ٨٢.
(٢) الرجز في الكامل للمبرد ٢/ ٤٩٤، وقد تمثل به الحجاج في خطبته لأهل الكوفة، وقبله:
قـد شـمَّـرت عـن سـاقـهـا فـشـدُّوا وجـدَّت الـحـرب . . . .
(٣) البحر المحيط ٨/ ٨٢.

التوبيخ وتشديد التقريع، و«هل» للاستفهام، والأصل فيه أن يدخلَ [على][1] الخبر للسؤال عن مضمونه، والإنشاء الموضوع له «عسى» ما دلَّ عليه هنا بالخبر، أي: فهل يُتوقَّع منكم ويُنتظَر ﴿إِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ أمورَ الناس وتأمَّرتم عليهم، فهو من الولاية، والمفعول به محذوف. ورُوي ذلك عن محمد بن كعب وأبي العالية والكلبي ﴿أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢﴾ تناحُرًا على الولاية وتكالبًا على جيفة الدنيا.

والمتوقِّع كلُّ من يقفُ على حالهم إلا الله عز وجل؛ إذْ لا يصحُّ منه سبحانه ذلك، والاستفهام أيضًا بالنسبة إلى غيره جل وعلا، فالمعنى: إنكم لِمَا عُهد منكم من الأحوال الدالَّة على الحرص على الدنيا حيث أُمرتم بالجهاد الذي هو وسيلةٌ إلى ثوابِ الله تعالى العظيم فكرهتموه، وظهرَ عليكم ما ظهر أحقَّاءُ بأن يقول لكم كلُّ مَنْ ذاقكم وعَرَفَ حالَكم: يا هؤلاء ما تَرونَ هل يُتوقَّع منكم إن تولَّيتم أن تُفسدوا في الأرض.. إلخ.

وفسَّر بعضُهم التولِّي بالإعراضِ عن الإسلام، فالفعل لازمٌ، أي: فهل عسيتم إنْ أَعرضتُم عن الإسلام أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الإفساد في الأرض بالتغاوُر والتناهُب وقطع الأرحام بمقاتلة بعض الأقارب بعضًا، ووأد البنات.

وتُعقِّب بأنَّ الواقع في حيِّز الشرط في مثل هذا المقام لا بدَّ أن تكون محذوريَّته باعتبار ما يتبعه من المفاسد لا باعتبار ذاته، ولا ريبَ في أن الإعراضَ عن الإسلام رأسُ كلِّ شرٍّ وفساد، فحقُّه أن يُجعلَ عُمدةً في التوبيخ، لا وسيلة للتوبيخ بما دونه من المفاسد.

ويُؤيِّد الأول قراءةُ بعض: «وُلِّيتم» مَبنيًّا للمفعول[2]، وكذا قراءته عليه الصلاة والسلام على ما ذُكر في «البحر»، ورُويت عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه ورُويس

(١) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٨/ ٤٨.
(٢) المحتسب ٢/ ٢٧٢، والبحر المحيط ٨/ ٨٢.

ويعقوب: «تُوُلِّيتم» بالبناء للمفعول أيضًا[1]، بناءً على أنَّ المعنى: تولَّاكم الناسُ واجتمعوا على مُوالاتكم، والمرادُ: كنتم فيهم حُكَّامًا، وقيل: المعنى: تولَّاكم ولاةٌ غشمةٌ خرجتم معهم ومَشيتم تحت لوائهم، وأَفسدتم بإفسادهم.

واستظهر أبو حيان[2] تفسيره بالإعراض، إلا أنه قال: المعنى: إن أعرضتم عن امتثال أمر الله تعالى في القتال أن تفسدوا في الأرض بعدم مَعونةِ أهل الإسلام على أعدائهم وتقطِّعوا أَرحامَكم، لأنَّ من أرحامكم كثيرًا من المسلمين، فإذا لم تُعينوهم قطعتم ما بينكم وبينهم من الرَّحِم.

وتُعقِّب بأنَّ حملَ الإفساد على الإفساد بعدم المَعونة فيه خَفاء، وكذا الإتيان بـ «إنْ» عليه دون «إذا» من حيث إنَّ الإعراضَ عن امتثال أمر الله تعالى في القتال كالمُحقَّق من أولئك المنافقين، فتأمل.

و«أن تفسدوا» خبر «عسى»، و«إن توليتم» اعتراضٌ، وجوابُ «إنْ» محذوفٌ يدلُّ عليه ما قبله.

وزعم بعضُهم أن الأظهرَ جعل «إن تولَّيتم» حالًا مقدرة، وفيه أن الشرطَ بدون الجواب لم يُعهد وقوعُه حالًا في غير «إن» الوصلية، وهي لا تُفارق الواو.

وإلحاق الضمائر بـ «عسى» كما في سائر الأفعال المتصرِّفة لغةُ أهل الحجاز، وبنو تميم لا يُلحقونها به ويلتزمون دخولَه على «أنْ» والفعل، فيقولون: الزيدان عسى أَنْ يقوما، والزيدون عسى أن يقوموا. وذكر الإمام[3] هاتين اللغتين ثم قال: وأما قول مَنْ قال: عسى أنت تقوم، وعسى أنا أَقومُ، فدون ما ذكرنا للتطويل الذي فيه، فإن كان مقصودُه حكايةَ لغةٍ ثالثة هي انفصال الضمير، فنحن لا نعلم أحدًا مِن نَقَلَةِ اللسان العربيِّ ذَكَرها، وإنْ كان غيرَ ذلك فليس فيه كثيرُ جدوى.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٤٠، والمحتسب ٢/ ٢٧٢، وتفسير القرطبي ١٩/ ٢٧٤، والبحر المحيط ٨/ ٨٢، وقراءة يعقوب من رواية رويس في النشر ٢/ ٣٧٤ وهي من العشرة.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٨٢.

(٣) تفسير الرازي ٢٨/ ٦٣-٦٤.

وقرأ نافع: «عَسِيتم» بكسر السين المُهملة[١]، وهو غريب.

وقرأ أبو عمرو[٢] - في رواية - وسلام ويعقوب وأبان وعِصمة: «تَقْطَعوا» بالتخفيف مضارع قطع، والحسن: «تَقَطَّعوا» بفتح التاء والقاف وشدِّ الطاء، وأصله: تتقطَّعوا بتاءين حُذفت إحداهما، ونصبوا «أرحامَكم» على إسقاط الحرف[٣]، أي: في أرحامكم لأنَّ تقطَّع لازم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المُخاطَبين بطريق الالتفات إيذانًا بأنَّ ذِكر هناتهم أوجب إسقاطهم عن درجة الخطاب، ولو على جهة التوبيخ وحكاية أقوالهم الفظيعة لغيرهم، وهو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: أبعدهم من رحمته عز وجل ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن استماع الحقِّ لتصامِّهم عنه لسوء اختيارهم ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ لتعاميهم عمَّا يُشاهدونه من الآيات المنصوبة في الأنفس والآفاق.

وجاء التركيب «فأَصمَّهم» ولم يأتِ: فأصمَّ آذانَهم، كما جاء: «وأعمى أبصارهم»، أو: أعماهم، كما جاء: «فأصمهم»، قيل: لأنَّ الأذن لو أُصيبت بقَطْع أو قَلْع لَسُمِعَ الكلام فلم يحتج إلى ذكر الأذن، والبصر وهو العين لو أصيب لامتنع الإبصار، فالعين لها مدخلٌ في الرؤية، والأذن لا مدخلَ لها في السمع. انتهى. وهو كما ترى.

وقال الخفاجي[٤]: لأنه إذا ذُكر الصَّمَم لم يبقَ حاجةٌ إلى ذِكْر الآذان، وأما العمى فَلشيوعه في البصر والبصيرة حتى قيل: إنه حقيقةٌ فيهما، وهو ظاهر ما في «القاموس»[٥]، فإذا كان المرادُ أحدَهما حَسُنَ تقييدُه.

وقيل في وجه ذلك بناءً على كون العمى حقيقة فيما كان في البصر: إنَّ نحو:

---

(١) التيسير ص٨١، والنشر ٢/ ٢٣٠.
(٢) وهي غير المشهورة عنه.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٨٢، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٧٤.
(٤) حاشية الشهاب ٨/ ٤٨.
(٥) القاموس المحيط (عمي).

أعمى اللهُ أبصارَهم، بحسب الظاهر من باب: أبصرته بعيني، وهو يقال في مقامٍ يحتاج إلى التأكيد، ولما كان أولئك الذين حكى حالهم في أمرِ الجهاد غيرَ ظاهرٍ إعماؤهم ظهورَ إصمامهم، كيف وفي الآيات السابقة ما يُؤذن بعدم انتفاعهم بالمسموع من القرآن، وهو من آثار إصمامهم، وليس فيها ما يُؤذن بعدم انتفاعهم بالآيات المرئية المنصوبة في الأنفس والآفاق الذي هو من آثار إعمائهم = ناسب أن يسلكَ في كلٍّ من الجملتين ما سلك، مع ما في سلوكه في الأخير من رعاية الفواصل، وهو أدقُّ مما قبل.

هذا، والأرحام جمعُ: رَحِم - بفتح الراء وكسر الحاء - وهي على ما في «القاموس»[1] - القرابة، أو أصلُها وأسبابُها، وقال الراغبُ: الرَّحِم: رَحِم المرأة، أي: بيت مَنْبِت وَلَدِها ووِعاؤه، ومنه استُعير الرَّحِم للقرابة، لكونهم خارجين من رَحِم واحدة[2]. ويقال للأقارب: ذَوُو رحم، كما يقال لهم: أرحام. وقد صرَّح ابنُ الأثير بأنَّ ذا الرحم يقع على كلِّ من يجمع بينك وبينه نسبٌ، ويُطلق في الفرائض على الأقارب من جِهة النساء[3]. والمذكور في كتبها تفسيره بكلِّ قَريب ليس بذي سهم ولا عَصَبة، وعدُّوا مِن ذلك أولادَ الأخوات لأبوين أو لأب، وعمَّاتِ الآباء.

وظاهرُ كلام الأئمة في قوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ مَلَكَ ذا رَحِمٍ مَحْرم فهو حُرٌّ»[4] دخولُ الأبوين والولد في ذي الرحم لغةً، حيث أجمعوا على أنهم يَعتِقون على مَنْ مَلَكهم لهذا الخبر، وإن اختلفوا في عتق غيرهم. وصرَّح ابن حجر الهيتمي في «الزواجر»[5] بأن الأولاد من الأرحام، وظاهرُ عطف الأقربين على

(١) القاموس المحيط (رحم).
(٢) المفردات (رحم).
(٣) النهاية في غريب الحديث (رحم).
(٤) أخرجه أحمد (٢٠١٦٧)، وأبو داود (٣٩٤٩)، والترمذي (١٣٦٥) من حديث سمرة بن جندب ﷺ.
(٥) ٢/ ٧٤.

الوالدَين في الآية[١] يقتضي عدمَ دخولهما في الأقارب، فلا يدخلون في الأرحام لأنهم كما قالوا الأقارب. وكلام فقهائنا نصٌّ في عدمِ دخول الوالدَين والولد في ذلك حيث قالوا: إذا أوصى لأقاربه أو لِذَوي قرابته أو لأرحامه فهي للأقرب فالأقرب من كلِّ ذي رَحِم مَحْرم، ولا يدخل الوالدان والولد.

وأما الجدُّ ووَلَدُ الولد فنقل أبو السعود عن العلَّامة قاسم عن «البدائع»[٢] أن الصحيحَ عدمُ دخولهما، واختاره في «الاختيار»[٣]، وعلَّله بأن القريبَ من يتقرَّب إلى غيره بواسطة غيره وتكون الجزئية بينهما مُنعدِمة، وشرح الحموي أنَّ دخولَهما هو الأصحُّ. وفي «متن المواهب»: وأدخل ـ أي: محمد ـ الجدَّ والحَفَدة، وهو الظاهر عنهما، وذكر أنَّ مثلَ الجدِّ الجدَّةُ.

وقد يقال: إنَّ عدمَ دخول الوالدين والولد في ذلك، وكذا الجدّ والحَفَدة عند من يقول بعدمِ دخولهم، ليس لأنَّ اللفظَ لا يصدقُ عليهم لغةً، بل لأنه لا يصدقُ عليهم عُرفًا، وهم اعتبروا العُرفَ كما قال الطحطاوي في أكثرِ مسائل الوصية. وفي «جامع الفصولين»[٤]: إنَّ مطلقَ الكلام فيما بين الناس ينصرف إلى المُتعارَف، وما ذكره في «المعراج»[٥] من خبر: من سمَّى والده قريبًا عقَّه[٦]، لا يدلُّ على أنه ليس قريبًا لغةً، بل هو بيانُ حكم شرعيٍّ مَبناهُ أن في ذلك إيذاءً للوالد وحطًّا من قَدْره عُرفًا، وهذا كما لو ناداه باسمه وكان يَكره ذلك.

---

(١) كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ٢١٥]. وقوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٧].

(٢) بدائع الصنائع ١٠/ ٥١٦.

(٣) الاختيار لتعليل المختار ٢/ ٥٣٩.

(٤) لابن قاضي سيماوتة. المتوفى سنة (٨٢٣هـ)، وهو كتاب مشهور متداول لكونه في المعاملات خاصة. كشف الظنون ١/ ٥٦٦.

(٥) هو كتاب معراج الدراية، أحد شروح الهداية، لمحمد الكاكي الحنفي، المتوفى سنة (٧٤٩هـ). كشف الظنون ٢/ ٢٠٣٣.

(٦) ونقله عنه ابن عابدين في حاشيته ٦/ ٦٨٦، ولم نقف على الخبر مسنداً.

وأمرُ العطف في الآية الكريمة سهلٌ لجواز عطفِ العامِّ على الخاصِّ، كعطف الخاصِّ على العامِّ، فالذي يترجَّح عندي أنَّ الأرحامَ كما صرَّحوا به الأقاربُ بالقرابة الغير السببية، والمراد بهم ما يُقابل الأجانب، ويدخلُ فيهم الأصولُ والفروع والحواشي من قِبل الأب أو من قِبل الأمِّ، وحُرمة قَطْعِ كلٍّ لا شكَّ فيها لأنه ـ على ما قلنا ـ رَحِم، والآيةُ ظاهرةٌ في حرمة قطع الرحم. وحكى القرطبي في «تفسيره»[1] اتفاقَ الأمة على حرمةِ قَطْعها ووجوب صِلتها، ولا ينبغي التوقُّف في كون القطع كبيرة، والعجبُ من الرافعي عليه الرحمة كيف توقَّف في قول صاحب «الشامل»: إنه من الكبائر، وكذا تقرير النووي ـ قُدِّس سِرُّه ـ له على توقُّفه[2].

واختلف في المراد بالقطيعة؛ فقال أبو زرعة: ينبغي أن تختصَّ بالإساءة، وقال غيره: هي ترك الإحسان ولو بدون إساءة؛ لأن الأحاديث آمرةٌ بالصلة ناهية عن القطيعة ولا واسطةَ بينهما، والصلة إيصالُ نوع من أنواع الإحسان كما فسَّرها بذلك غيرُ واحد، فالقطيعة ضدُّها، فهي ترك الإحسان. ونظر فيه الهيتمي[3] بناءً على تفسير العقوق بأنْ يَفعل مع أحدِ أبويه ما لو فعله مع أجنبيٍّ كان محرَّمًا صغيرةً، فينتقل بالنسبة إلى أحدهما كبيرةً، وأن الأبوين أعظمُ من بقية الأقارب، ثم قال: فالذي يتَّجه ليوافق كلامهم وفرقهم بين العقوق وقطع الرحم أنَّ المرادَ بالأول أن يفعلَ مع أحدِ الأبوين ما يتأذَّى به، فإن كان التأذِّي ليس بالهيِّن عُرفًا كان كبيرةً وإنْ لم يكن مُحرَّمًا لو فعله مع الغير. وبالثاني قطعُ ما ألِفَ القريبُ منه من سابق الوصلة والإحسان بغير عُذر شرعي؛ لأن قطعَ ذلك يُؤدِّي إلى إيحاش القلوب وتأذِّيها، فلو فرضَ أن قريبَه لم يصل إليه إحسانٌ ولا إساءة قطُّ لم يفسقْ بذلك؛ لأنَّ الأبوين إذا فُرض ذلك في حقِّهما من غير أن يفعلَ معهما ما يقتضي التأذِّي العظيم ـ لغناهما مثلًا ـ لم يكن كبيرة فأَولى بقية الأقارب؛ ولو فرض أنَّ الإنسانَ لم يقطع عن قريبه ما أَلِفه منه من الإحسان لكنه فعل معه مُحرَّمًا صغيرة، أو قطَّب في وجهه، أو لم

(1) ٦/ ١٤.

(2) الزواجر عن اقتراف الكبائر ٢/ ٧٣.

(3) في الزواجر ٢/ ٧٣، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

يَقُمْ له في مَلَأ ولا عَبأ به، لم يكن ذلك فسقًا، بخلافه مع أحد الأبوين، لأن تأكُّد حقِّهما اقتضى أن يتميزا على بقية الأقاربِ بما لا يُوجد نظيرُه فيهم.

وعلى ضبط الثاني بما ذكرته فلا فرق بين أن يكون الإحسانُ الذي أَلِفَه منه قريبُه مالًا أو مُكاتبةً أو مُراسلةً أو زيارة أو غير ذلك، فقطع ذلك كلّه ـ بعد فعله ـ لغير عذر كبيرةٌ، وينبغي أن يُراد بالعذر في المال فَقْدُ ما كان يصله به، أو تجدّد احتياجه إليه، أو أن يندبه الشارعُ إلى تقديم غير القريب عليه لكونه أحوجَ أو أصلحَ، فعدم الإحسان إلى القريب أو تقديمُ الأجنبي عليه لهذا العذر يرفع عنه [الفسق] وإن انقطع بسبب ذلك ما أَلِفَه منه القريبُ؛ لأنه إنما راعى أمرَ الشارع بتقديم الأجنبيِّ عليه. وواضحٌ أن القريبَ لو أَلِفَ منه قَدْراً معيَّنًا من المال يُعطيه إياه كلَّ سنة مثلًا فَنَقَصه لا يفسق بذلك، بخلاف ما لو قَطَعه من أصله لغير عُذْر.

وأما عُذر الزيارة فينبغي ضبطُه بعذر الجمعة لجامع أنَّ كلًّا فرضُ عين، وتركُه كبيرة. وأما عُذر ترك المُكاتبة والمُراسلة فهو أن لا يَجِدَ من يَثِقُ به في أداء ما يُرسله معه. والظاهرُ أنه إذا ترك الزيارةَ التي أُلِفَتْ منه في وقتٍ مخصوصٍ لعُذر لا يلزمه قضاؤها في غير ذلك الوقت.

والأولاد والأعمام من الأرحام، وكذا الخالة، فيأتي فيهم وفيها ما تقرَّر من الفَرْق بين قَطْعهم وعقوقِ الوالدين، وأما قول الزركشي: صحَّ في الحديث أنَّ: «الخالة بمنزلة الأم»[1] و: «أنَّ عَمَّ الرجل صنوُ أبيه»[2]، وقضيتهما أنهما مثلُ الأب والأمِّ حتى في العقوق = فبعيدٌ جدًّا، ويكفي مُشابَهتهما في أمرٍ ما كالحضانة تَثبتُ للخالةِ كما تثبتُ للأمِّ، وكذا المَحْرميَّة، وكالإكرام في العمِّ والمَحْرميَّة وغيرهما مما ذكر. انتهى المراد منه.

ولو قيل: إنَّ الصغيرةَ تُعَدُّ كبيرةً لو فُعلت مع القريبِ لكنها دون ما لو فُعلت مع أحدِ الأبوين، لم يبعدْ عندي لِتفاوتِ قُبحِ السيئات بحسب الإضافات، بل لا يبعدُ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٩) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٧٢٥) من حديث علي رضي الله عنه مطولًا.

على هذا أن يكون قبحُ قَطع الرحم متفاوتاً باعتبار الشخص القاطع وباعتبار الشخص المقطوع، ومتى سُلِّم التفاوت فليُقَلْ به في العقوق، ويكون عقوقُ الأمِّ أقبحَ من عقوق الأب، وكذا عقوقُ الولدِ الذي يعبأ به أقبح من عقوق الولدِ الذي لا يعبأ به، ويتفرَّع من ذلك ما يتفرَّع مما لا يخفى على فقيه.

واستدلَّ بالآية عمرُ بن الخطاب ﷺ على منع بيعِ أمِّ الولد؛ روى الحاكم في «المستدرك» - وصحَّحه - وابن المنذر عن بُريدة قال: كنتُ جالسًا عند عمر إذ سمع صائحًا فسأل فقيل: جاريةٌ من قريش تباعُ أُمُّها. فأرسل يدعو المهاجرين والأنصارَ، فلم تمضِ ساعةٌ حتى امتلأت الدارُ والحُجرة، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: أما بعدُ، فهل تعلمونه كان مما جاء به محمدٌ ﷺ القطيعة، قالوا: لا، قال: فإنها قد أصبحَتْ فيكم فاشيةً، ثم قرأ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ ثم قال: وأيُّ قطيعةٍ أقطعُ من أنْ تُباع أُمُّ امرئ فيكم؟! قالوا: فاصنَعْ ما بدا لك. فكتب في الآفاقِ أنْ لا تُباعَ أُمُّ حُرٍّ، فإنها قطيعةُ رحم، وأنه لا يحلُّ(1).

واستدلَّ بها أيضًا على جوازِ لعن يزيدَ عليه من الله تعالى ما يستحقُّ، نقل البرزنجي في «الإشاعة» والهيتمي في «الصواعق» أن الإمام أحمد لما سأله ولدُه عبد الله عن لعن يزيدَ، قال: كيف لا يُلعن مَنْ لَعَنه الله تعالى في كتابه، فقال عبد الله: قد قرأتُ كتابَ الله عز وجل فلم أجِدْ فيه لعنَ يزيد؟! فقال الإمام: إن الله تعالى يقول: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۞ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ الآية، وأيُّ فسادٍ وقطيعة أشدُّ مما فعله يزيد(2)؟! انتهى.

وهو مبنيٌّ على جواز لعنِ العاصي المُعيَّن من جماعة لُعنوا بالوصف، وفي ذلك خلافٌ، فالجمهور على أنه لا يجوز لعنُ المُعيَّن فاسقًا كان أو ذميًا، حيًّا كان أو ميتًا ولم يُعلم موته على الكفر، لاحتمال أن يُختَم له أو خُتِمَ له بالإسلام، بخلاف من عُلم موته على الكفر كأبي جهل.

---

(1) المستدرك ٢/ ٤٥٨.

(2) الصواعق المحرقة ص٢٢٢.

وذهب شيخ الإسلام السراج البُلقيني إلى جواز لعنِ العاصي المُعيَّن لحديث «الصحيحين»: «إذا دعا الرجل امرأتَه إلى فراشِه فأبَتْ أن تجيءَ فباتَ غضبانَ، لعنتها الملائكةُ حتى تُصبح» وفي رواية: «إذا باتَتِ المرأة مهاجرةً فراشَ زوجها لعنتها الملائكةُ حتى تصبحَ»(١). واحتمالُ أن يكون لعنُ الملائكةِ عليهم السلام إياها ليس بالخصوص بل بالعموم، بأن يقولوا: لعنَ اللهُ من باتَتْ مهاجرةً فراشَ زوجها = بعيدٌ، وإنْ بحثَ به معه ولده الجلال البُلقيني.

وفي «الزواجر»: لو استدلَّ لذلك بخبر مسلم: أنه ﷺ مَرَّ بحمار وُسِمَ في وجهه فقال: «لَعَنَ اللهُ مَنْ فعلَ هذا»(٢) لكان أظهرَ، إذ الإشارةُ بهذا صريحةٌ في لعنِ مُعَيَّن إلا أن يؤوَّل بأن المراد الجنس، وفيه ما فيه(٣). انتهى.

وعلى هذا القول لا توقُّفَ في لعن يزيدَ لِكَثْرَةِ أوصافه الخبيثة وارتكابِهِ الكبائر في جميعِ أيام تكليفهِ، ويكفي ما فعله أيامَ استيلائه بأهل المدينةِ ومكةَ، فقد روى الطبراني بسند حسن: «اللَّهمَّ مَنْ ظَلَم أهلَ المدينة وأخافهم فأَخِفه، وعليه لعنةُ الله والملائكة والناسِ أجمعين، لا يُقبل منه صَرْفٌ ولا عَدْل»(٤) والطامَّةُ الكبرى ما فعله بأهل البيت ورضاهُ بقتل الحسين على جدِّه وعليه الصلاة والسلام، واستبشاره بذلك، وإهانته لأهل بيته مما تواتر معناه وإنْ كانَتْ تفاصيلُه آحادًا، وفي الحديث: «ستةٌ لعنتهم - وفي رواية لعنهم اللهُ وكلُّ نبيٍّ مُجاب الدعوة -: المُحرِّف لكتاب الله - وفي رواية: الزائدُ في كتاب الله - والمُكذِّب بقَدَر الله، والمُتسلِّط بالجبروت لِيُعزَّ مَنْ أذلَّ الله ويُذِلَّ من أعزَّ الله، [والمستحلُّ لحرم الله] والمُستحلُّ من عِتْرتي، والتارك لِسُنَّتي»(٥).

(١) أخرجه أحمد (٩٦٧١)، والبخاري (٣٢٣٧)، ومسلم (١٤٣٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. والرواية الثانية عند البخاري (٥١٩٤).
(٢) صحيح مسلم (٢١١٧) من حديث جابر رضي الله عنه، وهو في مسند أحمد (١٤١٦٤).
(٣) الزواجر ٢/٥٦.
(٤) المعجم الكبير (٦٦٣٦) من حديث السائب بن خلاد.
(٥) أخرجه الترمذي (٢١٥٤) من حديث عائشة رضي الله عنها، وما بين حاصرتين منه، وذكر أن الأصحَّ عن علي بن حسين عن النبي ﷺ مرسلاً.

وقد جزم بكفره وصرَّح بلَعْنه جماعةٌ من العلماء منهم الحافظُ ناصرُ السنة ابن الجوزي، وسبقه القاضي أبو يعلى. وقال العلامة التفتازاني: لا تَوقُّفَ في شأنه بل في إيمانه، لعنة الله تعالى عليه وعلى أنصاره وأعوانه(١). وممن صرَّح بلعنه الجلالُ السيوطي عليه الرحمة.

وفي «تاريخ ابن الوردي» وكتاب «الوافي بالوَفَيات»(٢) أن السبي لما وردَ من العراق على يزيدَ، خرج فلقي الأطفالَ والنساء من ذُرِّية عليٍّ والحسين ﷺ والرؤوس على أطرافِ الرِّماح وقد أَشرفوا على ثنية جيرون، فلما رآهم نعب غراب فأنشأ يقول:

لما بَدَتْ تلك الحمولُ وأشرقَتْ ... تلك الرؤوس على شفا جيرونِ

نَعَبَ الغرابُ فقلت قل أو لا تقل ... فقد اقتضيت من الرسول ديوني

يعني أنه قتلَ بمن قتلَه رسولُ الله ﷺ يومَ بدر كجدِّه عُتبة وخالهِ ولد عُتبة وغيرهما. وهذا كفرٌ صريحٌ، فإذا صحَّ عنه فقد كفرَ به، ومثلُه تمثُّله بقول عبد الله بن الزِّبعرى قبلَ إسلامه:

ليتَ أشياخي............ الأبيات(٣)

وأفتى الغزالي(٤) عفا الله عنه بحرمة لَعْنه، وتعقَّب السفارينيُّ من الحنابلة نَقْلَ البرزنجي والهيتمي السابق عن أحمد رحمه الله تعالى، فقال: المحفوظُ عن الإمام أحمد خلافُ ما نَقَلا، ففي «الفروع» ما نصُّه: ومن أصحابنا من أخرجَ الحجَّاج عن الإسلام، فيتوجَّه عليه يزيدُ ونحوه، ونصُّ أحمدَ خلافُ ذلك، وعليه الأصحاب.

---

(١) ونقله عنه المناوي في الفيض ٣/ ٨٤.

(٢) وكذا ذكر الرحيباني في مطالب أولي النهي، فصل: تلزم السيد نفقة وكسوة وسكنى عرفاً، وعبارته فيه: قال الوافي في الوفيات: إن السبي... إلخ. والأبيات التي سترد قريباً مذكورة فيه، وكذا ما بعدها من الكلام. ولم نقف عليه في الوافي بالوفيات للصفدي.

(٣) أبيات ابن الزبعرى في السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٣٦، وهذا البيت بتمامه:

ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل

(٤) إحياء علوم الدين ٣/ ١٢٤.

ولا يجوز التخصيصُ باللعنة، خلافًا لأبي الحسين وابن الجوزي وغيرهما، وقال شيخ الإسلام ـ يعني ـ والله تعالى أعلم ـ ابن تيمية ـ: ظاهرُ كلام أحمد الكراهة[١].

قلت: والمختارُ ما ذهب إليه ابنُ الجوزي وأبو حسين القاضي[٢] ومَنْ وافقهما. انتهى كلام السفاريني. وأبو بكر بن العربي المالكي عليه من الله تعالى ما يستحقُّ أعظمَ الفِرْيَة، فزعمَ أنَّ الحسينَ قُتل بسيف جدِّه ﷺ[٣]، وله من الجَهلَةِ موافقون على ذلك ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

قال ابنُ الجوزي عليه الرحمة في كتابه «السر المصون»: من الاعتقادات العامة التي غَلبت على جماعة مُنتسبين إلى السنة أن يقولوا: إن يزيدَ كان على الصواب، وإنَّ الحسينَ ﷺ أخطأ في الخروج عليه، ولو نظروا في السير لعلموا كيف عُقدت له البيعة وألزم الناس بها، ولقد فعل في ذلك كلَّ قبيح، ثم لو قدَّرنا صحة عَقْد البيعة فقد بَدَتْ منه بوادٍ كلُّها تُوجب فسخ العقد، ولا يميل إلى ذلك إلا كلُّ جاهل عاميِّ المذهب يظن أنه يُغِيظُ الرافضة.

هذا، ويعلم من جميع ما ذكره اختلاف الناس في أمره؛ فمنهم من يقول: هو مسلمٌ عاصٍ بما صدر منه مع العِتْرة الطاهرة، لكن لا يجوز لعنه، ومنهم من يقول: هو كذلك ويجوز لعنه، مع الكراهة أو بدونها، ومنهم من يقول: هو كافر ملعون، ومنهم من يقول: إنه لم يعصِ بذلك، ولا يجوز لعنه، وقائلُ هذا ينبغي أن يُنظَم في سلسلة أنصار يزيد.

وأنا أقول: الذي يغلبُ على ظني أن الخبيثَ لم يكن مُصدقًا برسالةِ النبيِّ ﷺ وأنَّ مجموعَ ما فعل مع أهلِ حَرَمِ الله تعالى وأهلِ حَرَم نبيِّه عليه الصلاة والسلام وعِتْرته الطَّيبين الطاهرين في الحياة وبعد الممات وما صَدَر منه من المَخازي ليس بأضعف دلالة على عدم تصديقه من إلقاء ورقةٍ من المصحف الشريف في قَذَر،

(١) الفروع لابن مفلح ١٠/ ١٩٠، وكلام شيخه ابن تيمية في كتابه منهاج السنة النبوية ٢/ ٢٥٢.
(٢) الذي ذكره المصنف آنفاً هو: القاضي أبو يعلى. وهو أبو أبي الحسين القاضي، المذكور هنا، ولعل الأب والابن قالا بالتصريح بلعن يزيد.
(٣) العواصم من القواصم ص٢٣٢ (القسم الذي حقَّقه محب الدين الخطيب).

ولا أظن أنَّ أمرَه كان خافيًا على أَجِلَّة المسلمين إذ ذاك، ولكن كانوا مَغْلوبين مقهورين لم يَسَعهم إلا الصبر ليقضي اللهُ أمراً كان مفعولًا، ولو سُلِّم أن الخبيثَ كان مسلمًا فهو مسلمٌ جمع من الكبائر ما لا يُحيط به نِطاق البيان، وأنا أذهبُ إلى جوازِ لَعْن مثله على التعيين، ولو لم يُتَصَوَّر أن يكون له مِثْلٌ من الفاسقين، والظاهرُ أنه لم يَتُبْ، واحتمالُ توبتهِ أضعفُ من إيمانه، ويلحقُ به ابنُ زياد وابن سعد[1] وجماعةٌ، فلعنةُ الله عز وجل عليهم أجمعين، وعلى أنصارهم وأعوانهم وشِيعتهم ومن مال إليهم إلى يوم الدين ما دَمَعَتْ عينٌ على أبي عبد الله الحسين، ويُعجبني قولُ شاعرِ العصر ذو الفضل الجلي عبد الباقي أفندي العمري الموصلي[2] وقد سُئل عن لَعْنِ يزيد اللعين:

يـزيـد عـلـى لـعـنـي عـريـض جـنـابـه فأغدو به طول المدى ألعن اللعنا

ومَنْ كان يخشى القال والقيل من التصريح بلعن ذلك الضلِّيل فليقل: لعنَ اللهُ عز وجل مَنْ رضي بقتل الحسين ومَنْ آذى عِتْرَةَ النبيِّ ﷺ بغيرِ حقٍّ ومَنْ غَصَبهم حَقَّهم، فإنه يكون لاعنًا له لدخوله تحت العموم دخولًا أوَّليًّا في نفس الأمر، ولا يُخالِفُ أحدٌ في جواز اللعن بهذه الألفاظ ونحوها سوى ابن العربي المارِّ ذِكْرُه وموافقيه، فإنهم على ظاهرِ ما نُقل عنهم لا يُجوِّزون لعن من رضي بقتل الحسين رضي الله عنه، وذلك لعمري هو الضلالُ البعيد، الذي يكادُ يزيدُ على ضلال يزيد.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: لا يُلاحظونه ولا يتصفَّحونه وما فيه من المواعظ والزواجر حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه من المُوبقات ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ تمثيلٌ لعدم وصولِ الذِّكر إليها وانكشاف الأمر لها، فكأنه قيل: أفلا يتدبَّرون القرآن إذْ وصل إلى قلوبهم أم لم يَصِلْ إليها، فتكون «أمْ» متصلةً على مذهب سيبويه، وظاهر كلام بعضٍ اختيارُه.

---

(١) وهما: عبيد الله بن زياد والي الكوفة والبصرة زمن يزيد، وعمر بن سعد بن أبي وقاص أمير الجيش الذي قتل الحسين رضي الله عنه.

(٢) هو عبد الباقي بن سليمان، شاعر، مؤرخ، ولي بالموصل وبغداد أعمالًا حكومية، له ديوان شعر، ونزهة الدهر في تراجم فضلاء العصر. توفي ببغداد سنة (١٢٧٩هـ)، الأعلام ٣/ ٢٧١.

وذهب أبو حيان[1] وجماعة إلى أنها منقطعة، وما فيها من معنى «بل» للانتقال من التوبيخ بترك التدبُّر إلى التوبيخ بكون قلوبهم مُقفلة لا تقبل التدبُّر والتفكُّر، والهمزة للتقرير.

وتنكيرُ القلوب لتهويل حالها وتفظيع شأنها وأمرها في القساوة والجهالة، كأنه قيل: على قلوب مُنكرة لا يُعرف حالها ولا يُقادر قَدْرُها في القساوة، وقيل: لأنَّ المرادَ قلوبُ بعضٍ منهم، وهم المنافقون، فتنكيرُها للتبعيض أو للتنويع كما قيل. وإضافةُ الأقفال إليها للدلالة على أنها أقفالٌ مخصوصة بها مناسبةٌ لها غير مُجانسة لسائر الأقفال المعهودة.

وقرئ: «إقفالها» بكسر الهمزة[2]، وهو مصدر من الإفعال، و«أَقْفُلها» بالجمع[3] على أَفْعُل.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ أي: رَجَعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر، قال ابن عباس وغيره: نزلت في منافقين كانوا أسلموا، ثم نافقَتْ قلوبهم.

وفي «إرشاد العقل السليم»[4]: هم المنافقون الذين وُصِفوا فيما سلف بمرض القلوب وغيره من قبائح الأحوال، فإنهم قد كفروا به عليه الصلاة والسلام ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ بالدلائل الظاهرة والمُعجزات الباهرة القاهرة.

وأخرج عبد الرزاق وجماعة عن قتادة أنه قال: هم أعداءُ الله تعالى أهل الكتاب يعرفون بَعْثَ النبيِّ ﷺ ويجدونه مكتوبًا في التوراة والإنجيل، ثم يكفرون به عليه الصلاة والسلام[5]. وأخرج ابن المنذر عن ابن جُريج أنه قال: «إن الذين ارتدوا» إلخ: اليهودُ ارتدُّوا عن الهُدى بعد أن عَرَفوا أن محمدًا ﷺ نبيٌّ[6]. والمختار ما تقدَّم.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٨٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) القراءات الشاذة ص١٤٠.

(٤) ٨/ ٩٩.

(٥) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٢٤.

(٦) الدر المنثور ٦/ ٦٦.

وأيًّاما كان فالموصولُ اسمُ «إنَّ»، وجملة قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ خبرها، كقولك: إن زيدًا عمرو مَرَّ به. أي: سهَّلَ لهم ركوبَ العظائم، من السَّوَل ـ بفتحتين ـ وهو الاسترخاء، استُعير للتسهيل، أي: لعدِّه سهلًا هيِّنًا حتى لا يُبالى به، كأنَّه شُبِّه بإرخاء ما كان مشدودًا.

وقيل: أي: حملهم على الشهوات، من السُّؤل، وهو التمنِّي، وأصلُه حملهم على سؤلهم، أي: ما يشتهونه ويتمنَّونه، فالتفعيل للحمل على المصدر، كغَرَّبه إذا حمله على الغُربة، إلا أنهم جعلوا المصدر بمعنى اسم المفعول، ونُقل ذلك عن ابن السِّكيت. واعتُرض بأنَّ السُّؤل بمعنى التمنِّي من السؤال، فهو مهموزٌ، والتسويل واويٌّ، ومعناه التزيين، فلا مناسبةَ لا لفظًا ولا معنى، فالقول باشتقاق سَوَّل منه خطأ. ورُدَّ بأن السُّول من السؤال، وله استعمالان فيكون مهموزًا، وهو المعروف، ومعتلًّا، يقال: سالَ يَسال كخاف يخاف، وقالوا منه: يتساولان ـ بالواو ـ فيجوز كون التسويل من السُّول على هذه اللغة، أو هو على المشهورة خُفِّف بقلب الهمزة، ثم التزم، ونظيره: تَدَيَّرَ من الدار لاستمرار القلب في ديَّار، وكذلك تحيَّز لاستمرار القلب في حيز[1]، ويكون مآلُ المعنى على هذا: حَمَلَهم على الشهوات.

وقرأ زيدُ بن عليٍّ رضي الله عنه: «سُوِّل لهم» مبنيًّا للمفعول[2]، وخرج ذلك على تقدير مضاف، أي: كيد الشيطان سوِّل لهم، وجُوِّز تقديره: سَوّل كيدُه لهم، فحذف وقام الضمير المجرور مُقامه، فارتفع واستتر، قيل: وهو أولى، لأنه تقديرٌ في وقت الحاجة، ولا يخفى أن الأولَ أقلُّ تكلُّفًا.

﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٥﴾ أي: ومَدَّ لهم الشيطانُ في الأماني والآمال، ومعنى المَدِّ فيها توسيعُها وجعلها ممدودةً بنفسها أو بزمانها، بأن يُوسوس لهم بأنكم تنالون في الدنيا كذا وكذا مما لا أصلَ له حتى يعوقهم عن العمل، وأصلُ الإملاء: الإبقاء ملاوةً من الدهر، أي: بُرهة، ومنه قيل: المعنى: وعدَهم بالبقاء الطويل.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٨٣.

(٢) ينظر تفصيل هذه المسألة عند تفسير الآية (١٦) من سورة الأنفال.

وجعل بعضُهم فاعلَ «أملى» ضميرَه تعالى، والمعنى: أمهلهم ولم يُعاجلهم بالعقوبة؛ وفيه تفكيكٌ، لكن أُيِّد بقراءة مجاهد وابن هُرمز والأعمش وسلام ويعقوب: «وأُمْلِيْ» بهمزة المتكلم[١]، مضارع: أَملى، فإنَّ الفاعلَ حينئذ ضميرُه تعالى على الظاهر، والأصل توافقُ القراءتين، وجُوِّز أن يكون ماضيًا مجهولًا من المَزيد سُكِّن آخره للتخفيف كما قالوا في بَقِيَ بَقِي بسكون الياء. وعلى الظاهر جُوِّز أن تكونَ الواو للاستئناف وأن تكون للحال، ويُقدَّر مبتدأ بعدَها، أي: وأنا أملي، لئلا يكون شاذًّا، كـ: قُمت وأَصُكُّ وجهه، وجُوِّزت الحالية في قراءة الجمهور أيضًا على جعل الفاعل ضميرَه تعالى، فحينئذ تُقدَّر «قد» على المشهور.

وقرأ ابن سيرين والجحدري وشيبة وأبو عمرو وعيسى: «وأُمليَ» بالبناء للمفعول[٢]، فـ «لهم» نائب الفاعل، أي: أُمهلوا ومُدَّ في أعمارهم، وجُوِّز أن يكون ضميرَ الشيطان، والمعنى: أُمهل الشيطانُ لهم، أي: جُعل من المُنْظَرين إلى يوم القيامة لأجلهم، ففيه بيانٌ لاستمرارِ ضلالهم وتقبيح حالهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكر من ارتدادهم، لا إلى الإملاء كما نُقل عن الواحدي[٣]، ولا إلى التسويل كما قيل، لأن شيئًا منهما ليس مُسبَّبًا من القول الآتي، وهو مبتدأ خبرُه قوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿قَالُوا﴾ يعني المنافقين ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ هم بنو قريظة والنضير من اليهود الكارهين لنزول القرآن على النبيِّ عليه الصلاة والسلام مع عِلْمهم بأنه من عند الله تعالى؛ حسدًا وطمعًا في نزوله على أحدٍ منهم: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أي: في بعض أموركم وأحوالكم، وهو ما حكي عنهم في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ [الحشر: ١١] وقيل: في بعض ما تأمرون به كالتناصر على رسول الله ﷺ.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٨٣، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٧٤.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٨٣، وقراءة أبي عمرو في النشر ٢/ ٣٧٤.
(٣) الوسيط ٤/ ١٢٨.

وقيل: القائلون اليهود الكافرون به ﷺ بعد ما وجدوا نَعْته الشريف في كتابهم، والمَقولُ لهم المنافقون؛ كان اليهود يَعِدونهم النُّصرة إذا أعلنوا بعداوة رسول الله عليه الصلاة والسلام. وقيل: القائلون أولئك اليهود والمَقولُ لهم المشركون كانوا يَعِدونهم النُّصرة أيضًا إذا حاربوا. وتُعقِّب كلا القولين بأنَّ كُفرَ اليهود به عليه الصلاة والسلام ليس بسبب هذا القول ولو فرض صدورُه عنهم على رأي القائل، بل من حيث إنكارهم بَعْثه عليه الصلاة والسلام وقد عَرَفوه كما عرفوا أبناءَهم وآباءهم، ومنه يُعلم ما في قول بعضهم: إنَّ القائلين هم المنافقون واليهود، والمَقول لهم المشركون، وما فسَّرنا به الآية الكريمةَ مَرويٌّ عن الحِبْر رضي الله عنه.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ﴿٢٦﴾﴾ أي: إخفاءهم ما يقولونه لليهود، أو كلّ قبيح، ويدخل ذلك دخولًا أوليًّا.

وقرأ الجمهور: «أسرارهم» بفتح الهمزة[(١)]، أي: يعلم الأشياء التي يُسرُّونها، ومنها قولهم هذا الذي أظهره سبحانه لتفضيحهم. وقال الإمام[(٢)]: الأظهر أنْ يقال: المرادُ: يعلم سبحانه ما في قلوبهم من العلم بصدقِ رسوله ﷺ. وفيه ما لا يخفى.

والجملةُ اعتراضٌ مقرِّر لما قبله متضمِّن للوعيد.

والفاء في قوله سبحانه: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لترتيب ما بعدَها على ما قبلها، «وكيف» منصوبٌ بفعل محذوف هو العاملُ في الظرف، كأنه قيل: يفعلون في حياتهم ما يفعلون من الحِيل، فكيف يفعلون إذا توفَّتهم الملائكة، وقيل: مرفوعٌ على أنه خبرٌ لمبتدأ محذوف، أي: فكيف حالهم أو حيلتهم إذا توفَّتهم.. إلخ، وزعم الطبري[(٣)] أن التقدير: فكيف عِلْمه تعالى بأسرارهم إذا توفَّتهم.. إلخ. وليس بشيء.

ووقت التوفِّي هو وقتُ الموت، والملائكة عليهم السلام مَلَكُ الموت وأعوانُه.

---

(١) قرأ بالكسر حفص وحمزة والكسائي وخلف، والباقون بالفتح. التيسير ص ٢٠١، والنشر ٢/ ٣٧٤.

(٢) تفسير الرازي ٢٨/ ٦٧.

(٣) في تفسيره ٢١/ ٢٢١.

وقرأ الأعمش: «توفَّاهم» بالألف بدل التاء[1]، فاحتمل أن يكون ماضياً، وأن يكونَ مضارعاً حُذف منه أحدُ تاءيه، والأصل: تتوفاهم.

﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾ حالٌ من الملائكة، وجوِّز كونه حالاً من ضمير «توفتهم»، وضَعَّفه أبو حيان[2]، وهو على ما قيل تصويرٌ لتوفِّيهم على أهول الوجوه وأفظعها، وإبرازٌ لما يخافون منه ويَجْبُنون عن القتال لأجله، فإنَّ ضربَ الوجوه والأدبار في القتال والجهاد مما يُتَّقى، وعن ابن عباس ﷺ: لا يُتوفَّى أحدٌ على معصية إلا تضربُ الملائكةُ في وجهه وفي دُبره[3]. والكلام على الحقيقة عنده، ولا مانعَ من ذلك وإن لم يحسَّ بالضرب مَنْ حضر، وما ذلك إلا كسؤال المَلكين وسائرِ أحوال البرزخ.

والمراد بالوجه والدُّبر، قيل: العضوان المعروفان. أخرج ابنُ المنذر عن مجاهد أنه قال: يضربون وجوههم واستاههم، ولكن الله سبحانه كريم يكني[4].

وقال الراغب وغيره: المراد: القُدَّام والخَلْف[5].

وقيل: وقتُ التوفِّي وقت سوقهم في القيامة إلى النار، والملائكةُ ملائكة العذاب يومئذ. وقيل: هو وقت القتال، والملائكةُ ملائكةُ النصر تضرب وجوههم إن ثبتوا وأدبارَهم إنْ هربوا نُصرةً لرسول الله ﷺ. وكلا القولين كما ترى.

﴿ذَٰلِكَ﴾ التوفِّي الهائل ﴿بِأَنَّهُمُ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ ما يرضاه عز وجل من الإيمان والطاعات حيث كفروا بعد الإيمان وخرجوا عن الطاعة بما صنعوا من المعاملة مع إخوانهم اليهود.

وقيل: «ما أسخط الله» كتمانُ نعت الرسول ﷺ، و«رضوانه» ما يُرضيه سبحانه من إظهار ذلك. وهو مبنيٌّ على أنَّ ما تقدَّم إخبارٌ عن اليهود، وقد سمعتَ ما فيه.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٤٠، والبحر ٨/ ٨٤.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٨٤.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٣٧، وذكره القرطبي في تفسيره ١٩/ ٢٨١ بنحوه.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٦٦.

(٥) مفردات ألفاظ القرآن الكريم (دبر).

ولمَّا كان اتِّباعُ ما أسخط الله تعالى مقتضيًا للتوجُّه ناسبَ ضَرْبَ الوجه، وكراهة رضوانه سبحانه مقتضيًا للإعراض ناسبَ ضَرْبَ الدُّبر، ففي الكلام مُقابلة بما يُشبه اللَّفّ والنَّشر.

﴿فَأَحْبَطَ﴾ لذلك ﴿أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ التي عَمِلوها حالَ إيمانهم من الطاعات، وجُوِّز أنْ يُرادَ ما كان بعدُ من أعمال البرِّ التي لو عَمِلوها حالَ الإيمان لانتفعوا بها.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم المنافقون الذين فُصِّلَتْ أحوالهم الشنيعة وُصِفوا بوصفهم السابق لكونه مدارًا لما نعي عليهم بقوله تعالى: ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾ فـ «أم» منقطعة، و«أنْ» مُخفَّفة من «أنَّ»، واسمها ضميرُ الشأن، والجملة بعدَها خبرُها. والأضغان جمعُ ضِغْن: وهو الحِقْد، وقيَّده الراغبُ[١] بالشديد، وقد ضَغِنَ بالكسر، وتضاغن القومُ واضطغنوا: أبطنوا الأحقاد، ويقال: اضطغنت الصبيَّ إذا أخذتَه تحت حضنك، وأنشد الأحمر:

كأنه مُضطغنٌ صَبِيًّا[٢]

وفرس ضاغن: لا يُعطي ما عنده من الجري إلا بالضرب، وأصلُ الكلمة من الضغن وهو الالتواء والاعوجاج في قوائم الدابة والقناة وكلّ شيء، قال بشر:

كذات الضِّغْنِ تمشي في الرِّفاق[٣]

وأنشد الليث:

إنَّ قناتي من صليبات القنا

---

(١) المفردات (ضغن).

(٢) الصحاح (ضغن)، وعزاه في اللسان (سوس) لامرأة عامرية، وقبله:

لقد رأيت رجلاً دُهْرِيًّا … يمشي وراء القوم سَيْتَهِيًّا

(٣) عجز بيت لبشر بن أبي خازم، وهو في ديوانه ص ١٧٨، وصدره: فإنّي والشكاةَ مِنَ الِ لَأمِ. والرقاق: أن يُشدَّ حبل من عنق البعير إلى رُسغه. ووقع في الأصل و(م): الرقاق.

مـا زادهـا الـتـثـقـيـفُ إلا ضَـغَـنـا[١]

والحقد في القلب يُشبَّه به.

وقال الليث وقطرب: الضِّغن: العداوة، قال الشاعر:

قـل لابـن هـنـدٍ مـا أردتَ بـمـنـطـقٍ ساء الـصـديـقَ وشـيَّـد الأضـغـانـا[٢]

وهذا لا يُنافي الأول، لأنَّ الحقدَ العداوة لأمر يُخفيه المرء في قلبه، والإخراج مختصٌّ بالأجسام، والمرادُ به هنا الإبراز، أي: بل أَحَسِبَ الذين في قلوبهم حقدٌ وعداوةٌ للمؤمنين أنه لن يُبرِزَ الله تعالى أحقادَهم ويُظهرها للرسول ﷺ والمؤمنين فتبقى مستورةً، والمعنى: إن ذلك مما لا يكادُ يدخل تحت الاحتمال.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ إراءتك إيَّاهم ﴿لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ أي: لعرَّفناكهم، على أنَّ الرؤية علمية ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ تفريعٌ لمعرفته ﷺ على تعريفِ الله عز وجل، ويجوزُ أن تكونَ الرؤيةُ بصريةً على أن المعنى: أنه ﷺ يعرفهم معرفةً متفرِّعة على إراءته إياهم. والالتفاتُ إلى نون العظمة للإيماء إلى العناية بالإراءة، والسِّيما: العلامة، والمعنى هنا على الجمع لعمومها بالإضافة، لكنها أُفردت للإشارة إلى أنَّ علاماتِهم متَّحدةُ الجنس، فكأنها شيء واحدٌ، أي: فَلَعرفتهم بعلاماتٍ نَسِمُهم بها.

ولام «فلعرفتهم» كلامِ «لأريناكهم» الواقعة في جواب «لو» لأن المعطوفَ على الجوابِ جواب، وكُرِّرت في المعطوف للتأكيد، وأما التي في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ فواقعةٌ في جوابِ قَسَم محذوف، والجملةُ معطوفةٌ على الجملة الشرطية.

و«لحن القول» أسلوبٌ من أساليبه مطلقًا، أو المائلة عن الطريق المعروفة، كأن يعدلَ عن ظاهره من التصريح إلى التعريض والإبهام، ولذا سُمِّي خطأ الإعراب به لِعدوله عن الصواب. وقال الراغب: اللَّحن: صرفُ الكلام عن سَنَنه الجاري عليه؛ إما بإزالة الإعراب، أو التصحيف وهو المذمومُ، وذلك أكثرُ استعمالًا، وإما بإزالته

---

(١) الرجز في تهذيب اللغة ٨/ ١١، واللسان (ضغن).

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره ١٩/ ٢٨٢.

عن التصريح وصَرْفه بمعناه إلى تعريض وفحوى، وهو محمودٌ من حيث البلاغة، وإليه أشار بقوله الشاعر عند أكثر الأدباء:

منطقٌ صائبٌ وتلحنُ أحيا نًا وخيرُ الحديث ما كان لحنا

وإيَّاه قصد بقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾[1].

وفي «البحر»[2]: يقال: لَحَنْتُ له - بفتح الحاء - أَلْحَنُ لحنًا، قلت له قولًا يفهمه عنك ويخفى على غيره، ولَحِنَه هو - بالكسر - فَهِمه، وأَلْحنته أنا إيَّاه، ولاحَنْتُ الناسَ: فاطَنْتُهم.

وقيل: «لحنُ القول» الذهابُ عن الصواب. وعن ابن عباس: «لحن القول» هنا هو قولهم: ما لنا إنْ أَطعنا من الثواب؟ ولا يقولون: ما علينا إنْ عَصَينا من العقاب؟ وكان هذا الذي ينبغي منهم. وقال بعض من فسَّره بالأسلوب المائل عن الطريق المعروفة: إنهم كانوا يصطلحون فيما بينهم على ألفاظ يُخاطبون بها الرسول ﷺ مما ظاهرُه حسنٌ ويعنون به القبيحَ، وكانوا أيضًا يتكلَّمون بما يُشعر بالاتِّباع وهم بخلاف ذلك، كقولهم إذا دعاهم المؤمنون إلى نصرهم: إنا معكم، وبالجملة إنهم كانوا يتكلَّمون بكلام ذي دسائسَ، وكان ﷺ يعرفهم بذلك.

وعن أنس ﷺ: ما خَفِيَ بعدَ هذه الآيةِ على رسول الله ﷺ شيء من المنافقين، كان عليه الصلاة والسلام يعرفهم بسيماهم، ولقد كُنَّا في بعض الغزوات، وفيها تسعة من المنافقين يشكوهم الناسُ، فناموا ذاتَ ليلة وأصبحوا وعلى جبهةِ كلِّ واحد منهم مكتوبٌ: هذا منافق[3]. وفي دعواه أنه ﷺ كان يعرفهم بسيماهم إشكال، فإن «لو» ظاهرها عدمُ الوقوع، بل المناسبُ معرفتهم من لَحن

(١) المفردات (لحن)، والبيت لمالك بن أسماء بن خارجة الفزاري، وهو في الشعر والشعراء ٢/ ٧٨٢، والأغاني ١٧/ ٢٣٦.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٧١.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٣٧، قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥١: ذكره الثعلبي بغير سند، ولم أجده.

القول، وكأنه حمله على أنه وعدٌ بالوقوع دالٌّ على الامتناع فيما سلف، ولقد صدق وعده، واستشهد عليه بما اتفق في بعض الغزوات.

ولا تنحصر السيما بالكتابة، بل تكون بغيرها أيضاً مما يَعرفهم به النبيُّ ﷺ كما يعرفُ القائفُ حالَ الشخص بعلاماتٍ تدلُّ عليه، وكثيراً ما يعرف الإنسان مُحِبَّه ومُبغِضَه من النظر، ويكادُ النظرُ يَنطِقُ بما في القلب، وقد شاهدنا غيرَ واحدٍ يعرف السُّنِّيَّ والشيعيَّ بسماتٍ في الوجه، وإنْ صحَّ أنَّ بعضَ الأولياء قُدِّسَتْ أسرارُهم كان يعرف البرَّ والفاجرَ والمؤمنَ والكافر، ويقول: أَشَمُّ من فلان رائحةَ الطاعة، ومن فلان رائحةَ المعصية، ومن فلانٍ رائحةَ الإيمان، ومن فلان رائحةَ الكفر، ويظهرُ الأمرُ حسبما أشار، فرسول الله ﷺ بتلك المعرفة أَولى وأَولى؛ ولعلَّها بعلامات وراء طَور عقولنا، والنور المذكور في خبر: «اتقوا فِراسةَ المؤمن فإنه ينظرُ بنورِ الله تعالى»[1] متفاوتُ الظُّهور بحسب القابليات، وللنبي ﷺ أتمُّه.

وذكروا من علامات النِّفاق بُغضَ عليٍّ كرم الله تعالى وجهه؛ فقد أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: ما كُنَّا نعرف المنافقين على عهد رسول الله ﷺ إلا ببغضهم عليَّ بن أبي طالب. وأخرج هو وابن عساكر عن أبي سعيد الخُدري ما يُؤيِّده[2]، وعندي أن بُغْضَه ﷺ من أقوى علاماتِ النفاق، فإنْ آمنتَ بذلك فيا ليت شعري ماذا تقول في يزيد الطَّريد أكان يحبُّ عليًّا كرم الله تعالى وجهه أَمْ كان يبغضه؟ ولا أظنكَ في مِرْية من أنه عليه اللعنة كان يبغضه ﷺ أشدَّ البُغض، وكذا يبغضُ ولديه الحسنَ والحسين على جدِّهما وأبويهما وعليهما الصلاة والسلام كما تدلُّ على ذلك الآثارُ المتواترة معنى، وحينئذ لا مجالَ لك من القول

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٢٧) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، وقال الترمذي: هذا حديث غريب. وأخرجه الشهاب في مسنده (٦٦٣) من حديث أبي أمامة ﷺ، وفيه عطية العوفي، وهو ضعيف كما في التقريب. وأخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (١٥١٠) و(١٥١١) و(١٥١٢) و(١٥١٣) وقال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وانظر بقية الكلام عليه ثمة.

(٢) الخبران في الدر المنثور ٦/ ٦٦-٦٧، والخبر الثاني عند ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٢/ ٢٨٥-٢٨٦، وأخرجه أيضاً الطبراني في الأوسط (٣١٢٥) من حديث جابر ﷺ.

بأنَّ الخبيث[١] كان منافقاً، وقد جاء في الأحاديث الصحيحة علاماتٌ للنفاق غير ما ذُكر كقوله عليه الصلاة والسلام: «علامات المنافق ثلاث» الحديث[٢]. لكن قال العلماء: هي علاماتٌ للنفاق العمليِّ لا الإيماني. وقيل: الحديثُ خارجٌ مخرجَ التنفير عن اتِّصاف المؤمن المُخلص بشيء منها لما أنها كانت إذ ذاك من علامات المنافقين.

واستَدَلَّ بقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ مَن جَعَلَ التعريضَ بالقذف موجبًا الحَدَّ. ولا يخفى حاله.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٠﴾ فيجازيكم عليها بحسب قَصْدكم، وهذا ـ على ما قيل ـ وعدٌ للمؤمنين وإيذانٌ بأنَّ حالهم بخلافِ حال المنافقين. وقيل: وعيدٌ للمنافقين وإيذانٌ لهم بأنَّ المجزيَّ عليه ما يقصدونه لا ما يُعَرِّضون أو يُوَرُّون به، واستظهر أنه خطابٌ عامٌّ فهو وعدٌ ووعيدٌ.

وحُمل على العموم قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ بالأمر بالجهاد ونحوه من التكاليف الشاقَّة ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على مَشاقِّ التكاليف علمًا فعليًّا يتعلَّق به الجزاء، وفي معناه ما قيل: أي: حتى يظهر علمنا، وقال ابنُ الحاجب في ذلك: العلم يُطلق باعتبار الرؤية، والشيء لا يُرى حتى يقعَ، يعني على المشهور، وهو هنا بمعنى ذلك، أو بمعنى المجازاة، والمعنى: حتى نُجازي المجاهد منكم والصابرين ﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ۝٣١﴾ فيظهر حسنُها وقبيحها، والكلامُ كنايةٌ عن بلاء أعمالهم، فإنَّ الخبرَ حَسَنه وقَبيحه على حسب المُخبَر عنه، فإذا تميَّز الحسنُ عن الخبر القبيح فقد تميَّز المُخبَر عنه، وهو العمل كذلك، وهذا أبلغُ من: تبلو أعمالكم. والظاهرُ عمومُ الأخبار، وجُوِّز كون المراد بها: أخبارهم عن إيمانهم وموالاتهم للمؤمنين على أنَّ إضافتها للعهد، أي: وتبلو أخبارَ إيمانكم ومُوالاتكم فيظهر صِدْقُها وكَذِبُها.

---

(١) في (م): اللعين.

(٢) أخرجه أحمد (٩١٥٨)، والبخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان».

وقرأ أبو بكر الأفعال الثلاثة المُسندة إلى ضمير العظمة بالياء، وقرأ رويس: «ونَبلُوْ» بالنون وسكون الواو[(١)]، والأعمش بسكونها وبالياء[(٢)]، فالفعلُ مرفوعٌ بضمَّة مُقدَّرة بتقدير: ونحن نبلو، والجملة حالية، وجُوِّز أن يكونَ منصوبًا ـ كما في قراءة الجمهور ـ سُكِّن للتخفيف كما في قوله:

أبـــى اللهُ أَنْ أَســـمـــو بـــأمٍّ ولا أبِ[(٣)]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟﴾ الناسَ ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ صاروا في شقٍّ غير شِقِّه، والمرادُ عادوه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ لِمَا شاهدوا من نَعْته عليه الصلاة والسلام في التوراة، أو بما ظهر على يديه ﷺ من المُعجزات ونزل عليه عليه الصلاة والسلام من الآيات، وهم بنو قُريظة والنَّضير، أو المُطعمون يوم بدر، وقد تقدَّم ذكرهم، وقيل: أناسٌ نافقوا بعد أن آمنوا.

﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ﴾ بِكُفرهم وصَدِّهم ﴿شَيْـًٔا﴾ من الأشياء أو شيئًا من الضرر، أو لن يضرُّوا رسولَ الله ﷺ بمشاقَّته شيئًا؛ وقد حُذف المضاف لتعظيمه عليه الصلاة والسلام بجعل مَضرَّته وما يلحقه كالمنسوب إلى الله تعالى، وفيه تفظيعُ مُشاقَّته ﷺ.

﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٣٢﴾ في مَكايدِهم التي نصبوها في إبطال دينه تعالى ومُشاقّة رسوله عليه الصلاة والسلام، فلا يَصِلون بها إلى ما كانوا يبغُون من الغوائل ولا تُثمر لهم إلا القتل والجَلاء عن أوطانهم ونحو ذلك، وجُوِّز أن يُرادَ أعمالهم التي عَمِلوها في دينهم يرجون بها الثواب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٣﴾ قيل: إنَّ بني أسد أَسلموا وقالوا لرسول الله ﷺ: قد آثرناك وجئناك بنفوسنا وأهلنا، كأنهم مَنُّوا بذلك، فنزلت فيهم هذه وقولُه تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟﴾ [الحجرات: ١٧] ومن هنا قيل: المعنى: لا تُبطلوا أعمالَكم بالمَنِّ بالإسلام، وعن ابن عباس: بالرِّياء

(١) التيسير ص٢٠٦، والنشر ٢/ ٣٧٥، والبحر ٨/ ٨٥.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٨٥.
(٣) عجز بيت لعامر بن الطفيل، وهو في ديوانه ص٧٠، وصدره: فما سوَّدتني عامر عن وراثةٍ.

والسُّمعة، وعنه أيضًا: بالشكِّ والنِّفاق، وقيل: بالعُجْب فإنه يأكل الحسناتِ كما تأكلُ النارُ الحطب.

وقيل: المراد بالأعمال الصدقات، أي: تُبطلوها بالمَنِّ والأذى.

وقيل: لا تُبطلوا طاعاتِكم بمعاصيكم، أخرج عبد بن حُميد وابن جرير عن قتادة أنه قال في الآية: مَن استطاع منكم أن لا يُبطل عملًا صالحًا بعمل سوء فَلْيفعَلْ، ولا قوة إلا بالله تعالى[1].

وأخرج عبد بن حُميد ومحمد بن نَصْر المَرْوَزي في كتاب «الصلاة» وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال: كان أصحابُ رسول الله ﷺ يرونَ أنه لا يضرُّ مع لا إله إلا الله ذنبٌ، كما لا ينفعُ مع الشِّرك عملٌ حتى نزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ فخافوا أن يُبطلَ الذنبُ العمل. ولفظ عبد بن حُميد: فخافوا الكبائر أن تُحبِطَ أعمالهم.

وأخرج ابن نصر وابن جرير وابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنَّا معاشرَ أَصحاب محمد ﷺ نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبولًا حتى نزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ فلما نزلت هذه الآية قلنا: ما هذا الذي يُبطل أعمالَنا؟ فقلنا: الكبائر المُوجبات والفواحش، فكنا إذا رَأَينا مَنْ أصاب شيئًا منها قلنا: قد هلك، حتى نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] فلما نزلَتْ كَفَفْنا عن القول في ذلك، وكنَّا إذا رأينا أحدًا أصاب منها شيئًا خفنا عليه، وإنْ لم يُصب منها شيئًا رجونا له[2].

واستدلَّ المعتزلةُ بالآية على أنَّ الكبائرَ تُحبط الطاعات، بل الكبيرة الواحدة تُبطل مع الإصرار الأعمال ولو كانت بعدد نجوم السماء، وذكروا في ذلك من الأخبار ما ذكروا.

وفي «الكشف»: لا بدَّ في هذا المقام من تحرير البحث بأن يقال: إنْ أراد

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٦٧، وتفسير الطبري ٢١/ ٢٢٦.

(٢) الخبران في الدر المنثور ٦/ ٦٧، والثاني عند الطبري ٢٠/ ٢٢٩.

المعتزلة أن نحو الزنى إذا عقب الصلاة يُبطل ثوابَها مثلًا فهذا لا دليلَ عليه نقلًا وعقلًا، بل هما متعادلان على ما دلَّ عليه صحاحُ الأحاديث، وكفى بقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨] حُجَّةً بالغة، وإنْ أرادوا أن عقابه قد يَكْبر حتى لا يُعادِلَه صغارُ الحَسنات، فهذا صحيحٌ، والكلامُ حينئذ في تسميته إحباطًا، ولا بأس به، لكن عندنا أنَّ هذا الإحباطَ غيرُ لازم، وعندهم لازم، وهو مبنيٌّ على جواز العفو، وهي مسألةٌ أُخرى، وأما الكبيرةُ التي تختصُّ بذلك العمل كالعُجب ونحو المَنِّ والأذى بعد التصدُّق فهي مُحبطة لا محالةَ اتِّفاقًا، وعليه يُحمل ما نُقل من الآثار، ومَنْ لا يُسميه إحباطًا لأنه يجعله شرطًا للقَبول، والإحباطُ أن يصيرَ الثوابُ زائلًا، وهذا لا يتأتَّى إذا لم يثبت له ثوابٌ، فله ذلك، وهو أمرٌ يرجعُ إلى الاصطلاح. انتهى، وهو من الحُسن بمكان.

وإعادة الفعل في «وأطيعوا الرسول» للاهتمام بشأن إطاعته عليه الصلاة والسلام.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ امتنعوا عن الدُّخول في الإسلام وسلوك طريقه، أوصدُّوا الناس عنه ﴿ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۝﴾ نزلَتْ في أهل القَليب كما قيل، وحُكمها عامٌّ كما قال غيرُ واحد في كلِّ من مات على كفره، وهو ظاهرٌ على التفسير الأول لـ «صدُّوا عن سبيل الله»، وأما على التفسير الثاني له فقيل عليه: إنَّ العمومَ مع تخصيص الكفر بصدِّ الناس عن الإسلام محلُّ نظر، ويُفهم من كلام بعض الأجِلَّة أن العمومَ لأنَّ مدارَ علم المغفرة هو الاستمرار على الكفر حسبما يُشعر اعتباره قيدًا في الكلام، فتدبَّر.

واستدل بمفهوم الآية بعضُ القائلين بالمفهوم على أنه تعالى قد يغفر لمن لم يَمُتْ على كُفره سائرَ ذنوبه.

﴿فَلَا تَهِنُوا۟﴾ أي: إذا علمتم أنَّ الله تعالى مُبطلٌ أعمالهم ومُعاقبهم فهو خاذِلهم في الدنيا والآخرة، فلا تُبالوا بهم ولا تُظهروا ضعفًا، فالفاء فصيحةٌ في جواب شرطٍ مفهوم مما قَبله، وقيل: هي لترتيب النهي على ما سبق من الأمر بالطاعة.

﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ عطفٌ على «تهنوا» داخلٌ في حيِّز النهي، أي: ولا تدعوا الكُفَّار إلى الصُّلح خَوَرًا وإظهارًا للعجز، فإن ذلك إعطاءُ الدَّنية. وجُوِّز أن يكونَ منصوبًا بإضمار «أنْ» فيعطف المصدر المَسبوك على مصدر مُتصيَّد مما قبلَه، كقوله:

لا تَـنْـهَ عـن خُـلـقٍ وتـأتـيَ مـثـلَـه[1]

واستدلَّ الكيا بهذا النهي على منع مُهادنة الكفار إلا عند الضرورة، وعلى تحريم تركِ الجهاد إلا عند العَجْز[2].

وقرأ السلمي: «وتدَّعوا» بتشديد الدال[3] مِن ادَّعى بمعنى دعا. وفي «الكشاف»[4] ذَكَر «لا» في هذه القراءة، ولعلَّ ذلك روايةٌ أُخرى.

وقرأ الحسن وأبو رجاء والأعمش وعيسى وطلحة وحمزة وأبو بكر: «السِّلم» بكسر السين[5].

﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ أي: الأغلبون، والعُلُوُّ بمعنى الغَلبة مجازٌ مشهور، والجملة حاليةٌ مقرِّرة لمعنى النهي مُؤكِّدة لوجوب الانتهاء، وكذا قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ أي: ناصرُكم، فإن كونهم الأغلبين وكونه عز وجل ناصرهم من أقوى مُوجبات الاجتناب عمَّا يُوهم الذُّلَّ والضَّراعة.

وقال أبو حيان[6]: يجوز أن يكونا جُملتين مستأنفتين أُخبروا أولًا أنهم الأعلون، وهو إخبارٌ بمغيَّب أبرزه الوجود، ثم ارتقى إلى رُتبةٍ أعلى من التي قبلها، وهي كون الله تعالى معهم.

(١) وعجزه: عارٌ عليك إذا فعلت عظيم. وهو في الخزانة ٨/ ٥٦٤. واختلف في قائله، فنُسب للمتوكِّل الكناني وللمتوكل الليثي، والمشهور أنه لأبي الأسود الدؤلي، ولعل المتوكِّل أخذه من شعر أبي الأسود. قاله البغدادي.

(٢) أحكام القرآن ٤/ ٣٧٥.

(٣) القراءات الشاذة ص١٤١، والمحتسب ٢/ ٢٧٣، والبحر المحيط ٨/ ٨٥.

(٤) ٣/ ٥٣٩.

(٥) البحر المحيط ٨/ ٨٥، وقراءة حمزة وأبي بكر في النشر ٢/ ٢٢٧، والتيسير ص٢٠١.

(٦) البحر المحيط ٨/ ٨٥.

﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ۝٣٥﴾ قال: ولن يظلمكم، وقيل: ولن ينقصكم، وقيل: ولن يُضيِّعها، وهو كما قال أبو عُبيد والمبرِّد: من وَتَرت الرجلَ إذا قتلتَ له قتيلاً من ولدٍ أو أخٍ أو حميم، أو سلبته ماله وذهبتَ به. قال الزمخشري[1]: وحقيقته: أَفردته من قريبه أو ماله، من الوِتْر، وهو الفرد، فَشبَّه إضاعة عمل العامل وتعطيل ثوابه بوتر الواتر، وهو من فصيح الكلام، وفيه هنا من الدَّلالة على مَزيد لُطفِ الله تعالى ما فيه، ومنه قوله ﷺ: «مَنْ فاتَتْه صلاةُ العصرِ فكأنما وُتِرَ أهلَه ومالَه»[2]. والظاهر على ما ذكره أنه لا بدَّ من تضمين وَتَرته معنى السَّلب ونحوه ليتعدَّى إلى المفعول الثاني بنفسه، وفي «الصحاح»[3] أنه من التِّرة، وحمله على نزع الخافض، أي: جعلته مَوْتُورًا لم يُدرك ثأره في ذلك، كأنه نقصه فيه، وجعله نظيرَ: دخلتُ البيت، أي: فيه. وهو سديدٌ أيضًا.

وجوَّز بعضهم «يتر» هاهنا متعدِّياً لواحد، و«أعمالكم» بدل من ضمير الخطاب، أي: لن يَتِرَ أعمالَكم من ثوابها.

والجملة قيل: معطوفةٌ على قوله تعالى: «معكم»، وهي وإن لم تَقَعْ حالًا استقلالاً لتصديرها بحرف الاستقبال المُنافي للحال على ما صرَّح به العلامة التفتازاني وغيره لكنه يُغتفر في التابع ما لا يُغتفر في غيره. وقيل: المانعُ من وقوع المُصدَّرة بحرف الاستقبال حالاً مخالفتُه للسَّماع، وإلا فلا مانعَ من كونها حالاً مُقدَّرة، مع أنه يجوز أن تكون «لن» لمجرد تأكيدِ النفي. والظاهرُ أن المانعين بَنَوا المنعَ على المُنافاة، وأنها إذا زالت باعتبار أحدِ الأمرين فلا منع، لكن قيل: إنَّ الحال المقصود منها بيانُ الهيئة غير الحال الذي هو أحدُ الأزمنة، والمنافاة إنما هي بين هذا الحال والاستقبال. وهذا نظيرُ ما قال مُجوِّزو مَجيء الجملة الماضية حالاً بدون «قد»، وما لذلك وما عليه في كتب النحو، وإذا جعلت الجملة قبلُ مستأنفة لم يكن إشكالٌ في العطف أصلاً.

---

(١) الكشاف ٣/٥٣٩.

(٢) أخرجه أحمد (٦٣٢٤)، والبخاري (٥٥٢)، ومسلم (٦٢٦) (٢٠١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) مادة: (وتر).

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ لا ثَبات لها ولا اعتدادَ بها ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ أي: ثوابَ إيمانكم وتقواكم من الباقيات الصالحات التي يتنافس فيها المتنافسون.

﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾﴾ عطفٌ على الجزاء، والإضافة للاستغراق، والمعنى: إن تُؤمنوا لا يسألكم جميعَ أموالكم كما يأخذ من الكافر جميعَ ماله، وفيه مقابلة حسنةٌ لقوله تعالى: «يؤتكم أجوركم» كأنه قيل: يُعطِكم كلَّ الأجور ويسألكم بعضَ المال، وهو ما شرعه سبحانه من الزكاة، وقول سفيان بن عيينة: أي: لا يسألكم كثيرًا من أموالِكم إنما يسألُكم ربعَ العُشر فَطيِّبوا أنفسكم، بيانٌ لحاصل المعنى.

وقيل: أي: لا يسألكم ما هو مالكم حقيقة وإنما يسألُكم ماله عز وجل، وهو المالكُ لها حقيقةً وهو جل شأنه المُنعم عليكم بالانتفاع بها. وقيل: أي: لا يسألُكم أموالَكم لحاجته سبحانه إليها، بل ليرجع إنفاقُكم إليكم. وقيل: لا يسألكم الرسولُ ﷺ شيئاً من أموالكم أجراً على تبليغ الرسالة كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص:٨٦] ووجهُ التعليق عليها غيرُ ظاهر، وفي بعضها أيضاً ما لا يخفى.

﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا﴾ أي: أموالكم ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ فيُجهدكم بطلب الكُلِّ، فإنَّ الإحفاءَ والإلحاف المبالغةُ وبلوغُ الغايةِ في كلِّ شيء، يقال: أحفاه في المسألة إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح، وأحفى شاربَه استأْصَله وأَخذَه أخذًا مُتناهياً. وأصلُ ذلك على ما قال الراغب(١): مِنْ أَحفيتُ الدابَّة جعلته حافياً، أي: مُنْسحِجَ الحافر، والبَعير جعلته مُنْسحِج الفِرْسن من المشي حتى يَرِقَّ.

﴿تَبْخَلُواْ﴾ جواب الشرط، والمرادُ بالبخل هنا تركُ الإعطاء، إذ هو على المعنى المشهور أمرٌ طبيعيٌ لا يترتَّب على السؤال.

﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾ أي: أحقادَكم لمزيد حُبِّكم للمال، وضمير «يخرج» لله

---

(١) المفردات (حفي).

تعالى، ويَعضُده قراءة يعقوب ورُويت أيضاً عن ابن عباس: «ونُخْرِجْ» بالنون مضمومة[1]. وجُوِّز أن يكون للسؤال أو للبخل، فإنه سببُ إخراج الأضغان، والإسناد على ذلك مجازيٌّ. وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو: «ويُخْرِجُ» بالرفع على الاستئناف[2]، وجُوِّز جعل الجملة حالاً بتقدير: وهو يخرجُ، وحكاها أبو حاتم عن عيسى، وفي «اللوامح»: عن عبد الوارث عن أبي عمرو: «ويَخْرُجُ» بالياء التحتية وفتحها وضمِّ الراء والجيم «أضغانُكم» بالرفع على الفاعلية[3]. وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن سيرين وابن مُحيصن وأيوب بن المُتوكِّل واليماني: «وتَخْرُجَ» بتاء التأنيث ورفع «أضغانُكم»[4]. وقرئ: «ويُخرَجَ» بضمِّ الياء التحتية وفتح الراء «أضغانُكم» رفعاً على النيابة عن الفاعل، وهي مَرويةٌ عن عيسى إلا أنه فَتح الجيم بإضمار «أن»[5]، فالواو عاطفةٌ على مصدر مُتصيَّد، أي: يكن بُخْلكم وإخراجُ أضغانكم.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: أنتم أيها المخاطبون هؤلاء الموصوفون بما تضمَّنه قولُه تعالى: «إن يسألكموها» إلخ، والجملةُ مبتدأ وخبر، وكُرِّرت «ها» التنبيهية للتأكيد، وقوله سبحانه: ﴿تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلخ، استئنافٌ مُقرِّر ومُؤكِّد لذلك لاتِّحاد محصل معناهما، فإنَّ دعوتهم للإنفاق هو سُؤل الأموال منهم، وبُخل ناسٍ منهم هو معنى عدم الإعطاء المذكور مجملًا أولًا أو صلة لـ «هؤلاء» على أنه بمعنى «الذين»، فإنَّ اسمَ الإشارة يكون موصولًا مطلقًا عند الكوفيين، وأما البصريون فلم يثبتوا اسمَ الإشارة موصولًا إلا إذا تقدَّمه «ما» الاستفهامية باتفاق، أو «مَن» الاستفهامية باختلاف، والإنفاق في سبيل الله تعالى هو الإنفاقُ المرضي له تعالى شأنه مطلقًا فيشمل النفقة للعِيال والأقارب والغزو

---

(١) القراءات الشاذة ص١٤١، وهي غير المشهورة عن يعقوب.

(٢) القراءات الشاذة ص١٤١، والمحتسب ٢/ ٢٧٣، والبحر المحيط ٨/ ٨٦.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٨٦، لكن بالتاء لا بالياء، وقال الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٣٩: ويَخْرج» بالياء والتاء مع فتحهما ورفع «أضغانكم».

(٤) القراءات الشاذة ص ١٤١، والبحر المحيط ٨/ ٨٦.

(٥) رواية عيسى في البحر المحيط ٨/ ٨٦.

وإطعام الضيوف والزكاة وغير ذلك، وليس مخصوصًا بالإنفاق للغزو أو بالزكاة كما قيل.

﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ أي: ناس يَبْخَلون ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ فلا يتعدَّى ضررُ بُخْله إلى غيرها، يقال: بَخِلْت عليه وبَخِلْتُ عنه؛ لأنَّ البخل فيه معنى المنع، ومعنى التضييقِ على مَنْ مُنع عنه المعروف والإضرار، فناسبَ أن يُعدَّى بـ «عن» للأول، وبـ «على» للثاني، وظاهرٌ أنَّ مَنْ منع المعروف عن نفسه فإضرارُه عليها، فلا فرقَ بين اللفظين في الحاصل.

وقال الطيبي: يمكن أن يقال: «يبخل عن نَفْسه» على معنى يصدرُ البخلُ عن نفسه؛ لأنها مكان البخل ومَنْبعه كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ [الحشر: ٩]. وهو كما ترى.

﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ﴾ لا غيره عز وجل ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ الكاملون في الفقر، فما يأمركُم به سبحانه فهو لاحتياجِكم إلى ما فيه من المنافع التي لا تقتضي الحِكمة أيضًا لها بدون ذلك، فإن امتثلتُم فلكم، وإنْ تولَّيتم فعليكم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟﴾ عطفٌ على قوله سبحانه: «إن تؤمنوا» أي: وإن تُعرضوا عن الإيمان والتقوى ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يخلقْ مكانكم قومًا آخرين، وهو كقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٩]، ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ في التولِّي عن الإيمان والتقوى، بل يكونون راغبين فيهما.

و«ثم» للتراخي حقيقةً أو لبعدِ المَرْتبة عمَّا قبلُ. والمرادُ بهؤلاء القوم أهلُ فارس، فقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حُميد وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني في «الأوسط» والبيهقي في «الدلائل» والترمذي ـ وهو حديث صحيح على شرط مسلم ـ عن أبي هريرة قال: تلا رسولُ الله ﷺ هذه الآيةَ: «وإنْ تتولَّوا» إلخ، فقالوا: يا رسولَ الله، مَنْ هؤلاء الذين إنْ تولَّينا استُبْدِلوا بنا ثم لا يكونون أمثالَنا؟ فضرب رسولُ الله ﷺ على مَنْكِب سلمان ثم قال: «هذا

وقومُه، والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطًا بالثُّريا لتناولَه رجالٌ من فارس»(١). وجاء في رواية ابن مردويه عن جابر: «الدينُ» بدل: «الإيمان»(٢). وقيل: هم الأنصار. وقيل: أهلُ اليمن. وقيل: كِندة والنخع. وقيل: العجم. وقيل: الروم. وقيل: الملائكة، وحملُ القوم عليهم بعيدٌ في الاستعمال، وحيث صحَّ الحديث فهو مذهبي.

والخطاب لقريش أَوْ لأهل المدينة، قولان، والظاهرُ أنه للمخاطَبين قبلُ والشرطية غير واقعة، فعن الكلبي: شَرَط في الاستبدال تولِّيهم لكنهم لم يتولَّوا، فلم يستبدل سبحانه قومًا غيرهم. والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

ومما قاله بعضُ أرباب الإشارة في بعض الآيات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ نُصرة الله تعالى من العبد على وجهين صورةً ومعنًى، أما نُصرته تعالى في الصورة فنصرة دِينه جلَّ شأنه بإيضاح الدليل وتبيينه وشرح فرائضه وسُننه وإظهارِ معانيه وأسرارِ وحقائقه، ثم بالجهاد عليه وإعلاء كلمته وقمع أعدائه؛ وأما نُصْرته في المعنى فبإفناءِ الناسوت في اللاهوت(٣).

ونصرة الله سبحانه للعبد على وجهين أيضًا صورةً ومعنى، أما نُصرته تعالى للعبد في الصورة فبإرسال الرُّسل وإنزال الكتب وإظهار المُعجزات والآيات وتبيين السُّبل إلى النعيم والجحيم، ثم بالأمر بالجهاد الأصغر والأكبر وتوفيق السعي فيهما طلبًا لِرضاه عز وجل، وأما نُصرته تعالى له في المعنى فبإفناء وجوده في وجوده سبحانه بتجلِّي صفاتِ جماله وجلاله.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٦٧، وتفسير الطبري ٢١/ ٢٣٣، والأوسط (٨٨٣٨)، والترمذي (٣٢٦١). والخبر مذكور عند البخاري (٤٨٩٧)، ومسلم (٢٥٤٦) (٢٣١) في قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ من سورة الجمعة.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٦٧.

(٣) الناسوت واللاهوت من مصطلحات الصوفية التي استخدمها ابن عربي حيث يعني بالناسوت الجسم البشري، وباللاهوت الروح. المعجم الصوفي ص٢٣٣.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ يُشير إلى جنة قلوبِ أرباب الحقائق الذين اتَّقوا عمَّا سواه جلَّ وعلا ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ هو ماءُ الحياة الروحانية لم يتغير بطول المُكْث ﴿وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ﴾ وهو العلم الحقَّاني الذي هو غذاءُ الأرواح، أو لبن الفطرة التي فُطِرَ الناس عليها ﴿لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ بحموضة الشُّكوك والأوهام، أو الأهواء والبدع ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ وهي خمر الشوق والمحبة:

يقولون لي صِفْها فأنت بوصفها ... خبيرٌ أجَلْ عندي بأوصافها عِلْمُ
صفاءٌ ولا ماءٌ ولطفٌ ولا هوى ... ونورٌ ولا نارٌ وروحٌ ولا جسم

﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ﴾ وهو عسلُ الوِصال ﴿مُّصَفًّى﴾ عن كَدَرِ الملال وخوف الزَّوال ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ اللذائذ الروحانية ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ ستر لذنب وجودِهم كما قيل:

وجودك ذنب لا يُقاس به ذنب

﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ نار الجفاء ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ وهو ماءُ الخِذلان ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ من الحِرْمان.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ وهي ظُلمةٌ في وجوههم تُدرَك بالنظر الإلهي. قيل: المؤمن ينظر بنور الفِراسة، والعارفُ بنور التحقيق، والنبيُّ عليه الصلاة والسلام ينظر بالله عز وجل. وقيل: كلُّ من رُزِق قرب النوافل ينظر به تعالى؛ لحديث: «لا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أُحِبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبَصَره الذي يُبصِرُ به» الحديث(١). وحينئذ يُبصر كلَّ شيء، ومن هنا بعضُ الأولياء الكاملين يرى ـ على ما حُكي عنه ـ أعمال العبادِ حين يُعرَج بها، وسبحان السميع البصير اللطيف الخبير.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.